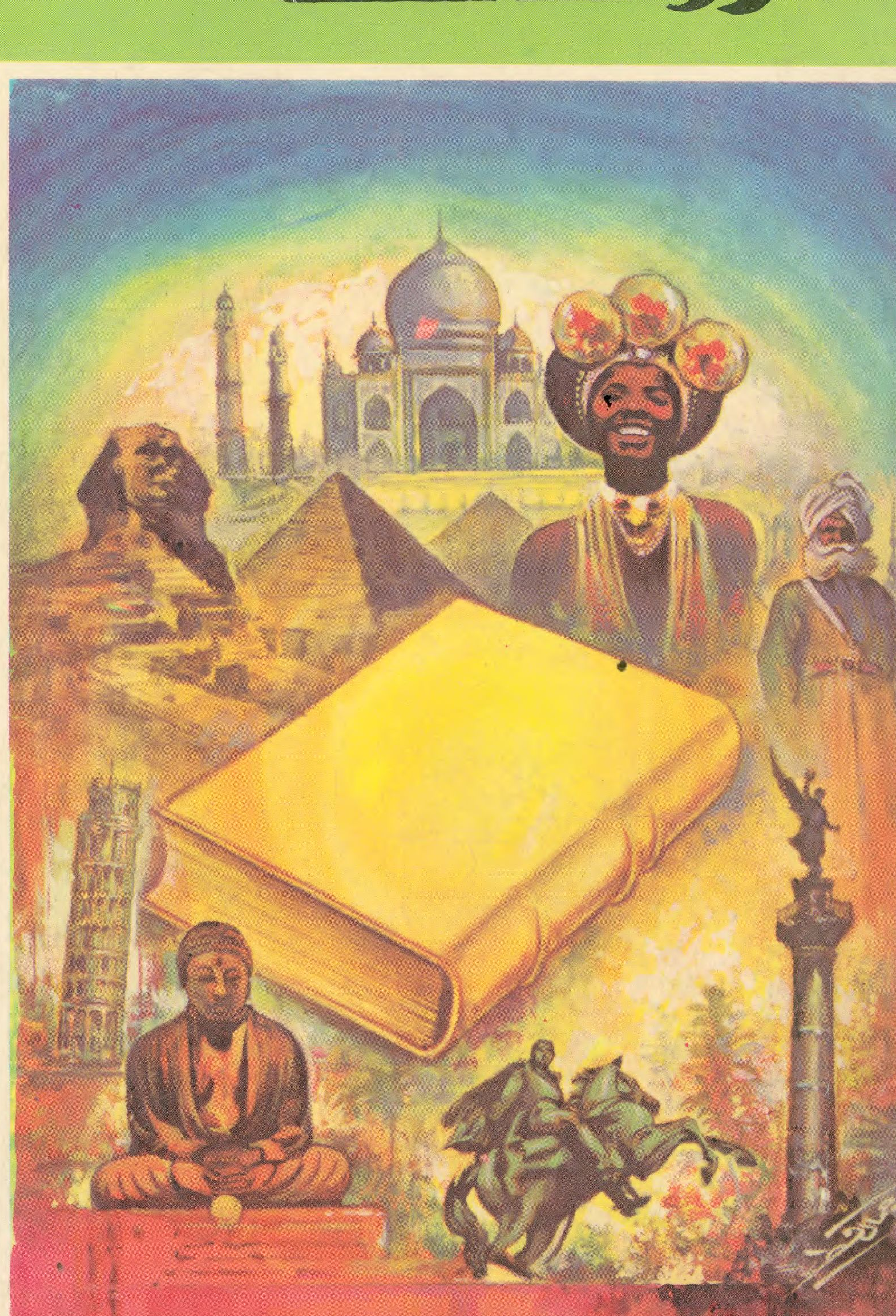
هكذا تكلم

زرادشت

تأليف الفيلسوف الألماني

فريدريك نيتشه



ترجمة

فليكس فارس

دار القلم

بيروت - لبنان

هكذا تكلم
زرادشت

هكذا تكلم

زرادشت

تأليف الفيلسوف الألماني

فريدريك نيتشه

ترجمة

فليكس فارس

دار القلم

بيروت - لبنان

تمهيد

> ما من مفكر أشد اخلاصاً من نيتشه إذ لم يبلغ أحد قبله ما وصل اليه وهو يسبر الاغوار في طلب الحقيقة دون أن يبالي بما يعترض سبيله من مصاعب لأنه ما كان ليرتاع من اصطدامه بالفجائع في قراراتها أو من انتهائه إلى لا شيء .
>
> **اميل فاكيه**
>
> عضو المجمع العلمي الفرنسي

هذا هو نيتشه كما صوّره فاكيه بعد أن درس عديد مؤلفاته واستعرض فلسفته . وقد جاراه بهذا التقدير أنصار نيتشه وخصومه من كل شعوب أوروبا ، فانك لو استعرضت المؤلفات التي كتبها عنه العباقرة العديدون ، ومنهم من يعتقد بتخبطه على غير هدى ومنهم من يرى وراء كل جملة من أقواله سورةً لا تنجلي معانيها إلا للعقل النافذ والحس المرهف ، لرأيتهم قد أجمعوا على وصفه بالمفكر الجبّار المتجه إلى الحقيقة يطلبها وراء كل شيء حتى وراء المبادىء التي يقول بها .

وما أجمع هؤلاء المفكرون إلا على الصواب في هذا الوصف الذي ارتضاه نيتشه لنفسه إذ قال :

« لا يكفي لطالب الحقيقة أن يكون مخلصاً في قصده بل عليه أن يترصد إخلاصه ويقف موقف المشكك فيه لأن عاشق الحقيقة انما يحبها لا لنفسه مجاراة لأهوائه بل يهيم بها لذاتها ولو كان ذلك مخـــالفاً لعقيدته ، فاذا هو اعترضته فكرة ناقضت مبدأه وجب عليه أن يقف عندها فلا يتردد أن يأخذ بها .

إياك أن تقف حائلاً بين فكرتك وبين ما ينافيها ، فلا يبلغ أول درجة من الحكمة من لا يعمل بهذه الوصية من المفكرين .

عليك أن تصلي نفسك كل يوم حرباً وليس لك أن تبالي بما تجنيه من نصر أو تجني عليك جهودك من اندحار ، فان ذلك من شأن الحقيقة لا من شأنك » .

●

قال نيتشه بهذا المبدأ وعمل به ، وبالرغم ممـا يتجلى في تعاليمه من غرور وصلف، فانه كان يسير في ابحاثه ولا همّ له سوى استكشاف الآفاق فيورد اليوم فكرة يكذبها غداً فكأنه بانكاره الخير والشر لم يجد بداً من انكار كل عقيدة ثابتة ، فـاذا أنت أردت أن تسير وراء هذا الفيلسوف طلباً للعقيدة فلا تتعب نفسك باللحاق به في مراحل يقطعها بخطواته الجبارة لأنه هو نفسه قـد أصابه الخبل وبصيرته تائهة في استلهام الحقيقة واستقرائها .

منْ قال لك :

« ان لا مكتشف لحقيقة ذاته إلا من يهتف : هذا هو خيري وهذا هو شري فيخرس الخلد والقزم القائلين بأن الخير خيرٌ للكل والشر شرٌ للجميع » .

من قال لك هذا ، لا تتوقع منه أن يأتيك بشرعةٍ تقوم مقام الشرائع التي يثور عليها .

ان نيتشه المفكر الجبار الذي يفتح أمام الفرد آفاقاً وسيعة في مجال القوة

والثقة بالنفس وتحرير الحياة من المسكنة والذل ، تائقاً إلى ايجاد إنسان يتفوق على انسانيته بالمجاهدة والتغلب على العناصر والعادات والتقاليد ومـــا توارثته الأجيال من العقائد الموهنة للعزم ، يقف وقفة الحائر المتردد عندما يحاول إقامة مجتمع لأفراه المتفوقين بل هو يضطر إلى نقض أولياته القائمة على احتقار الرحمة والرحماء حتى ينتهي إلى قوله :

« ان العالم الذي يتفوق على الانسانية إنما يعود بعد هذا الجنوح إلى بذل حبه للأصاغر والمتضعين » .

وهكذا ترى زرادشت الداعي إلى تحطيم ألواح الوصايا جميعها وإلى انكار الشريعة الأدبية لاقامة شرعة جديدة ما وراء الخير والشر يعود مفتشاً بـين انقاض الارواح التي حطمها عن كلمات قديمة يجعلها دستوراً لانسانيته المتفوقة .

ان نيتشه الذي ذهب إلى أبعد مدى، في تفحص سرائر الانسان واهوائه يضيق به المجال عندما يتجه إلى حل المعضلات الاجتماعية ، لأنه إذا أمكن للفرد المنعزل أن يختط لنفسه منهجاً يوافق هواها باعتقاده انه هو المبدع لذاته والحركة الاولى لها ، فانه ليمتنع عليه أن يكون عضواً حياً في المجموع إذا هو لم يعترف في علاقاته مع اخوانه بأنه ليس مصدراً لذاته ولا مآباً لها .

ان من يطمح إلى مثل مـا طمح اليه نيتشه من تكوين مجتمع منظم يسود فيه المتفوقون ولكل منهم شره الخاص وخيره الخاص لا يوجد في النهاية إلا مجتمعاً يتفاوت التفوق فيه بين أفراده فيقضي الأقوى منهم على الأقل قوة منه حتى يقف آخر الظافرين منتحراً بقوته وعنفه كما انتحر إله نيتشه برحمته .

غير ان المبدع لزرادشت لم تفته هذه الحقيقة ، فعـــاد إلى الشريعة الأولى يختلس منها آيتها الكبرى ليوردها وصية لدنياه فقال :

« حـــذار من الطفرة في مسلك الفضيلة ، فعلى كل فرد أن يسير في طريقه

وان جنح عن مسلك الآخرين ، فلا يطمحن إلى بلوغ الذروة وحده ، إذ على كل سائر أن يكون جسراً للمتقدمين وقدوة للمتأخرين .

أين هذه الوصية مما دعا اليه زرادشت في مفكراته نفسها إذ قال :

« على أهل السيادة في الانسانية المتفوقة أن يمهدوا سبل السعادة لمن هم دونهم بتضحية ملذاتهم وراحتهم ، وعليهم أيضاً أن ينقذوا من لا يصلحون للحياة بالقضاء عليهم دون امهال » .

بل كيف يتفق القسم الأول من هذه الوصية مع قسمها الثاني ؟ ومن له ان يضع مقياساً يقضي بـه لمن يصلحون للحياة كما يقضي به على من لا يصلحون لها إذا اتبع القاضي شرعة زرادشت القائل بأن على اتباعه أن تتجلى القوة فيهم من الرأس حتى أخمص القدم ؟.

ولو ان مذهب نيتشه هذا طُبق قبل ميلاده لكانت السلطة التي يراها مثلاً أعلى قضت على أبيه وامه دون امهال فما كان له هو أن يظهر في الوجود بدماغه الجبار وبسمّ الداء الذي جال من دمهما الملوث في دمه ...

ثم ، أفليس هنالك غير هذه الادواء الطارئة والتي يمكن للعالم أن يكافحها ، ما يُقضى على الانسان بالرضوخ له من حالة في جسمه لا قبل له بتبديلها أو تعديلها ؟ أفما تحقق الطب ان كل مولود يجيء الحياة انما يدخلها مستصحباً معه اليها من سلالته الضعف الذي سيقضي عليه ؟ أفليس في كل دارج على هذه الغبراء علة أو علل كامنة في تكوين أعضائه ستورثه الردى حين تدنو ساعته؟.

أي جسم مهما ظهر لك صحيحاً ليس فيه عضو هو اضعف الحلقات في سلسلة أعضائه وفي فراغ مناعته المحدودة انفصام العرى وبداية انحلال العناصر في هيكله الفاني ؟.

أين هو الجسم المنيع الذي يتوق نيتشه إلى إيجاده مربعاً من قمة الرأس إلى أخمص القدم ؟

لقد عمل العالم المتمدن على ايجاده بالرياضة فأوجد الرقاب الغليظة والعضلات المتضخمة مسبّباً منها تضخم القلب وجفاء الطبع وبلادة التفكير وانحطام اجنحة الخيال .

يريد نيتشه خلقَ الانسان المتفوق جباراً كشمشون وشاعراً كداود وحكيماً كسليمان . فهو يكلف الطبيعة ما لا قبل لها به ويطمح إلى ايجاد جبابرة لا يصلحون لشيء في المجتمع لأن الحيوية لا تنصرف من مختلف نوافذها الجسيمة في آن واحد دون أن تقبض على صاحبها لتوقفه من سلم الارتقاء على مرتبة معلقة بين الاعتلاء والانحطاط فيكون منه لا الانسان المتفوق بل الانسان « التافه » القصير الحياة والقاصر في كل عمل يباشره .

ان المجتمع لا يقوم من الوجهة العملية على أفراد يحاولون الإحاطة بكل شيء فلا ينالون منها شيئاً .

وليس الحال الا على هذا المنوال من الوجهة الروحية أيضاً ، فان من تبصر في أحوال الناس وطرائقهم في الحياة ، لا بد له أن يسلم أخيراً بأن لكل شخصية حياتها بما كمن في حوافزها ولكل شخصية ميتتها بما خفي من ادواء جسمها وعلل ارادتها وبما وراءها من مقدمات وحولها من نتائج .

ان في الحياة مسالك خطتها الارادة الكلية وليس للارادة الجزئية أن تتناولها بتحوير ، فمصاعد الرقي للارواح منتصبة من كل مسلك في عالم الظاهر نحو العالم الخفي ، وما خصت العناية اقوياء الجسوم بالارتقاء .

ولرب صعلوك في نظر نيتشه لا يصلح للحياة ويجب أن يقضي عليه دون إمهال تنفجر منه قوة لا تراها إلا البصائر النيرة .

من لنا بسبر الاغوار البعيدة القرار لندرك سر التكامل في الذات والحكمة في حد الاشواط لكل روح لتقوم بقسطها من المقدور ؟

ومن لنا بادراك سر الضعف والقـوة وقد يكون الضعف في الجسم السليم والقوة في العليل من الاجسام ؟

ان لكل مخلوق أن يبلو الحياة بما اعطي من ظاهر الضعف أو ظاهر القوة ، لأن للصحة محنتها كما للمرض محنته ، والانفس الطامحة إلى مثلها العليـــا سواء أكانت هذه المثل في هذه الحياة أم ما وراء الحياة ، انما تتغذى من الجسد ناحلاً عليلاً كما تتغذى منه مليئاً بالنضارة والصحة والبهاء .

ان للحكمة العليا مقياسها في تقدير الجهاد الأكبر على كل نفس ، ومن يدري في أية لحظة وبأي مداد من قوة الجسد أو ضعفه تخط الروح الأسيرة آخر سطر من كتابها ؟

●

ان محور الدائرة في فلسفة نيتشه انما هو ايجاد إنسان يتفوق على الانسانية ، لذلك تراه يهزأ بكل من عده التاريخ عظيماً بين الناس قائلاً ان الجيل الذي يلد العظماء لم يولد بعد وان لا رجل في هـذا الزمان يمكنه أن يتفوق على ذاته ، وكل ما بوسع الناس أن يفعلوه في سبيل المثل الأعلى هو أن يتشوقوا اليه ليخرج من سلالتهم في مستقبل الأزمان .

وسوف يرى القارىء في الفصول الأخيرة مـا هو تقدير زرادشت للرجال الراقدين في هذه الحقبة الشاملة لعصره ولعصرنا ، فهـــو يعتبرهم نماذج فاشلة للانسان الذي يتوقع نشوءه ، غير ان زرادشت وهو يتكلم بلهجة الآمر الناهي ويرسم للحياة طرقها بخطوط متفرقة ان لم تجمعهـا أنت بقيت حروفاً منتثرة لا معنى لها لا يقول لنا بصراحة ما يجب أن نفعله لنصبح جدوداً لأحفاد تصلح بهم الحياة ، ولكن من يعوّد بصيرته على مجاراة نيتشه في الرؤى التي يهيم فيها يستوقفه قوله :

« إن ما ُفطرنا عليه هو ان نخلق كائنـــاً يتفوق علينا ، تلك هي غريزة الحركة والعمل » .

ثم يستوقفه في موضع آخر قوله :

(إنني لم اجد امرأة تصلح أماً لأبنائي إلا المرأة التي احبها) .

فاذا ما وقف المفكر عند هذا يعرف ما هي تلك الفطرة التي يراها دافعة للانسان إلى التفوق على ذاته وأنساله .

وما تكون تلك الفطرة ان لم تكن حافز الحب الصحيح وفي أعماقه غريزة الانتخاب تجتذب الزوجين إلى اتصال يشدد احدهما فيه ما وهن في بنية الآخر؟

ولولا اننا درسنا ملياً مسألة اعتلاء الامم وانحطاطها ببحث صحة النسل واعتلاله في فصل (منابت الأطفال) من كتابنا (رسالة المنبر إلى الشرق العربي) لكنا نثبت هنا ان ايجاد الانسان الكامل في انسانيته ، لا الانسان المتفوق على نوعه كما يريد نيتشه ، انما يقوم على مجاراة حوافز الاختيار الطبيعي في الزواج باعتبار كل شهوة جامحة وكل طمع يسكت هاتف الاختيار سواء في الرجل أو المرأة جناية على الإنسانية .

هذا واننا لا نجد بداً من نقـــل بعض فقرات من فصل منابت الأطفال تأييداً لهذه الحقيقة .

●

إن الانسان لا يريد الانقياد للانتخاب الطبيعي فهـــو يطمح إلى تحكيم اختياره في حوافز لا يعلم منشأها ، فيعمد الرجـــل إلى استيلاد المرأة اطفالاً تتجلى فيهم كواهن علله وعلل المرأة التي يرغمها إرغاماً بدلاً من أن ينقاد الى الانتخاب الطبيعي الذي تتذرع بـــه الطبيعة للغلبة على العاهات والأمراض ، وللقضاء على حوافز الخبل والاجرام .

●

إن الولد المختل العليل انمـــا هو الضحية البريئة تصفع الطبيعة به أوجه الرجال الفاحشين والنساء الطامعات المضللات .

●

ومما لا ريب فيه أيضاً ان الطبيعة في حرصها على طابع الابوين في الابناء تطمح دائماً الى الجمع بين رجل وامرأة يصلح احدهما ما افسدت الحياة في الآخر، ولا يقف طموح الطبيعة عند حد إصلاح الاعضاء بل هو يتجه خاصة في الانسان إلى إصلاح ما تطرق من عيوب إلى صفاته الادبية العليا ، ولعل في هذا بعض التفسير لسيادة الايقاع بين رجل وامرأة تخالفت اشكالهما وأوضاع اعضائهما ومظاهر قواهما الأدبية والعقلية ، فقد لا تجد مصارعاً قوي العضلات يعشق مصارعة مثله ولا فيلسوفاً يتولّه بفيلسوفة ، ولكم وقف المفكرون مندهشين أمام امرأة فاضلة تحس بانجذاب نحو رجل متلاعب محتال أو بارعة في الجمال تندفع إلى الالتصاق برجل قبيح ، ان بعض العشق ينشأ من جنان خفي في الطبيعة يشبه عطف الطبيب المداوي على العليل المستجدي الشفاء ...

●

« إن المفكرين يثورون على الشبان الذين يقدمون على الزواج وفي دمائهم سموم وفي مجاري نطفة الحياة منهم صديد ، ومن الامم من سنت القوانين الصارمة لمنع جواز المبتلين بالعلل الزهرية وبالجنون محافظة على صحة النسل ، ولكنني لم اقرأ لمفكر رأياً في الحيلولة دون الزواج الآلي المجرد من كل عاطفة ، ويتراءى لي ان طفلاً يجني ابواه عليه بايراثه دماً افسدته الامراض لهو أقل شقاء بنفسه وأقل اضراراً بالمجتمع من طفل يرث من ابويه عهر العاطفة وضلال الفطرة.

قد تشفي العقاقير أبناء العلل ولكن أي دواء يشفي الطفل الذي زرعه توحش الرجل المفترس في احشاء المرأة المنكسرة الذليلة ؟ ان هذا الطفل لن يكون إلا وحشاً كأبيه أو عبداً ذليلاً كأمه » .

« إن من الحب ما ينشأ عن الحياة الجسدية حاجة ملحة متقلبة كالحياة نفسها ، وفي النساء كما في الرجال أناس حبهم أشبه بالجوع والظمأ يتهافتون على أية مائدة ويرتوون من أي ينبوع . وماذا عساه يفهم من الحب من يرى المحبوب

مائدة وينبوعاً ؟ قلّ من الناس من يدرك ان من أنكر على المحبوب شخصيته التي لا تستبدل فقد أنكر هو ذاته شخصيته التي يحس بها » .

●

« لا صلاح لأمة فسدت منابت أطفالها ، وهذه عبر التاريخ ماثلة لعيان من يريد أن يرى .

أفما كانت كل الامم التي اندثرت واستعبدت تمر أولاً في مرحلة تدني الاخلاق وانطلاق الشهوات عابثة بأشرف ما خلق الله في الانسان ؟ » .

●

« سوف يأتي يوم ، وهو غير بعيد ، تنتبه المدنية فيه إلى ان الرجل المتفوق الذي ينشده العلماء في الغرب لن يخلق لهم من التمرين لقوى العقل وقوى الجسد ولا من فحص خلايا المتزوجين بالمجهر حتى ولا من تلقيحهم بالمواد الكيماوية أو تطعيمهم بغدد القرود .

إن الرجل الكامل أو الأقرب الى الكمال انما هو ابن الحب الكامل ، فالمحبة وحدها هي السبيل المؤدي إلى إدراك الحق والقوة والجمال .

لندع العالم المتمدن يفتش في علومه ونهضة مفكريه عن هذا الحب الذي تخيله ماركس متجلياً في الحرية التامة للناس في أهوائهم فجاءت البلشفة تثبت انخداع هذا الفيلسوف في نظرياته . ليفتشوا ، انهم لن يصلوا في تجاربهم إلا العبر الزاجرة المؤلمة .

أما نحن ، أبناء هذا الشرق الذي انبثق الحق فيه انصباباً من الداخل بالالهام لا تلمساً من الخارج، فلنا المسلك المفتوح منفرجاً أمامنا للاعتلاء والخروج الى النور بعد هذا الليل الطويل ، اذا نحن أخذنا بروح ما اوحاه الحق الينا .

لا بترقية الزراعة والصناعة ، ولا بنشر التعليم والتهذيب ، ولا بجعل البلاد جنة ثراء وتنظيماً ، تنشأ الأمة ويخلق الشعب الحر السعيد .

ان الجنين الذي يحمل أسباب شقائه وهو في بطن امـه لا يمكنه أن يصير رجلاً حراً وقوياً يفهم حقيقة الحياة ويتمتع بالعظمة الكامنة فيها .

ان الاهتمام بايجاد الطفل الصالح أولى من العمل لاعداد العلم والتهذيب لطفل تصقل مظاهره صقلاً وتتحطم كل محاولة للنفوذ إلى علته المستقرة فيه منذ تكوينه».

« ليس الفقير المتسول ، ولا العليل المتألم ولا الشيخ الهرم يتمشى بلا سند الى قبره ، ليست المرأة المستعبدة بلقمة ولا الفتـاة المخدوعة المنطرحة على أقذار المواخير ، ليس كل هؤلاء الناس الأشقيـاء في الحياة بأشقى من الاطفـال يجور عليهم آباؤهم وامهاتهم قبـــل أن يقذفوا بهم إلى الوجود ويرهقوهم بالقطيعة والاهمال بعد ان يدرجوا عليها بأقدامهم الناحلة المتعثرة ...

الرجل الذي يمسخ حبه الواحد شهوات متعددة والمرأة التي تتقصف متهتكة ماسخة هيكل نسمات الله مركعاً لنفايات البشر من عباد الخيانة والطيش ، انما هي آدم وحواء مطرودين من الجنان إلى أرض الجهود المضيعة والآلام المحتمة ، ومن يدري ان حديث معصية الابوين ليس رمزاً لخيانة الحب ، تلك الخيـانة التي تنزل بمرتكبيها وبابنائهم من بعدهم ...

ويلٌ للرجل الذي يهدم بيديه سعادته وسعادة ابنائه وويـــل للمرأة التي تدنس منبت أطفالها » .

ليس في تمهيد موجز كهذا مجال لبحث فلسفة نيتشه التي شغلت كبار كتّاب القرن التاسع عشر ولم يزل الفلاسفة يكتبون عنها إلى اليوم ، غير ان ما تناولناه الماماً من نظريات نيتشه يكفينا لتحديد ما يجب أن نفعله منها دون أن ننتقص من قدر هذا العبقري لأنه اقتحم اسرار الكون معتمداً ذاته فعاد من هذه الاسرار مدحوراً. وهل من كاتب قبله أو بعده تمكن من حل ألغاز الوجود والوقوف منها عند عقيدة صريحة تستغني عن الايمان بالقوة الخفية المتعالية عن التحليل والتعليل؟

حسب نيتشه في موقف حيرته ، وما هي بالدرجة الوضيعة على سلم التفكير ،

أن يهتك سريرته امامك دون أن يلجأ إلى أعمال السفسطة لايجاد وحـــدة ظاهرية وتناسب مزيف في صرح تفكيره ، حسبه انه اندفع وراء المثل الاعلى الـكامن في « ارادة القوة » تبعاً لتعبيره وفي نفس الانسان الخـالدة تبعاً لعقيدة المؤمنين ، فبسط أمـام المفكرين من مشاهد المجتمع ومن مسالك الارواح على معابر الارض ما لم يلمحه سواه من المنشئين .

●

ان ما نرانا بحاجة إلى الوقوف عنـده من فلسفة نيتشه في كتاب زرادشت الذي لم تفته قضية اجتماعية لم يقل فيها كلمة كان لها دويها في العالم الغربي ، انما هو هذه المبادىء التي تجتث ما غرست قرون العبودية في أوطاننـا من استكانة حولت ايمانها إلى استسلام في حين ان روح شرعتها يهيب بالنفس إلى الجهادين في سبيل الوطن والانسانية جمعاء .

ان الدين الذي يهاجمه نيتشه انما هو صورة لأصل شوهها الغرب، وما علم هذا الدين أن الحياة معبر على المؤمن اجتيازه وهو معرض عن كل ماحوله معلق أبصاره على باب قبره ، بل علم ان الحياة مرحلة من اشواط الآزال والآباد ومـا تطهر أنفس لم تحترق بنار الحياة أجسادها ولم تعد صلاحاً لباقياتها باصلاح زائلاتها .

ليس نيتشه إذاً مبدع فكرة التكامل للانسان على الارض، فان التكامل مبدأ جعلته الاديان السماوية أساساً لكل وصية تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر، غير ان الدين قد أراد للانسان تكاملاً روحياً يهيئه إلى ادراك بارئه وراء المحسوس في حين ان نيتشه ، وقد أنكر ما لا تقع الحواس عليه ، أراد أن يفلت الانسان من حدود انسانيته على هذه الأرض فيجعلها جنة خلد يستوي عليها بجبروته إلهاً...

وقد غرب عن هذا الفيلسوف ان المخلوقات كلها في سلسلة الوجود لا تملك الانعتاق من حدود أنواعها ، ومهما كرت القرون وتعاقبت الاجيال لا يمكن للجماد أن يفلت من مملكته إلى مملكة النبات ولا للنبات أن تجتاز حدود مملكة الحيوان ولا للحيوان أن يجتاح مملكة الإنسانية .

لذلك كان الذاهب في طلب انسان يتفوق على الانسانية كالمحاول استنبات الشجرة حيواناً أو استبدال الحيوان انساناً .

لقد كرت القرون على مبدأ التاريخ الذي نعلم وعلى ما لا نعلم من حقب ، كرت ما وراءه والانسان لم يزل هذا المخلوق الدائر أبداً ضمن حلقة انسانيته .

لقد كان نيتشه من المعتقدين باستحالة الأنواع حين صرخ بلسان زرادشت وهو يخاطب الحشد في الساحة العمومية :

(لقد كنتم من جنس القرود فيما مضى ، على ان الانسان لم يفتأ حتى اليوم أعرق من القرود في قرديته) .

ولكنه بالرغم من هذا يصرح بأن هذا النوع القردي وهو الانسان لم ينسلخ عن أصله فكيف زين له خياله أن في هذا النوع إنساناً فائقاً لا يزال كامناً منذ البدء ينتظر قدوم فيلسوف في أواخر القرن التاسع عشر يستجلي هذا الجبار ويبعثه بارادة جديدة تتسلط لا على الحاضر والمستقبل فحسب بل على ما مر وتوارى أيضاً في عاصفات الاحقاب ؟.

•

ان بدعة الإنسان المتفوق إنما هي في تقديرنا تشوّق نفس شعرت بأنها كانت وستكون ، وقد ضرب الالحاد حولها نطاقاً فتوهمت انها ستبلغ في هذه الحياة ما ليس من هذه الحياة .

إن نيتشه يعلن الحاده بكل صراحة ويباهي بكفره غير اننا لا نكتم القارىء الكريم ان ما قرأناه بين سطوره ، وقد مررنا بها كمن عليه أن يتفهم كل معنى ويستجلي كل رمز ، يحفزنا إلى القول بأننا لم نر كفراً أقرب إلى الايمان من كفر هذا المفكر الجبار الثائر الذي ينادي بموت الله ثم يراه متجلياً أمامه في كل نفس تخفق بين جوانح الناس من نسمته الخالدة ، فان هذا الملحد ، بالرغم

من اعتقاده بأن الجسد هو أصل الذات وان الروح عرَض لها ، وبأن كلا الروح والجسد فانيان ، لا يملك نفسه من الهتـــاف وهو يؤكد عودة كل شيء واستمرار كل شيء فيقول :

— أواه كيف لا أحن إلى الأبدية وأضطرم شوقاً إلى خـاتم الزواج ، إلى دائرة الدوائرحيث يصبح الانتهاءُ ابتداءً . انني لم أجد حتى اليوم امرأة اريدها أماً لأبنائي إلا المرأة التي أحبها لأنني أحبك أيتها الأبدية !

إنني احبك أيتها الأبدية .

أين هذه الهتفة الرائعة تصدو في أعماق روح تتطير من الزوال من ابتسامة اللحد الصفراء وهو لا يرى وراءه وأمـــامه إلا العدم والزوال بل يكاد يرى وجوده خدعة وخيالاً كاذباً ؟

إن فلسفة لا تستنيم لفكرة الفناء ولا ترى في النهـــاية إلا عودة إلى بدء ليست بالفلسفة الجاحدة ، فالمفكر المؤمن بانسانية عليا تتدرج إلى الكمال .. ولو قـال بألوهية الانسان على الأرض لا يمكنــه إلا أن يؤمن في قرارة نفسه بكمال مطلق تتشوق روحه اليه ما وراء هذا العالم .

●

ولا بد هنا من إيراد تاريخ موجز لحياة هذا الفيلسوف ، وليس في حيــاته القصيرة وهي مليئة بالآلام من الحوادث ما يستحق التدوين غير المراحل التي مرّ عليها تفكيره فتأثر بها . وهـــل نيتشه إلا فكرة وهل حياته إلا وقائع ميادينها السطور والصفحات ؟

وُلد هذا العبقري الثائر سنة ١٨٤٤ في بلدة روكن من أعمال المانيا وكان أبوه واعظاً بروتستانتياً من اسرة بولونية هجرت بلادها في القرن الثامن عشر على أثر اضطهاد شرد منها أشياع كنيسة الاصلاح .

وما بلغ فردريك الخـامسة من عمره حتى مـات أبوه فكفلت امه تربيته

وتربية اخته فأرسلته إلى مدرسة نورمبورغ ثم انتقل منها سنة ١٨٦٤ الى كليق بون وليبسيك حتى إذا بلغ الخامسة والعشرين من عمره سنة ١٨٦٩ تجلى نبوغه فعين استاذاً للفلسفة في كلية بال .

بعد سبع سنوات أي سنة ١٨٧٦ ظهرت عليه أعراض « الزهري الوراثي » فحكه صداع شديد أضعف بصره فبقي يلقي الدروس حتى سنة ١٨٧٩ إذ اضطر إلى الاستعفاء ليذهب متنقلاً بين روما وجنوا ونيس وسيل ماريا وهو يعمل الفكر ويكتب مصارعاً علته عشر سنوات فلا هو يبرأ منها فيحيا ولا هي تجتاح دماغه الجبار فيموت ، إلى أن جاءته سنة ١٨٨٩ بالفالج مقدمة للجنون فتوارى سنة ١٩٠٠ بعد ان سبقته إلى الموت عبقريته العليلة وارادته الوثابة الجبارة .

●

ذلك كان فردريك نيتشه ، مجسّم القوة المفكرة التي دارت بها النائبات وحاصرتها الاوجاع وتصادمت مع تيارات الفلسفات التي كانت تهب في ذلك العهد في المانيا وفي اوروبا بأسرها حاملة للعالم مبادىء تضعضع العقل وتهز المجتمع بتقويضها كل عقيدة تقيم أمام الإنسان غاية لحياته .

فقد كانت أفكار فيخته وشللينغ وهيغل وشوبنهور تهب جميعها ناشرة في أوروبا مزيجاً من مذاهب القدرية والعدمية ووحدة الوجود والارادة الحرة ، فقال شوبنهور ان روح الوجود قوة طائشة عمياء أدركت نفسها في عقل الانسان وشعوره فوجم حائراً وفي نفسه ظمأ في صحراء لا ماء فيها غير وهج السراب .

ولم يجد هذا الفيلسوف من علاج لهذه العلة غير التمرد على الحياة نفسها بترك ملذاتها والالتجاء إلى الزهد وانتظار الفناء في ما يشبه النيرفانا وهي القوة التي تتلاشى كل شخصية فيها .

وكانت الفلسفة الدينية تقاوم هذه التيارات للاحتفاظ بالعقيدة المسيحية

بابحاث لاهوتية ينسجها حول تعاليم عيسى رهط من المفكرين كنوين و كورليج و كارل ل وشلير ماخر وبيار لرو وجان باينو وشارل سكريتان واضرابهم فزجوا بالانجيل في مآزق مجادلات ليست منه وليس منها في شيء. وهل خطر لذلك المعلم الانساني وهو يدعو إلى تطهير النفس ومقاومة الظلم والأخذ بالرحمة وإقامة الاخاء بين بني الانسان أن ينشيء مدرسة للتعليل عن مظاهر الكون ومنشأ الروح والانعكاسات من الافاق والانطباعات في السرائر ، بل هل خطر له أن يبحث علاقته بالله وعلاقته هو وحده أو هو وأبوه الخليقة كلها بروح القدس ؟

●

وأخذ نيتشه بهـــذه التيارات تهب من كل جانب على فكره الوقاد تلهبه الآلام وتثير تشوقه إلى حال يعلل فيها سبب وجوده وهدف صبره وجهاده .

ان الرجل المتمتع بصحة الجسم وبشيء من العزم يكتفي من هـذه الحياة بما تعطيه ، فاذا آمن بالله واليوم الآخر وقف عند ايمانه هذا مرتاحاً إلى ضميره ، وإذا أخذ بفلسفة الجحود رضي بهذه المرحلة من شعورة بـذاته وطلب أوفر تمتع بأقل جهد .

ولا يسطو القلق الفكري بخاصة في حالة الحيرة من أمر هذه الحياة إلا على الانسان الذي يؤدي ثمناً باهظاً من أوجاعه لكل لذة يختلسها كالسارق من قوته الاسيرة في ضعفه الجائر .

إن مثل هــذا الانسان ، إذا عززته القوة الخفية بالحس المرهف ، يطالب الدنيا ببدل لمـــا يبذل فيها فيستنطق نفسه والآفاق ليعلم ما إذا كان لهذه الإنسانية المعذبة المجاهدة ما يبرر محنتها وجهادها .

وفريدريك نيتشه كان ذلك الانسان فما أرضته من الفلسفة اللاهوتية تلك الأحاجي التي احيطت المسيحية بهـــا ، وما كان ليرضى من جهة اخرى بهذه القوة الهوجاء التي صورها شوبنهور موجدة لإنسان لم يعط له إلا التصور لإقامة أشباح تتراقص حوله وهي غير كائنة إلا في وهمه .

ونظر نيتشه إلى الوجود فرأى وراء صوره المتحولة مادة تتعالى عن الاندثار فنشأت فيه فكرة العودة المستمرة وبدأت صور زرادشت ترتسم في ذهنه حتى استكملها فأنشأ كتابه في أوقات متقطعة من سنتي ١٨٨٣ و ١٨٨٥ ، في فترات كانت تسكن فيه حدة دائه أو هو يسكنها بمـــا كان يتناوله من جرعات الكلورال المخدر . وهو نفسه يقول انه كتب كلاً من الأجزاء الثـلاثة الأولى من زرادشت في مدى عشرة أيام كان فيها مأخوذاً بإلهامه خاضعاً لقريحة تحكمت فيه فلم يستطع مقاومتها حتى أرهقته ارهاقاً .

إذا نحن عرفنا هذا تجلت لنـــا العوامل التي القت على زرادشت وشاح الاحـلام ، فان نيتشه يقبض في فصوله على مشاعر قارئه ليمر به على رؤى يتسامى الخيال فيها إلى أوجه مفلتاً من رقابة القوى الواعية فكأنه يسير بمطالعه في عالم أحلام تبعث اشباحها من انطباعات القـوى الواعية ولكنها تتبع في مرورها وحركاتها ما نحسبه تضعضعاً في عالم القوى الساهية المجهولة .

●

لقد ماشينا نيتشه في حلمه وهو يستعير لعقله الباطن أو لسريرته أو لفكرته الساهية اسم زرادشت الفارسي الذي قال بالخير والشر كقوتين تتنازعان حياة الانسان ، فرأينا زرادشت المزيف لا يقلد الاصلي باتخـاذه اتباعاً له وباقتباسه لهجة حكماء الشرق إلا ليعارض فكرة الخير والشر قائلاً انها نشأت دخيلة على الانسانية وان ليس لهذه الإنسانية أن تتفوق على ذاتها إلا بانكار الخير والشر وتحطيم ألواح الشرائع المقدرة لقيم الأعمال لأن كل شعب اشترع لنفسه مـا لا يتوافق واشتراع جاره .

ولكن نيتشه المتلبس خيال زرادشت في رؤياه لم ينتبه إلى انـــه يرتكب تناقضاً بيناً في دعوته إذ ينكر ما يراه من خير وشر طلباً لحالة جديدة يراها هو خيراً يريد أن يتسلح به للقضاء على شرٍ ينكر وجوده .

ولو كانت الحقيقة كامنـة وراء الخير والشر كما يدعي زرادشت الجديد أو

بتعبير آخر لو ان هنالك حقيقة مجردة عن الخير فلماذا يطلب زرادشت هذه الحقيقة وهو يعلن انها الخير كل الخير للانسانية إذا هي أدركتها ؟

ان تحديد الخير والشر في الكلمات العشر انما هو أساس كل شرعة تكفل حق الفرد ونظام المجموع .

قد تتناقض الاحكام التي تستنها الحكومات والجماعات في مجال الازمان مستوحاة من حالة موقتة تدفع اليها حاجة ملحة ، فتكتب ألواح تستبدل بتبدل الوضع والملابسات ولكن السنن التي تستلهم من الشريعة الموحى بها لا يمكن أن تتعارض إذا هي سلمت من دخيلات الأوضاع الانسانية . وكل شرعة اصيلة تحتفظ بطابع مصدرها تتوافق حتماً وكل شريعة تحدرت مثلها من ذلك الاصل .

ان زرادشت الجديد لم يجل في مسارح حلمه فاتحاً لسريرته مجالات التفكير إلا وهو يحتفظ بانطباعات من تواريخ الامم القديمة الوثنية وبصور متناقضة من القوانين التي ابدعتها حكومات الغرب وجماعاته ونقاباته الصناعية والمالية فتمثلت هذه السنن أشباح ألواح تتراقص عليها ألوان البدع ، فما وسع زرادشت إلا أن يثور عليها ويدعو أتباعه إلى تحطيمها .

أما اللوحان الأولان وكلمة عيسى بأن يعامل الانسان أخاه بما يريد أن يعامله أخوه به والشريعة الأحمدية التي جاءت على أساس هذا المبدأ بخير الكلمات تستنبط منها الأحكام لكل جماعة ولكل زمان ، فان زرادشت لم يبحثها مع ان نفسه كانت تصبو اليها لشعوره بوجودها وراء أقنعة النظم التي أسدلها الغرب على مجتمعاته . وإذا كان لم يتميزها فما ذلك إلا لأن دماغه كان يتصدع بما حشر فيه من فلسفة اليونان القديمة ومن مشاحنات أعلام عصره الذين شغلوا بالجدل والمماحكات المنطقية المجردة حتى أتوا بنظريات تورث الدوار وتبلبل الفكر فيضطر من ألمّ بها إلى نبذها جميعاً لأنها كدود القبور يلتهم بعضها البعض الآخر بعد ان تتغذى من جيفة لا حياة فيها .

●

وفي هذا الحلم يسير زرادشت هادماً كل ناموس ونظام لينبىء الناس بالخلود وبقاء الذات في وجود شبه بالساعة الزملية ينقلب أبداً قسمها المفرغ لاستفراغ قسمها الممتلي .

ولا يطمعن القارىء في الظفر من زرادشت بما يثبت هذه العقيدة الراسية على خلود مبهم وعودة أشد ابهاماً لأنه لن يظفر منه بغير صور يلمحها لمحاً في بيان شعري يتلبس الفلسفة دون أن يكون فيه أثر لأي استقراء أو لأي تعليل فيخرج من استغراقه وهو لا يدري أيقصد نيتشه من العودة المستمرة ما يتوهمه الملحدون من خلود الآباء في الابناء أم هو يرمي إلى عودة الشخصية بالذات ناسية ماضيها تاركة في كل مرحلة من مراحلها جثة تتلوها جثة على مدى الأحقاب .

لقد تمرد نيتشه أمام العدم كما قلنا وخفيت عنه حقيقة الدين الذي أخذ به الغرب من عيسى فأحاطه بالمعميات كما خفيت عنه حقيقة ما أنزل على محمد فشوّهه هذا الغرب بالافتراء والتشنيع تعصباً وجهلاً فوقف مفكراً جباراً لا يستسلم لفكرة العبث في غاية الكون ولا يرضى بالنظم الاجتماعية التي أوجدتها المدنية واسندتها إلى الدين ، وهكذا هب يطلب للانسانية إلهاً منها يسودها وللأرض معنى أبدياً يحول كل زوال فيها إلى خلود مستمر التجدد بين الخفاء والظهور في محدود غير محدود ...

ولو تسنى لنيتشه أن ينفذ إلى حقيقة الايمان الذي دعا عيسى اليه مكملاً ما جاء به موسى لكان تجلى له ايماناً بالقوة ترفع الضعفاء لا بالضعف يسلط عليهم الأقوياء ، ولو تسنى له أن يستنير بما جاء به الإسلام من مبادىء اجتماعية علمية عليا تماشي ما جاء به عيسى ولا تنقضه لأدرك ان في الدين الحق دستوراً يهدم كل ما أراد هو هدمه من صروح الفساد في المجتمع ويوجد الإنسان المتصف بمكارم الأخلاق محباً للحياة والقوة والجمال والحرية دون أن يكسر حلقة الانسانية ويحاول الانطلاق منها وهو لا يزال يلبس تراب الأرض ويرسف في اغلالها .

ولكن نيتشه باندفاعه إلى معارضة الفلاسفة من معاصريه وبثورته على التفكير الديني والتفكير المطلق في آن واحد رأى ان التكامل لنيل عطف

الالوهية الراسخة في الاذهان والتخلص من عقابها الصارم يقتضي الأعراض عن الزائلات والاستكانة إلى السلطة واعتبار العاطفة الجنسية ملطخة بأوضار الخطيئة الأصلية فثار على هذه الالوهية المزيفة التي ما عرفها الشرق في أي دور من ادوار وحيه ، وهكذا كفر نيتشه بالله فأعلن موته واختناقه برحمته ...

هذا هو جحود نيتشه في تعاليم زرادشت ، وهو في تقديرنا إذا نحن استنرنا بالدين الحق كما تدركه ذهنيتنا السامية جحود يتجه إلى غير الاله الواحد الأحد رب الناس أجمعين .

بل اننا إذا ذكرنا القاعدة المثلى التي وردت في حديث للنبي الكريم على قول أو في كلمة لأمير المؤمنين عمر على قول آخر ، وهي :

« إعمل لدنياك كأنك تعيش أبداً ، واعمل لآخرتك كأنك تموت غداً » .

إذا ذكرنا ذلك، يتضح لدينا ان نيتشه قد ذهب إلى أبعد مدى في الامتثال للوصية الأولى وقد فاتته الوصية الثانية وهي وصية راسخة في أرواح أبناء هذه البلاد الشرقية العربية ، فليس إذاً في عظات زرادشت ما يزعزع عقائدنا أو ينال من ايماننا ، بل ان فيها ما يتمشى والمبادىء العليا التي اتخذها السلف الصالح أساساً لاقامة عظمة الدين على عظمة الحياة .

وفي اعتقادنا ان نيتشه قد فاق كل كاتب في تصويره واجب الانسان نحو الحياة الدنيا لأن العلماء الماديين من جهة اعتبروا الحياة زائلة فما اهتموا لرقيّ الإنسان الأدبي فيها قدر اهتمامهم بإطالة حياته وايلائه التنغم الأوفر بالجهد الأقل ، ولأن المفكرين المؤمنين ، من جهة اخرى ما كان بوسعهم أن يفكروا للارض ويحصروا كل جهد فيها كأنها دار قرار لأن العمل للأرض ليس ايمانهم كله بل هو نصف ايمانهم ، أما نيتشه فبعد ان أقفل على تفكيره وخياله كل نافذة يمكن للروح أن تتطلع منها إلى السماء ، وبعد ان تاقت نفسه إلى الخلود فاستنزله كمعنى لهذه الارض كما يقول جاعلاً هذا التراب وطن الانسان الدائم ،

لم يسعه إلا توجيه كل قواه لتصور انسانية تتمتع بكل ما يمكن اعتصاره من الدنيا وتبلغ عليها من الرقي مرتبة الالوهية .

●

تلك حقائق لم تفت ثلاثة من أعـــلام الشرق العربي أهابوا بنـــا إلى ترجمة زرادشت ونشره في هذه البلاد لتسديد عزم الشبيبة في هذه المرحلة التي يتوقف على نهضتنا فيها مستقبلنا واستعادة أمجاد تاريخنا . اولئك الثلاثة هم المغفور له السيد مصطفى صادق الرافعي فقيد الشرق والعروبة والاسلام والاستاذ حافظ عامر بك قنصل مصر العـــام في الاستانة مؤلف رسالة الحج التي كان لها دوي في أوساط المفكرين والاستاذ احمـــد حسن الزيات القابض على آداب الغرب باطلاعه وتفكيره والرافع علم الآداب الشرقية بقلمه، وقد تفضل الاستاذ المشار اليه فنشر في مجلته الرسالة أكثر من ربع الكتاب في مدى سنة ولولا تقديرنا ان الزمان سيطول على نشره برمته لما كنا بادرنا إلى طبعه كاملاً مستقلاً .

إن ما دعانا وأصحابنا المشار اليهم إلى تقرير ترجمة زرادشت هو اننا نظرنا إلى فلسفته من الوجهة اللامسة للمبادىء الدينية الاجتماعية التي تتجه إلى احياء حضارتنا القديمة على أساسها ، وقد رأينا ان هذا المؤلف الفريد من نوعه ليس من الكتب التي تنقل إلى بياننا لما لها من قيمة فلسفية وأدبية فحسب بل هو من الكتب التي يجدر بالناشئة العربية درسها كما يدرسها طلاب الجامعات في كل قطر أوروبي ، فان كتاب زرادشت قد أثر التأثير الاكبر على تطور الحركة الفكرية في أواخر القرن التاسع عشر في عالم الغرب واشتمل من المبادىء على ما كان ولا يزال محور الخلاف المستحكم بين ذهنيته وذهنية الشرق العربي بوجه خاص . ولقد مضى على ظهور هذا الكتاب زهاء نصف قرن ولم يكن العـــالم العربي في ذلك العهد على اتصال وثيق بالحركة الفكرية الغربية فلم يُسمع في هذه البلاد بنيتشه وفلسفته إلا بمقالات موجزة وكل ما عرف عنه هو انه يدعو إلى التحرر من ربقة الأوهام واطراح الزهد واليأس والاتجاه إلى ايجاد الانسان المتفوق.

ولعل المفكرين يسلمون معنا بأن خلو المكتبة العربية من هذا المؤلف الفريد الذي ترجم الى جميع اللغات الحية فاتخذ انموذجاً بين ابنائها للصراحة والاخلاص في طلب الحقيقة يعد نقصاً في هذه المكتبة ويسجل قصوراً علينا، لذلك اقتحمنا اعارة بياننا لكتاب زرادشت الذي قالت فيه الموسوعة الكبرى انه لايعد أروع ما كتب نيتشه فحسب بل أروع ما كُتب في اللغة الالمانية على الاطلاق .

●

ولا بد في ختام تمهيدنا من إلفات المفكرين إلى فصل من كتاب زرادشت عنوانه « بين غادتين في الصحراء » وفيه نشيد لخيال زارا « صفحة ٢٥٤ » فاننا وقفنا عنده ملياً لأنه من نوع البيان المستغرق في الرمزية فلا يفهمه القارىء إلا بحسه الكامن وقد لا يتفق اثنان على تأويله تأويلاً واضحاً جلياً .

ولو أننا ترجمناه بالحرف لجاء كأحد الرسوم التي ابتدعها انصار التكعيب يقف المشاهد أمامها فلا يدري أجبلاً يرى أم شجرة أم انساناً .

لذلك اضطررنا إلى ملء بعض الفراغ بين الخطوط والى الالتجاء لكسر النتوءات عند نقل بعض المكعبات المبهمة الصارمة فجاء هذا النشيد أقرب إلى البيان المألوف دون أن يخرج عن أصله الرمزي الذي يحتاج إلى كثير من الاستغراق في تفهم معانيه .

وحاذرنا أن نكون تجاوزنا حد الخطوط الأصلية في النقل فرجعنا إلى عالم معروف عن علماء الغرب ممن أحاطوا بفلسفة نيتشه وذهبوا إلى حد بعيد في تحليلها وهو حضرة الدكتور روبرت رينتجر الاستاذ في جامعة فينا نعرض علينا ما رأيناه في رموز نشيد الصحراء ونسأله اقرارنا على ما اصبنا فيه وتصحيح ما قد نكون ضللنا في تبيانه ، فوردنا جوابه مؤرخاً في ١٩ ابريل من هذه السنة وفيه يقول :

« انني أرى خلاصة معنى النشيد في فقرته الاولى المكرَّرة في آخره وهي :

« ان الصحراء تتسع وتمتد فويلٌ لمن يطمح إلى الاستيلاء على الصحراء » فان نيتشه قد رمز بالصحراء إلى الوجود القاحل الذي لا غاية له وقد أتيت على بحث هذا الرمز في كتابي « جهاد نيتشه من أجل معنى الحياة وغايتها » .

أما سائر ما في النشيد فأراه يرمي إلى وصف اجواء الصحراء المتمتعة بالحرية وهي بابتعادها عن المعمور تولي ابناءها الحياة الساذجة الطاهرة على نقيض ما تورثه ثقافة أوروبا الشمالية من الخشونة والكثافة .

أما كلمة « صلاة » فقد اصبتم في ترجمتكم إياها « حيّ على الصلاة » .

هذا وقد يكون النبي محمد هو المرموز اليه بأسد الصحراء ونذيرها حسب تأويلكم »

●

لقد سرّنا وأيم الله ان يوافقنا هذا العالم على تأويلنا وان يكن ذهب في تفسير اتساع الصحراء وامتدادها إلى غير ما ذهبنا اليه فقد كنا صارحناه بأن ما فهمناه من اتساع الصحراء وامتدادها وتهديد من يطمح للاستيلاء عليها انما هو انبعاث الايمان الحق بالفضائل العليا وتمردها على الجحود والتضعضع في الحياة .

وقد كان دليلنا على صحة مذهبنا ما ورد في النشيد من صراحة تؤيدنا خاصة في الفقرة الاخيرة وهي :

« ارتفع يا مظهر الجلال ولتهب مرة اخرى نسمة الفضيلة .

ويا ليت أسد الفضائل يزأر أيضاً أمام غادات الصحراء فانه اقوى ما ينبه اوروبا ويحفز بها إلى النهوض .

وهاأنذا ابن أوروبا لا يسعني إلا الخشوع لدوي هذه الآيات البينات » .

●

للعالم الاوروبي تأويله ولنا تأويلنا وللصحراء في بلاد العرب رموزها ، فلندع للأزمان تأويلها ولنكرر ما جاء في نشيد الجاحد الطامح إلى الخلود :

« ان الصحراء تتسع وتمتد فويلٌ لمن يطمح إلى الاستيلاء على الصحراء » .

●

ان عبير الشرق لا يضوع من نشيد الصحراء فحسب ، بل هو يفوح من كل حكمة ينطق بها زرادشت أمام مشاهد التضعضع الاوروبي، ولسوف يقف رجال العلم من ابنــاء الضاد عنــد كثير من أقواله فيعرفون فيها آية من الآيات التي أوحيت لأنبيائهم أو ألهمت لحكمائهم أو حديثاً لذلك الأمي الأعظم الذي تناول أدق القضايا الاجتماعية فردّها إلى مكارم الاخلاق ليحلها جميعاً .

إننا ونحن نخط هذه الاسطر نتذكر صديقنــا فقيد الشرق المغفور له السيد مصطفى صادق الرافعي الذي قلَّ من جاراه في تفهم دين الله والشعور بالقومية العربية ووحدة الانسانية . اننا لنذكره ونحس بمـا كان يمكننا أن نستمده من ثقافته العريقة ومعارفه الواسعة من آيات وأحاديث وحكم يتجلى فيها ما أجمع مفكرو الغرب على الخشوع أمامه من نظرات زرادشت الصائبات في اتجاهات العالم المتمدن وفي طلب رقي الانسان والاهــابة به إلى العمل في الأرض كأنه خالد عليها لا يموت .

غير اننا إذا كنا حرمنا الآن من هذه النجدة في كتابة تمهيدنا هذا فلن تحرم البلاد اعلاماً يقومون بهذا الواجب نحـو مهبط وحي الله ومنبت العباقرة من السلف والمعاصرين .

فليكس فارس

— لقد اخترنا ايراد اسم زارا بدلاً من زرادشت تخفيفاً . واتينا في سياق الترجمة بردود علقناها على الهـامش حيث رأينا لزوماً لذلك

هكذا تكلم زرادشت

الجزء الاول

كتاب للمجتمع لا للفرد

مستهل زرادشت

١

لما بلغ زارا الثلاثين من عمره ، هجر وطنه وبحيرته وسار الى الجبل حيث أقام عشر سنوات يتمتع بعزلته وتفكيره إلى أن تبدلت سريرته ، فنهض يوماً من رقاده مع انبثاق الفجر وانتصب أمام الشمس يناجيها قائلاً :

— لو لم يكن لشعاعك من ينير ، أكان لك غبطة ، أيها الكوكب العظيم ؟ منذ عشر سنوات ما برحت تشرق على كهفي ، فلولاي ولولا نسري وافعواني ، لكنت مللت أنوارك وسئمت ذرع هذا السبيل، ولكننا كنا نترقب بزوغك كل صباح لنتمتع بفيضك ونرسل بركتنا اليك . اصغ إلي ، لقد كرهت نفسي حكمتي كالنحلة أتخمها ما جمعت ، فمن لي بالاكف تنبسط أمامي لأهب وأغدق إلى أن يغتبط الحكماء من الناس بجنونهم ويسعد الفقراء منهم بثروتهم .

تلك هي الأمنية التي تهيب بي للجنوح إلى الأعماق ، كما تجنح أنت كل مساء منحدراً وراء البحار حاملاً اشعاعك إلى الشقة السفلى من العالم ، أيها الكوكب الطافح بالكنوز .

لقد وجب عليّ أن اتوارى اسوة بك ، وجب علي أن أرقد على حد تعبير الأناسي الذين أهفو اليهم .

باركني ، اذن ، أيها الكوكب ، فأنت المقلة المطمئنة التي يسعها أن تشهد ما لا يحد من السعادة دون أن تختلج كمقلة الحاسدين .

بارك الكأس الدهاق تسكب سلسبيلاً مذهباً ينثر على الآفاق وهجاً من مسراتك .

انظر ! ان هذه الكأس تريد أن تندفق ثانية ، وزاراً يريد أن يعود انساناً وهكذا بدأ جنوح زارا إلى المغيب .

٢

وانحدر زارا من الجبال فما لقي أحداً حتى بلغ الغاب حيث انتصب أمامه شيخ خرج من كوخه بغتة ليفتش عن بعض الجذور والأعشاب ، فقال الشيخ :

– ليس هذا الرحالة غريباً عن ذاكرتي ، لقد اجتاز هذا المكان منذ عشر سنوات ، ولكنه اليوم غيره بالامس .

لقد كنت تحمل رمادك في ذلك الحين إلى الجبل ، يا زارا ، فهل أنت تحمل الآن نارك إلى الوادي ؟ أفما تحاذر يا هذا أن ينزل بك عقاب من يضرم النار ؟

لقد عرفت زارا ، هذه عينه الصافية ، وليس على شفتيه للاشمئزاز أثر ، أفما تراه يتقدم بخطوات الراقصين ؟

لقد تبدلت هيئة زارا ، إذ رجع بنفسه إلى طفولته. لقد استيقظت يا زارا فماذا أنت فاعل قرب النائمين ؟

كنت تعيش في العزلة كمن يعوم في بحر والبحر يحمل أثقاله، وأراك الآن تتجه إلى اليابسة ، أفتريد الاستغناء عمن حملك لتسحب هامتك على الأرض بنفسك ؟

فأجاب زارا : انني احب الناس .

فقال الشيخ الحكيم: انني ما طلبت العزلة واتجهت إلى الغاب إلا لاستغراقي في حبهم ، أما الآن فقد حولت حبي الى الله ، وما الانسان في نظري إلا كائن ناقص ، فاذا ما أحببته قتلني حبه .

فأجاب زارا : ومن يصف لك الحب الآن ! انني لا أقصد الناس إلا لأتفحهم بالهدايا .

فقال الحكيم القديس : إياك أن تعطيهم شيئاً ، والأجدر بك أن تأخذ منهم ما تساعدهم على حمله ، ذلك أجدى لهم ، على أن تغنم سهمك من هذا الخير ، وإذا كان لا بد لك من العطاء فلا تمنح الناس إلا صدقة على أن يتقدموا اليك مستجدين أولاً .

فأجاب زارا ، أنا لا أتصدق ، إذا لم أبلغ من الفقر ما يجيز لي أن أكون من المتصدقين .

فضحك القديس مستهزئاً وقال: حاول جهدك اذن اقناعهم بقبول كنوزك، انهم يحاذرون المنعزلين عن العالم ، ولا يصدقون اننـا نأتيهم بالهبات . ان لخطوات الناسك في الشارع وقعاً مستغرباً في آذان الناس . انهم ليجفـلوا على مراقدهم إذ يسمعونها فيتساءلون : إلى أين يزحف هذا اللص ؟

لاتقترب من هؤلاء الناس. لاتبارح مقامك في الغاب، فالأجدر بك أن تعود إلى مراتع الحيوان، أفلا يرضيك أن تكون مثلي دباً بين الدببة وطيراً بين الاطيار ؟

فسأل زارا : وما هو عمل القديس في هذا الغاب ؟

فأجاب القديس : انني انظم الأناشيد لأترنم بهـا ، فأراني حمدت الله إذ أمرر نجواي فيها بين الضحك والبكاء، لأنني بالانشاد والبكاء والضحك والمناجاة اسبح الله ربي ، ومع هذا ، فما هي الهدية التي تحملها الينا ؟

فانحنى زارا مسلماً وقال للقديس : أي شيء اعطيك ؟ دعني أذهب عنك سريعاً كيلا آخذ منك شيئاً .

وهكذا افترقا وهما يضحكان كأنهما طفلان .

وعندما انفرد زارا قال في نفسه :

ـ انه لأمر جد مستغرب، ألا يسمع هذا الشيخ في غابة ان الاله قد مات؟[1]

٣

وإذا وصل زارا إلى المدينة المجاورة ، وهي أقرب المدن إلى الغاب ، رأى

---

(١) هذه الخطوة الاولى . وسنرى أي إله يقول نيتشه بموته وأي إله يتجه هذا الفيلسوف الى اكتشافه في سريرة الانسان .

الساحة المكتظة بخلق كثير أعلنوا من قبل أن بهلواناً سيقوم هناك بالألعاب ، فوقف زارا في الحشد يخطبه قائلاً :

اني آت اليكم بنبأ الانسان المتفوق ، فما الانسان العادي إلا كائن يجب أن نفوقه ، فماذا أعددتم للتفوق عليه ؟

ان كلاً من الكائنات أوجد من نفسه شيئاً يفوقه ، وأنتم تريدون أن تكونوا جزراً يصد الموجة الكبرى في مدها، بل انكم تؤثرون التقهقر إلى حالة الحيوان بدل اندفاعكم للتفوق على الانسان . وهل القرد من الانسان إلا سخريته وعاره؟ لقد اتجهتم على طريق مبدؤها الدودة ومنتهاها الانسان ، غير انكم أبقيتم على جل ما تتصف به ديدان الأرض . لقد كنتم من جنس القرود فيما مضى ، على ان لانسان لم يفتأ حتى اليوم أعرق من القرود في قرديته .

ليس أوفركم حكمة إلا كائن مشوّش لا يمتّ بنسبه إلى أصل صريح ، فهو مزيج من النبات والأشباح ، وما أدعو الانسان ليتحول إلى شبح أو إلى نبات .

لقد أتيتكم بنبأ الانسان المتفوق .

انه من الأرض كالمعنى من المبنى ، فلتتجه ارادتكم إلى جعل الانسان المتفوق معنى لهذه الأرض وروحاً لها .

أتوسل اليكم أيها الاخـــوة أن تحتفظوا للأرض باخلاصكم فلا تصدقوا من يمنونكم بآمـال تتعالى فوقها ، انهم يعللونكم بالمحـال فيدسون لكم السم ، سواء أجهلوا أم عرفوا مـــا يعملون ، اولئك هم المزدرون للحياة ، لقد رعى السم أحشاءهم فهم يحتضرون ، لقد تعبت الأرض منهم فليقلعوا عنها .

لقد كانت الروح تنظر فيما مضى إلى الجسد نظرة الاحتقار فلم يكن حينذاك من مجد يطاول عظمة هـــذا الاحتقار . لقد كانت الروح تتمنى الجسد ناحلاً قبيحاً جائعاً متوهمة أنها تتمكن بذلك من الانعتاق منه ومن الأرض التي يدب عليها . ومـا كانت تلك الروح إلا على مثال ما تشتهي لجسدها ناحـلة قبيحة جائعة ، تتوهم ان اقصى لذاتها انما يكمن في قسوتها وارغامها .

أفليست روحكم ، أيها الاخوة ، مثل هذه الروح ؟ أفما تعلن لكم أجسادكم عنها انها مسكنة وقذارة وانها غرور يسترعي الاشفاق ؟

والحق مـا الانسان إلا غدير دنس ، وليس إلا لمن أصبح محيطاً أن يقتبل انصباب مثل هذا الغدير في عبابه دون أن يتدنس .

تعلموا من هو الانسان المتفوق .

إن هو إلا ذلك المحيط تُغرقون احتقاركم في اغواره .

وهل تتوقعون بلوغ معجزة أعظم من هذه المعجزة ؟

لقد آن للاحتقار أن يبلغ أشده فيكم ، بعد ان استحال شرفكم ذاته كما استحالت عقولكم وفضائلكم إلى كره واشمئزاز .

لقد آن لكم أن تقولوا : مـــا يهمني شرفي ، وما هو إلا مسكنة وقذارة وغرور ، في حين ان على الشرف أن يبرر الحياة نفسها .

لقد آن لكم أن تقولوا : مـا تهمني القوى العاقلة فيّ ، إذا لم تطلب الحكمة بجوع الأسد وما هي الآن إلا مسكنة وقذارة وغرور .

لقد آن لكم أن تقولوا : ما يهمني عدلي ، ان العادل يقدح شرراً ولما يشتعل.

لقد آن لكم أن تقولوا : مـا تهمني رحمتي ، أفليست الرحمـة صليباً يسمَّر عليه من يحب البشر ؟ ورحمتي لما ترفعني على الصليب .

أقلتم مثل هذا وناديتم به ؟ ليتني سمعتكم تهتفون بمثله !

ان ما يرفع عقيرته على السماء ان هو إلا غروركم لا خطاياكم ، ان هو إلا حرصكم حتى على خطاياكم .

أين هــــو اللهب الذي يمتد اليكم ليطهركم ؟ أين هو الجنون الذي يجب أن يستولي عليكم .

هأنذا انبئكم عن الانسان المتفوق .

إن هو إلا ذلك اللهب وذلك الجنون .

وما فرغ زارا من كلامه حتى ارتفع صوت من الحشد قائلاً :

(لقد كفانا ما سمعنا عن البهلوان ، فليبرز لنا الآن لنراه) .

فضحك الجميع مستهزئين بزارا ، وتقدم البهلوان ليقوم بألعابه وهو يعتقد انه كان موضوع الحديث .

٤

وبهت زارا مجيلاً أنظاره في القوم ثم قال :

ما الانسان إلا حبل منصوب بين الحيوان والانسان المتفوق ، فهو الحبل المشدود فوق الهاوية .

إن في العبور للجهة المقابلة مخاطرة ، وفي البقاء وسط الطريق خطراً ، وفي الالتفات إلى الوراء ، وفي كل تردد وفي كل توقف خطراً في خطر .

إن عظمة الانسان قائمة على انه معبر وليس هدفاً ، وما يستحب فيه هو انه سبيل وأفق غروب .

اني أحب من لا غاية لهم في الحياة إلا الزوال، فهم يمرون إلى ما وراء الحياة أحب من عظم احتقارهم لأنهم عظماء، أحب المتعبدين يدفعهم الشوق إلى المروق كالسهم إلى الضفة الثانية .

أحب من لا يتطلبون وراء الكوكب معرفة ما يدعو إلى زوالهم أو ما يهب بهم إلى التضحية ، لأنهم يقدمون ذاتهم قرباناً للأرض، لتصبح هذه الأرض يوماً ميراثاً للانسان المتفوق .

أحب من يعيش ليتعلم ، ومن يتوق إلى المعرفة ليحيا الرجل المتفوق بعده ، فان هذا ما يقصد طالب المعرفة من زواله .

أحب من يعمل ويخترع ليبني مسكناً للانسان المتفوق فيهيء ما في الأرض من حيوان ونبات لاستقباله ، فان هذا ما يقصد طالب المعرفة من زواله .

أحب من يحب فضيلته ، فما الفضيلة إلا الطموح الى الزوال وان هي إلا السهم تنشبه أشواقه .

أحب من لا يحتفظ لنفسه بشرارة واحـــدة من روحه ، فيتجه إلى أن يكون بكليته روحاً لفضيلته لأنه بهذا يجعل روحه تجتاز الصراط .

أحب من يكوّن من فضيلته ميوله ومطمحه ، لأنه بمثـــل هذه الفضيلة يتوق إلى اطالة حياته كما يتوق إلى قصرها .

أحب من لا يريد الاتصاف بعديد الفضائـل ، إذ في الفضيلة الواحدة من الفضائل أكثر مما في فضيلتين ، والفضيلة الواحدة حلقة ترتبط فيها الحياة .

أحب من يجود بروحه فـلا يطلب جزاء ولا شكوراً ، ولا يسترد ، فهو يهب دائماً ولا يفكر في الاستبقاء على ذاته .

أحب من يخجل من سقوط زهر النرد لحظة فيرتاب بغش يده ، ان أمثاله هم التائقون إلى الزوال .

أحب من يبذل الوعود وهـــاجة ثم يتجاوز عمله وعده ، ان امثاله هم التائقون الى الزوال .

أحب من يبرر أعمال الخلف ويدافع عن السلف لأنه بذلك يسلم نفسه الى نقمة معاصريه ، فهو ممن يتوقون الى الزوال .

أحب من يعلن حبه لربه بتوجيه اللوم اليه ، إذ يجب أن يهلك بغضب ربه .

أحب من يبلغ التأثر أعماق روحه في جراحها فيعرضه أتفه حدث للفناء ، ان أمثاله يعبرون الصراط دون أن يترددوا .

أحب من تفيض نفسه حتى يسهو عن ذاته ، إذ تحتله جميع الأشياء فيضمحل فيها ويفنى بها .

أحب من تحرر قلبه وتحرر عقله حتى يصبح دماغه بمثابة أحشاء لقلبه غير ان قلبه يدفع به إلى الزوال .

أحب جميع من يشبهون القطرات الثقيلة التي تتساقط متتالية من الغيوم السوداء المنتشرة فوق الناس ، فهي التي تتنبىء بالبرق وتتوارى .

ما أنا إلا منبىء بالصاعقة ، أنا القطرة الساقطة من الفضاء ، وما الصاعقة التي ابشر بها إلا الانسان المتفوق .

٥

وبعد أن القى زارا هذه الكلمات أجال أنظاره في الحشد وسكت ثم قال في قلبه : لقد تملكهم الضحك ، فهم لا يفهمون ما أقول وما أنا بالصوت الذي يلائم هذه الاسماع .

أعليّ أن أسد آذانهم ليتمرنوا على الاصغاء بعيونهم؟ أم يجب أن اضرب الصنج أسوة بوعاظ الصيام ؟ لعل هؤلاء القوم لا يثقون إلا بالألكن من المتكلمين .

ان لهؤلاء الناس ما يباهون به فما عساه أن يكون ؟

انهم يسمونه مدنية ليميزوا بها أنفسهم على الرعاة . فهم لذلك ينفرون من لفظة الاحتقار إذا ما ذكرت في معرض الكلام عنهم ، فلسوف اخاطبهم إذن عن غرورهم .

سأخاطبهم عن أحقر الكائنات، عن الانسان الأخير . وتوجه إلى الحشد قائلاً :

لقد آن للانسان أن يضع هدفاً نصب عينيه ، لقد آن له أن يزرع ما ينبت أسمى رغباته ما دام للأرض بقية من ذخرهـا ، إذ سيأتي يوم ينفد هذا الذخر منها فتجدب ويمتنع على أية دوحة أن تنمو فوقها .

ويل لنا . لقــد اقتربت الأزمنة التي لن يفوّق الانسان فيها سهام شوقه محلقة فوق البشرية إذ تخونه قوسه وتتراخى أوتارها .

الحق ما أقوله : لن يخرج من الانسان كوكب وهاج للعالم حين تزول بقية السديم من نفسه ، وهذا السديم لم يزل فيكم .

ويل لنا ! لقد اقتربت الأزمنة التي لن يدفع الإنسان فيها بالكواكب للعالم. ويل لنا ! لقد اقترب زمان الإنسان الحقير الذي يمتنع عليه أن يحتقر نفسه .

اسمعوا ! هأنذا منبئكم عن الرجل الاخير .

انه من يقف متسائلاً عن نفسه فلا يعلم أمحبة هي أم ابداع أم تشوق ، أم توهج كوكب .

وستصغر الأرض في ذلك الزمان فيطفو على سطحها الرجـل الأخير الذي يحول إلى حضارة كل ما يدور بـه ، ان سلالة هذا الرجل لا تباد ، فهي أشبه بالبراغيث ، والانسان الأخير أطول البشر عمراً .

ويقول اناسيّ الزمن الأخير متغامزين : لقد اخترعنا السعادة اختراعاً .

لقد هجر هؤلاء البقاع التي تقسو عليها الحياة ، لأنهم شعروا بحاجتهم إلى الحرارة فأصبح كل واحد يحتك بجاره وقد احتاجوا إلى الدفء جميعاً .

انهم يقتحمون الحياة باحتراس لأن الوجل والمرض في عينهم خطأ ، ومـا سلم من الجنون من يتعثر منهم بالحجارة وبالناس .

انهم يأخذون قليلاً من السموم حيث يجدونها طلباً لملاذ الاحلام ويكرعون منها ما يكفي دفعة واحدة طلباً للذة الموت .

وإذا هم عملوا فانمـا يعملون للتسلية محاذرين أن تذهب هذه التسلية بهم إلى حدود الانهاك .

ليس بينهم من يصبح غنياً أو يمسي فقيراً ، وكلا الفقر والغنى يجلب الضنى ، وما منهم من يطمح إلى الحكم أو يرضى بالخضوع وكلاهما محرج مرهق .

ليس هنالك راع وليس هنالك إلا قطيع واحد . ان كلاً من الناس يتجه

إلى رغبة واحدة ، فالمساواة سائدة بـــين الجميع . ومن اختلف شعوره عن شعور المجموع يسير بنفسه مختاراً إلى مأوى المجانين .

ويغمز أمكر هؤلاء الناس بعينهم ويقولون : لقد كان الجميع مجانين فيا مضى .

لقد ساد الاحتراس بـين هؤلاء القوم لأنهم أخذوا بالعبر ، فهم يتلقون الحـــادثات متهكين ، وإذا نشأ بينهم خلاف بادروا إلى حسمه صلحاً ، لأنهم يحاذرون أن تصاب معدهم بالعلل والأدواء .

لهؤلاء الناس لذات للنهار ولذات اخرى لليل،غير انهم يراعون صحتهم أولاً .

« لقد اخترعنا السعادة اختراعاً » ذلك مـا يقوله اناسي الزمن الأخير وهم يغمزون .

عند هذا أنهى زارا خطابه أو بالحري تمهيد خطابه فتعالت أصوات التهليل من الحشد وهو يقول :

« الينا بهذا الرجل الأخير يا زارا ، اجعلنا على مثال اناسي الزمن الأخير فقد تخلينا لك عن الانسان المتفوق » .

ولكن زارا وجم أمام هذا الحشد يسوده مثل هذا الروح فاستولى الحزن عليه وقال في نفسه :

انهم لا يفهمون كلامي ، فلست بالصوت الذي تتطلبه هذه الاسماع .

لقد عشت طويلاً في هذه الجبال وانصت طويلاً إلى هدير الغدران وحفيف الاشجار فأنا أكلم هؤلاء الناس الآن كأنني اخاطب رعاة الماعز .

ان روحي صافية تغمرهـا الأنوار كما تغمر القمم تباشير الصباح ، ولكنهم يحسون بالصقيع في قلبي ويحسبونني مهرجاً يأتيهم بالمفجع من النكات .

انهم يحدجونني بأنظـــارهم ويتضاحكون ، ففي قلبهم ثورة البغضاء وعلى شفاههم بسمة الثلوج .

٦

وطرأ حادث كمّ الافواه واسترعى الابصار ، وكان البهلوان بـدأ بألعابه فاندفع من النافذة وأخذ يتمشى على الحبل الممدود بين برجين فوق الساحة وما عليها من المتفرجين ، وما وصل إلى وسط الحبل حتى فتحت النافذة مرة ثانية واندفع منها فتى مخطط بالألوان كالمهرجين وسار متبعاً خطوات البهلوان صارخاً.

إلى الامام أيها الأعرج ! إلى الأمام أيها الكسلان ، أيهـا المرائي ذو الوجه الشاحب ! اذهب لئلا تداعبك نعلي ، ما هو عملك بين هذين البرجين ؟ أفليس في البرج مكان سجنك ؟ انك تسد الطريق في وجه من هو أفضل منك .

وكان الفتى يتقدم خطوة كلما قال كلمة حتى أصبح على قاب قوسين من البهلوان ، وعندئذ وقع الحادث الذي كم الافـواه واسترعى الابصار . فان الفتى لم يلبث أن صرخ صرخة الجن وقفز فوق العقبة القـائمة في سبيله . ولما رأى البهلوان انتصار خصمه عليه أخذه الدوار وخلت رجله عن الحبل فرمى عارضة التوازن من يديه وسقط في الفضاء حيث لاحت رجلاه ويداه كعجلة تدور في الهواء .

وماج الحشد على الساحة كالبحر اجتاحته العاصفة الهوجاء وانفرط الناس مولين الادبار وانفرج المكان حيث كان يتجه الجسم بانحداره .

ولكن زارا لم يتحرك فوقع الجسم على مقربـة منه حيث تقطعت أوصاله وتهشم غير انه كان لم يزل حياً ، وما عتم ان عاد روع الجريح اليه فرأى زارا جاثياً قربه فرفع رأسه وقال له :

ماذا تفعل هنا ؟ مـا كنت أجهل ان الشيطان سيضل خطواتي يوماً وها هوذا الآن يجرني الى جحيمه ، افتريد أن تمنعه ؟

فقال زارا :

وشرفي يا صديقي ان ما تذكره لا وجود له ، فليس من شيطان وليس من

جحيم ، ان روحك ستموت بأسرع من جسدك فلا تخشَ بعد الآن شيئاً .

فرفع الرجل بصره مشككاً وقال :

إذا كان ما تقوله صحيحاً فانني لا أفقد شيئاً بفقد الحياة . فلست أنا اذن إلا حيواناً وقد رقصت بالضرب وغذيت بأفخر غذاء .

فقال زارا: لا، ليس الأمر كما تقول فانك اتخذت المخاطرة مهنة لك ولم يكن فيها ما يشين . أما الآن فمهنتك هي أن تفنى ، من أجل هذا سأدفنك بيدي .

ولم يحر المدنف جواباً بل حرك يده باحثاً عن يد زارا ليصافحها دلالة على شكره .

٧

وأمسى المساء مرخياً سدوله على الساحة فتفرق عنها المتفرجون وقد أرهقهم الفضول والرعب،وبقي زارا جالساً على الأرض قرب الميت فاستغرق في تفكيره ناسياً مرور الزمان حتى هبت نفحات الليل عليه منفرداً ، فناجى نفسه قائلاً :

لقد كان صيدك موفقاً اليوم يا زارا ! لقد أفلت الناس منك فاصطدت جثة جامدة .

إن حياة الانسان محفوفة بالاخطار ، وهي فوق ذلك لا معنى لها ... فان مهرجاً يمكنه أن يقضي عليها .

أريد أن أعلم الناس معنى وجودهم ليدركوا ان الانسان المتفوق انما هو البرق الساطع من الغيوم السوداء : من الانسان .

ولكنني لم أزل بعيداً عن هؤلاء الناس وفكرتي بعيدة عن مداركهم ، فأنا لم أزل متوسطاً المدى بين مجنون وجثة هامدة .

إن الليل مظلم ومسالك زارا مظلمة أيضاً . تعال أيها الرفيق المتيبس في صقيعه ! انني ذاهب بك إلى حيث أواريك التراب بيدي .

٨

ورفع زارا الجثة على كاهله ومشى ، ولكنه ما قطع مائة خطوة حتى زحمه رجل ، وما كان هذا الرجل إلا مهرج البرج ، فأسرّ اليه :

– اذهب من هذه المدينة يا زارا فان مبغضيك فيها كثيرون . هنا يكرهك أهل الصلاح والعدل ، فيصفونك بالعدو والمزدري ، ويكرهك المؤمنون بالدين الحق فيرون فيك خطراً على عامة الناس، وقد كان من حظك ان هزأ الحشد بك لأنك كنت تتكلم كالمهرجين، وكان من حظك أيضاً ان اشتركت والكلب الميت، فقد كان خلاصك هذه المرة في اسفافك إلى هـذه المهاوي . ولكن لن تسلم في الثانية فاذهب من هذه المدينة وإلا فانني قافز غداً فوق جثة اخرى .

قال الرجل وتوارى وتابع زارا سيره في الشوارع المظلمة . ولما بلغ باب المدينة التقى حفاري القبور فوجهوا إلى رأسه أشعة مصابيحهم ؛ وإذ عرفوا فيه زارا أشبعوه سخرية وهزءاً وقالوا :

مرحى يا زارا ! لقد صرت الآن حفاراً للقبور ، انك تحمل الكلب الميت . لقد أحسنت ، فان أيدينا أطهر من أن تدنس بجثته . أتريد يا زارا أن تختلس من الشيطان طعامه ؟ كل هنيئاً ! ولكن الشيطان أمهر منك ، ولعله يسرقكما كليكما فيلتهمكما التهاماً .

ودار حفارو القبور بزارا يتفرسون فيه . أما هو فلازم الصمت وسار في طريقه . وبعـد ان مشى ساعتين يقطع الاحراج والمستنقعات ، شعر بالجوع لكثرة ما عوت حوله الذئاب الجائعة . فوقف أمام بيت منفرد لاحت له الانوار من نوافذه ، وقال : لقد عضني الجوع وداهمني كاللص بين الاحراج في الليل البهيم .

إن لجوعي نزوات مستغربة وقد يداهمني حتى بعد الطعام ، ولكنه اليوم ندّ عني منذ الصباح حتى المساء فأين كان هذا الجوع ؟

وطرق زارا باب البيت فظهر له منه شيخ يحمل مشعلاً ، وقال له : من الآتي إلي وإلى رقادي المضطرب ؟

فأجاب زارا : أتيناك اثنين حي وميت ، اعطني مأكلا ومشرباً فقد نسيت الغذاء النهار بطوله ، ان من يشبع الجياع يولي نفسه قوة ، هكذا قالت الحكمة فغاب الشيخ وعاد بخبز وخمر وقال :

ــ انها لأماكن موحشة للجياع ، وذلك ما دعاني إلى السكن هنا حيث يهرع إلي البشر والحيوان في وحدتي . أفلا تدعو رفيقك ليأكل ويشرب معك فهو أشد تعباً منك ؟

فقال زارا : ان رفيقي ميت ولا يسهل علي اقناعه بتناول الطعام .

فتمتم الشيخ : ذلك لا يهمني ، ان من يطرق بابي عليه أن يأخذ ما اقدمه له . كلا هنيئاً .

وعاد زارا الى السير فمشى ساعتين وهو يهتدي الى رسوم الطريق بنور النجوم ، وقد كان معتاداً السرى ويحب أن يتفرس في كل ما يروق له . وعندما لاح الصباح كان زارا وصل الى غابة كثيفة حيث انقطع كل طريق أمامه ، فتوقف ووضع الجثة في فراغ شجرة حواها حتى رأسها ليقيها هجمات الذئاب ، ورقد بعد ذلك متوسداً نبات الأرض وما عتم حتى استغرق في نومه منهوك الجسم مرتاح الضمير .

٩

وطال نوم زارا حتى غمرت وجهه أنوار الضحى بعد ان داعبته تباشير الفجر ففتح عينيه مبهوتاً وسرح ابصاره على الغاب ثم حوّلها يستكشف نفسه ساكناً مستغرباً .

وهب من مجلسه فجأة كما يهب الملاح تبدو لعينه الأرض فهتف وقد هزه المرح لأنه اكتشف حقيقة جديدة فخاطب قلبه قائلا :

لقد انفتحت عيناي انني بحاجة الى رفاق احياء لا الى رفاق اموات وجثث أحملهم الى حيث أريد .

انني اطلب رفاقاً أحياء يتبعونني لأنهم يريدون أن يتبعوا أنفسهم أين توجهت لقد انفتحت عيناي ، ليس على زارا أن يخاطب جماعات بل عليه أن يخاطب رفاقاً ، يجب ألا يكون زارا راعياً للقطيع وكلباً له .

انني ما جئت الا لاخلص خرافاً عديدة من القطيع ، وسوف يتمرد الشعب والقطيع علي . أن زارا يريد أن يعامله الرعاة معاملتهم للصوص .

قلت : رعاة غير أنهم يدعون بالصالحين والعادلين . قلت : رعاة غير انهم يدعون بالمؤمنين بالدين الحق .

انظروا الى أهل الصلاح والعدل لتعلموا من هو الد" أعدائهم ، انه من يحطم الالواح التي حفروا عليها سننهم ، ذلك هو الهدام ، ذلك هو المجرم ، غير انه هو المبدع .

انظروا إلى المؤمنين بجميع المعتقدات تعلموا من هو الد أعدائهم انه من يحطم الألواح التي حفروا عليها سننهم ، ذلك هو الهدام ، ذلك هو المجرم ، غير انه هو المبدع .

إلي بالرفاق . انني اطلبهم مبدعين ولا أطلبهم جثثاً وقطعاناً ومؤمنين .

ان المبدع لا يتخذ له رفاقاً إلا من كانوا مثله مبدعين ، انه يتخذهم ممن يحفرون سنناً جديدة على ألواح جديدة .

ان من يطلب المبدع انما هم الحصاد يعاونونه في الحصاد لأن كل شيء قد أصبح في عينه ناضجاً للحصاد ، ولكن المائة منجل ليست بين يديه فهو يتميز غضباً ويقتلع السنابل من اصولها .

ان المبدع يطلب رفاقاً له بين من يعرفون أن يشحذوا مناجلهم ، وسوف يدعوهم الناس هدامين ومستهزئين بالخير والشر ، غير انهم يكونون هم الحاصدين والمحتفلين بالعيد .

إن زارا يطلب من هم مثله مبدعون يشاركونه في الحصاد وفي الراحة فلا حاجة له بالقطعان والرعاة وأشلاء الأموات .

وأنت يا رفيقي الأول ، ارقـــد بسلام ، لقد احسنت دفنـك في فراغ الشجرة ووقيتك افتراس الذئاب .

غير اني سأفترق عنك لأن الزمان قـــد مر سريعاً ، وقد انبثقت حقيقة جديدة في أفق نفسي ما بين فجرين .

لن أكون راعياً ، ولكن أكون حفار قبور ، ولسوف لا أقف بعد الآن في الجماعات خطيباً فقد وجهت آخر خطبي إلى ميت .

أريد ان انضم إلى المبدعين ، إلى اولئك الذين يحصدون ويرتاحون ، فأريهم قوس قزح والمراتب التي يرقاها الواصلون إلى الانسانية المتفوقة .

سأهتف بنشيدي للمعتزلين ولمن يشعرون بثنويتهم في انفرادهم ، انني سأملأ بغبطتي قلب كل من له اذنان تصغيان إلى ما لم تسمعه اذن بعد .

انني اسير إلى هـــدفي وأتبع طريقي فأقفز فوق المترددين والمتأخرين ، وهكذا سيكون سيري جنوحاً إلى الغروب .

١٠

وكان زارا يناجي نفسه بهذا القول والشمس في الهاجرة واذا بـــه يسمع صوتاً جارحاً في الفضاء ولاح له نسر يعقد حلقات في طيرانه وقـــد تعلق به أفعوان ، وما كان النسر يقبض عليه بمخلبيه كفريسة ، بل كان الافعوان ملتفاً حول عنقه التفاف المحب .

فهتف زارا والحبور يملأ فؤاده : هذان نسري وافعواني ، فالنسر أشد الحيوانات افتخاراً ، والافعوان أشدها مكراً تحت حرارة الشمس ، وكلاهما

ذاهبان مستكشفين في الفضاء ليعلما ما اذا كان زارا لم يزل في الحياة ، فهل أنا لم أزل حياً بعد ؟

لقد اعترضني من المخاطر بين الناس مــا لم أجد مثله بين الحيوانات ، انني أتبع السبل الخطرة فلاقتدين بنسري وافعواني .

وتذكر زارا القديس المنعزل في الغاب فتنهد وقال :

لأكونن أوفر حكمة، لأكونن ماكراً كأفعواني ، غير انني أطلب المستحيل، لذلك أتوسل الى افتخاري أن يلازم حكمتي ولا ينفصل عنها .

وإذا ما تخلت حكمتي عني يومــاً وهي تتوق إلى الطيران واأسفاه فانني لأرجو أن يطير افتخاري مستصحباً جنوني .

وهكذا بدأ جنوح زارا إلى المغيب .

خطب زرادشت

التحول في ثلاث مراحـــل

سأشرح لكم تحول العقل في مراحله الثلاث فأنبئكم كيف استحال العقل جملاً، وكيف استحال الجمل اسداً ، وكيف استحال الأسد أخيراً فصار ولداً .

ما أوفر الاحمال التي تثقـل العقل الجـلد الصليب وهو مجلى الوقار ، فان صلابته تتوق إلى الحمل الثقيل بل إلى أثقل الأحمال .

يفتش العقل السليم عن أثقل الاحمـال فينيخ كالجمل ظهره متوقعاً رفع خير حمل اليه . ان العقل السليم ينادي الابطال قائلاً : أي حمل هو الاثقـل لأرفعه فتغتبط به قوتي ؟ أفليس أثقل الأحمال هو في الاتضاع لانزال العذاب بالغرور ؟ أفليس أثقلها أن يبدي الانسان اختلالاً لتظهر حكمته جنوناً ؟

أم أثقلها في تخلي الانسان عن مطلب حين يقترن هذا المطلب بالنصر ، أم في ارتقاء قمم الجبال لتحدي من يتحدى ؟

أم أثقلها في أن يتغذى الإنسان بأقماع السنديان والاعشاب ويتحمل مجاعة نفسه من أجل الحقيقة ؟

أم أثقلها في احتمال المرض وطرد العوّاد المعزّين ، أم في محادثة الصمّ الذين لا يسمعون ولا يعون ما تريد ؟

أم أثقلها في الانحدار إلى المياه القذرة إذا كانت الحقيقة فيها والرضى بملامسة الضفادع اللزجة والعقارب التي تقطر صديداً ؟

أم أثقلها في محبة من يحتقرنا وفي مــــد يدنا لمصافحة شبح يقصد ادخال الرعب إلى قلوبنا ؟ ان العقل السليم يحمـل ذاته جميع هذه الانفس المرهقة . وكالجمل الذي يسارع إلى طريق الصحراء عندما يرفع الوقر عن ظهره هكذا يندفع هو أيضاً نحـــو صحرائه وهنالك في الصحراء القافلة يتم التحور الثاني فينقلب العقل أسداً لأنه يطمح إلى نيل حريته وبسط سيادته على صحرائه .

وفي هذه الصحراء يفتش عن سيده ليناصبه العداء كما يحب سيده السابق ، فهو يستعد لمكافحة التنين والتغلب عليه .

ومن هو هذا التنين الذي يتمرد العقل عليه فلا يريد بعد الآن أن يرى فيه ربه وسيده ؟

ان التنين هو كلمة «يجب عليك» وعقل الأسد يريد أن ينطق بكلمة «اريد».

ان كلمة «الواجب» تترصد الأسد على الطريق تنيناً يدّرع بآلاف الاصداف وعلى كل قطعة منها تتوهج بأحرف مذهبة كلمة « يجب عليك » .

وعلى هذه الاصداف تشع شرائع الغابر والتنين الأعظم يعج قائلاً ان جميع الشرائع تتوهج عليّ .

كل ما هو سنة قد أوجد من قبل ، وبي تتمثل جميع السنن الكائنة. والحق ان كلمة « أريد » يجب ألا ينطق بها أحد بعد ! هكذا قال التنين .

فأية حاجة لكم أيها الاخوة بأسد العقل ؟ أفما يكفيكم الحيـوان القوي الجليل الممنع بامتناعه ؟

من العبث أن تطمحوا إلى خلق سنن جديـدة ، ان الأسد نفسه ليعجز عن هذا الحق إذ لا يسعه إلا أن يستعد بتحرير نفسه لخلق جديد لأن قوتـــه لن تتجاوز هذا الحد .

أيها الاخوة، ان العمل الذي تحتاجون فيه إلى الاسد إنما هو تحرير أنفسكم والوقوف ببطولة الامتناع في وجه كل شيء حتى في وجه الواجب . ذلك أيها الاخوة هو العمل الذي تحتاجون إلى الاسد للقيام به .

ان الاستيلاء على حق ايجاد سنن جديدة يقضي بالجهاد العنيف على العقل الخشوع الصبور ، ولا ريب ان في هذا الجهاد قسوة لا يتصف بها الحيوانات المفترسة .

لقد كان العقل فيما مضى يتعشق كلمة « الواجب » كأنها أقدس حق له ، وقد أصبح عليه الآن أن يجد في هذا الحق المفدى ما يحدو به إلى التعسف والتوهم ، ليتمكن بارهاق عشقه أن يستولي على حريته وليس غير الأسد من يقوم بهذا الجهاد .

ولكن ما هو العمل الذي يقدر عليه الطفل بعد ان عجز الاسد عنه ؟ ولماذا يجب أن يتحول الأسد إلى طفل ؟

ذلك لأن الطفل طهر ونيسان ، لأنه تجديد ولعب وعجلة تدور على ذاتها فهو حركة البداية وعقيدة مقدسة .

أجل أيها الاخوة ، ان العمل الالهي للابداع يستلزم عقيدة مقدسة ، فان العقل يطلب الآن أن يجد دنياه .

لقد ذكرت لكم تحولات العقل الثلاثة فأوضحت كيف استحال العقل جملاً وكيف استحال أسداً وكيف استحال أخيراً إلى طفل .

هكذا قال زارا ، وكان في ذلك الحين مقيماً في مدينة اسمها البقرة العديدة الالوان .

منابر الفضيلة

وبلغ زارا خبر حكيم أطنب الناس في علمه ومقدرته في التكلم عن الكرى ، وعن الفضيلة فحبوه بالتكريم والتبجيل واتبعه عدد من الشبان أصبحوا دعامة لمنبره العالي ، فذهب زارا وجلس أمام المنبر مصغياً إلى الحكيم فكان يقول :

مجدوا الكرى وعظموه لأن له المقام الأول وتحاشوا مرافقة من ساء رقادهم ومن استحوذ عليهم الأرق .

إن اللص ليقف خاشعاً أمام الكرى فيدلج في الليل محرساً وقع أقـدامه ولكن الساهر المجازف لا يتورع عن حمل بوقه .

ليس بالسهل أن يعرف الانسان كيف يستسلم لسنة الكرى ، وليس إلا لمن عرف كيف ينتبه طول النهار أن ينام ملء جفنيه .

يجب عليك أن تقاوم نفسك عشر مرات في النهار فتغنم خير التعب وتهيء الخدر لروحك .

عليك أن تصالح نفسك عشر مرات في النهار لأنـه إذا كان في قهر النفس مرارة فان في بقاء الشقاق بينك وبينها ما يزعج رقادك .

عليك أن تجد عشر حقائق في يومك كيلا تضطر إلى السعي وراءها في نومك فتبقى نفسك جائعة .

عليك أن تضحك عشر مرات في يومك لتكون مرحاً كيلا تزعجك معدتك في ليلك والمعدة بيت الداء .

قليل من يعرف هذا من الناس ، ولن يتمتع بالرقاد الهنيء إلا من حاز جميع الفضائل . فإذا ما المرء أدى شهادة زور أو تلطخ بالزنا وإذا هو اشتهى خادمة قريبة فقد حرم وسائل الهناء في نومه .

غير أن المرء يحتاج فوق فضائله إلى شيء آخر وهو أن يندفع الى الرقـاد بفضائله نفسها في الزمن المناسب .

ان من الفضائل من هي كالغانيات المتجنّيـات ، فأقم بينهم حائلاً كيلا ينتهين إلى عراك تكون أنت ضحيته .

ليكن سلامٌ بينك وبين ربك وبين الأقربين ، فـلا نوم هنيء بدون هذا السلام . وسالم شيطان جارك أيضاً لئلا يراودك في رقدك .

أكرم السلطة واخضع لها حتى ولو كانت هذه السلطة عرجاء : ان ذلك ما يقتضيه النوم الهنيء .

وما أنا بالجاني إذا كان يحلو للسلطة أن تسير متعارجة .

أن خير الرعاة من يقود قطيعه إلى المروج الخضراء ، ذلك مـــا يقتضيه الرقاد الهنيء .

لا أطلب كثيراً من المجد ولا وفيراً من المال وكلاهما يؤدي إلى الاضطراب ، ولكن المرء لا ينام هنيئاً ما لم يكن له شيء من الشهرة ولديه شيء من المال .

افضل أن يزورني القليل من الناس على أن يرتاد مسكني ُعشراء السوء، وهذا العدد القليل يجب عليه أن لا يطيل السَمَر عندي لئلا يعكر صفو رقادي .

تسرني مجالسة البله لأنهم يجلبون النعاس ، ولشد ما يغتبطون عندما نحبذ حماقاتهم ونشهد باصابتهم .

على هذه الوتيرة يقضي فضلاء الناس نهارهم . أما أنا فانني إذا أمسى المساء احترس من أن اراود النعاس لأنه سيد الفضائل ولا يرتاح إلى تحرش الساهرين .

وتحت جنح الظلام استعرض ما فكرت فيه وما فعلته في يومي فانطوي على نفسي كالحيوان الصبور واسائلها عما قهرت به أميالهـا عشر مرات وعما عقدت به الصلح مع ذاتهـــا عشر مرات ؛ وعن الحقائق العشر والمسرات العشر التي اقعمت بها .

وبينما أكون مستغرقاً تهزني الاربعون خاطرة ، يستولي النعاس علي فجأة ، وهكذا يسودني الكرى سيد الفضائل دون أن اتوجه بدعوة اليه .

يشغل النعاس جفني فيغمضان ، ويلمس فمي فيبقى مفتوحاً .

انه يدلف إلي كلص محبوب فيسرق أفكاري وأبقى أنا منتصباً كعمود من خشب ، ثم لا تمر لحظات حتى انطرح ممدداً على فراشي .

وبعد ان اصغى زارا إلى هذه الأقوال يقرع الحكيم بها الاسماع تملك ضحكه وأشرق نور في جوانب نفسه فناجاها قائلاً :

يتراءى لي أن هذا الحكيم قد جن كخواطره الأربعين .

ولكنه جد خبير بحالات الكرى . فما أسعد من يجاور هذا الحكيم ! لأن مثل هذا النعاس شديد الانتقال بالعدوى حتى إلى ما وراء الجدران .

ان شيئاً من السحر يفوح من منبره العالي ، وما يجتمع هذا العدد من الشبان عبثاً حول خطيب الفضائل .

ان قاعدة هذا الحكيم انما هي – اسهروا لتناموا – وفي الحقيقة لو لم يكن للحياة معناها ووجب أن اختار لها حكمة لا معنى لها لما كنت أجد أفضل من هذه القاعدة .

لقد أدركت الآن ما كان يطلب الناس قبل كل شيء عندما كانوا يفتشون عن أوليات الفضائل ، أنهم كانوا يطلبون النوم الهنيء والفضائل التي يتجلى على مفرقها تاج المخدرات . وما كانت الحكمة في عرف حكماء المنـــابر ، وقد نالوا الاعجاب والثناء ، إلا قـاعدة نوم لا تقلقه الأحلام . انهم لم يكتشفوا معنى أفضل من هذا المعنى للحياة .

وكم في أيامنا هذه من أناس يشبهون هذا الواعظ في دعوته إلى الفضيلة غير أنهم أقل اخلاصاً منه . ولكن هذا الزمان لم يعد زمانهم ولن يطول وقوفهم والكرى يراود أفكارهم فهم عن قريب سيمددون .

طوبى لمن دب إلى عيونهم النعاس ! انهم عما قريب سيرقدون .

هكذا تكلم زارا ...

المأخوذون بالعالم الثاني

وترامى زارا يوماً بخياله الى ما وراء الانسانية ، فتراءى هذا العالم لديه كما يراه جميع المأخوذين بالعالم الثاني خليقة رب متألم مضطرب ، فقال :

رأيت الدنيا كأنها أحـــلام نائم أبدعت ابخرة حوّالة متلوّنة ترتد عنها

ألوهية النفس على غير رضى . وقد لاح لي الخير والشر والافراح والاحزان وذاتي وذات الآخرين كما تلوح الأبخرة الملوّنة لعين المبدع ، ولعل المبدع أراد أن يتحول ببصيرته عن ذاته فأوجد العالم .

لا ينتشي المتألم بسرة أشد من مسرّته حينما يعرض عن آلامه وينسى نفسه . هكذا تكشف لي العالم يوماً فرأيت مسرته ثملا ونسياناً وهو يتقلب أبداً في نقائصه معكساً للتناقض الأبدي .

نظرت الى العالم يوماً فلاح لي مسكرة يتمتع بها مبدع غير كامل خلقته أنا ، فجاء ككل أعمال البشر جنة بشرية .

ما كان هذا الإله إلا انساناً ، بل جزءاً من شخصية انسان ، لأنه نشأ من ترابي ومن لهبي . انه لشبح من هذا العالم لا من وراء هذا العالم .

شهدت ذلك أيها الأخوة ، فتفوقت على ذاتي بآلامي ، وحملت ترابي الى الجبل حيث أوقدت ناراً تشع نوراً فاذا بالشبح يتوارى مبتعداً عني .

فاذا ما آمنت بمثل هذا الشبح ، فلا يكون ايماني توجّعاً وصغاراً ، ذلك ما أقوله للمأخوذين بالعالم الثاني .

ما أوجدت العوالم الاخرى في هذا العالم سوى الآلام والشعور بالعجز ، ذلك ما أوجدته تلك العوالم فأوجدت معه هذا الجنون السريع الزوال بسعادة ما ذاقها من الناس الا أشدهم آلاماً .

ان المتعب الذي يطمح الى اجتياز أبعد مدى بطفرة واحدة ، بطفرة قاتلة ، وقد بلغت به مسكنته وجهالته حداً لا يستطيع عنده أن يريد ، انما هو نفسه مبدع جميع الآلهة وجميع العوالم الاخرى .

صدقوني أيها الاخوة ان الجسد قد قطع رجاءه من الجسد ، فغدا يجس بأنامله مواضع الروح المضللة ، وذهب يتلمسها من وراء الحواجز القائمة على مسافة بعيدة .

صدقوني أيها الاخوة ، ان الجسد قد تملكه اليأس من الأرض فسمع صوتاً يناديه من قلب الوجود ، فأراد أن يخترق برأسه أطراف الحواجز ، بل حاول العبور منها الى العالم الثاني ، غير ان العالم الثاني جد خفي عن الناس لأنه بتخنثه وابتعاده عن كل صفة انسانية ليس الاسماء من العـــدم . ان قلب الوجود لا يخاطب الناس اذا لم يكلمهم كانسان .

والحق انه ليصعب علينا اثبات الوجود واستنطاقه . اجيبوا أيها الاخوة ، أفما يلوح لكم أن أغرب الأمور اثبتها دليلاً ؟

أجل ! ان هذا الذات على ما فيها من تناقض واختلال تثبت بكل جلاء وجودها فتبتدع وتعلن ارادتها لتضع المقاييس وتعين قيم الاشياء ، وما تطلب هذه الذات في اخلاصها الا الجسد حتى في حالة استغراقه في أحـلامه وتحفزه للطيران بأجنحته المحطمة

ان هذه الذات تتدرب على الافصاح عن رغباتها باخلاص ، وكلما ازدادت تدرباً ألهمت البيان للاشادة بالجسد وبالأرض .

لقد علمتني ذاتي عزة جديدة اعلمها الآن للناس : علمتني ألا اخفي رأسي بعد الآن في رمال الاشياء السماوية ، بل أرفعها رأساً عزيزة ترابية تبتدع معنى الارض.

إنني أعلم الناس ارادة جديدة يتخيرون بها السير على الطريق التي اجتازها الناس عن غباوة من قبلهم ، أعلمهم أن يطمئنوا الى هذه الطريق فـلا تنزلق أرجلهم عنها كما انزلقت أرجل الاعلاء المتهكين ، ومـا هؤلاء الا من ابتدعوا الاشياء السماوية واخترعوا قطرات الدماء المراقة لافتداء البشر . على ان هذه السموم التي أخذوا بلذتها ورهبتها لم يستخرجوها الا من الجسد ومن الارض .

لقد شاءوا الفرار من الشقاء وتراءت لهم الكواكب بعيدة صعبة المنـــال فوجموا يدفعون بالزفرات قائلين : وا أسفاه ! لم لا تنفتح أمامنا سبل في السماء ننسحب عليها الى وجود آخر والى سعادة أخرى ؟

في ذلك الحين اخترعوا أوهامهم وكؤوسهم الصغيرة المترعة بالدماء ...
وحسب هؤلاء الناس في عقوقهم انهم فازوا بالنعيم بعيداً عن جسدهم وعن الأرض ، وتناسوا أن تنعمهم ورعشة ملذاتهم انما نشأت من جسدهم ومن هذه الارض[1] .

ان زارا ليشفق على الاعلاء فلا يغضب لما أوجدوه من وسائل السلوان ولا يتمرمر لأنهم عقوا جسدهم وأرضهم ، بل هو يرجو لهم الشفاء والتغلب على أنفسهم ليوجدوا لهم أجساداً أرقى من أجسادهم .

---

(١) ليذكر القارىء الكريم ما وجهنا انتباهه اليه في مقدمتنا ، فها هو نيتشه قد بدأ يوضح علة جحوده ، فهو يرى معبود الناس قائماً من وهمهم أو بتعبير آخر ان الانسان قد خلق الله .فصوره من ترابه ونفخ فيه نسمة من لهبه . ولو اننا وقفنا عند كل فكرة جامحة من أفكار نيتشه لنحللها ونرجع منها الى ايماننا المكين لاضطررنا إلى التحول من الترجمة إلى البحث . غير اننا لا نجد بداً الآن من دعوة القارىء إلى الامعان في الصفات التي تتراءى لنيتشه كأنها هي الالوهية فيتأكد ان الاله الذي يهاجمه هذا الفيلسوف هو غير الهنا ، وعالمه الثاني هو غير عالمنا الروحي الذي يقيم فينا قبل أن نقيم فيه .

ان نيتشه كان قد خرج على الدين الذي اقتبسته الآية عن السامية فشوهته ، فأصبح بعد ذلك طريد فكره الجبار ينتقد آثار الدين في المجتمع ، وقد وقف موقفه السلبي فلا هو يسكت صراخ نفسه المتمردة، ولا هو يهتدي إلى الدين الحق الذي تسكن الروح اليه وينتظم المجتمع بأحكامه. وها نحن نورد كلمة لنيتشه قالها وهو يكتب زرادشت وفيها عبرة للمؤمنين وللجاحدين :

في حديقة من حدائق لوزون جلس نيتشه إلى السيدة « لوسالومه » وهي حسناء روسية ملكت لبه ، وفي حديثه معها ملكه الصمت ، فرأت لو دموعه تنهمر وبدأ يقص عليها تاريخ تطوره الفكري ، فوصف لها سني فترته التي قضاها في التعبد ، ثم عرض مراحله في شكوكه واضطرابه في عالم لا بد من امرار الحياة فيه دون أن يكون لهذا العالم اله ... فقال ، والسيدة نفسها دونت قوله للتاريخ :

« هكذا بدأت مغامراتي الفكرية وما وصلت الى محجة منها، فالى أين اتجه... أفلا يجدر بي ان اعود الى الايمان ، او ان اوافق إلى ايمان جديد ؟ على انه خير لي إذا أنا لم ارفق إلى الوصول لهدف أن أعود أدراجي من أن أقف في حيرتي » ا. هـ. نقلاً عن كتاب « دانيال هالاڤي » .

ان زارا لا يغضب أيضاً على الناقة الذي يحن إلى وهمه فيذهب في منتصف الليل ليطوف بقبر إلهه ، ولكنه لا يرى في دموع هذا النـاقه إلا أثر المرض والجسم المريض .

لقد وجد في كل زمان كثير من المرضى المستغرقين المتشوهين فهم يكرهون الى حد الهوس كل من يطلب المعرفة ، ويكرهون أبسط الفضائل وهي فضيلة الاخلاص .

انهم يلتفتون دائماً الى الوراء ، الى الأزمنة المظلمة ، اذا كان للجنون وللايمان حلتها الخاصة ، فكان الإله يتجلى في هوس العقل ، وكانت كل ريبة خطيئة .

لقد عرفتهم جد المعرفة ، أولئك المتجلين على صورة الله ومثاله ، فتيقنت ان جميع رغبـاتهم تتجه إلى أن يؤمن الناس بهم وأن يصبح كل شك فيهم خطيئة ، وما فات مداركي ذلك الايمان الذي يدعون رسوخه فيهم . فانهم لا يؤمنون لا بالعوالم الأخرى ولا بقطرات الدماء تفتدي العالم،بل هو كسائر الناس يعتقدون بالجسد ، ويرون أن أجسادهم نفسها هي الكائن الواجب الوجود .

غير ان هؤلاء الناس يرون الجسد كائنـاً معتلاً ، فيودون أن يبارحوا جلودهم وذلك ما يدفعهم إلى الاصغاء للمبشرين بالموت وما يهيب بهم إلى التبشير بالعوالم الأخرى .

أما أنتم ، يا اخوتي ، فاصغوا الى صوت الجسد الذي أبلّ من دائه لأن هذا الجسد يخاطبكم بصوت أنقى وأخلص من تلك الاصوات .

ان الجسد السليم يتكلم بكل اخلاص وبكل صفاء ، فهو كالدعامة المربعة من الرأس حتى القدم وليس بيانه إلا افصاحاً عن معنى الأرض .

هكذا تكلم زارا ...

المستهزئون بالجسد

لأقولن للمستهزئين بالجسد كلمتي فيهم : ان واجبهم ألا يغـيروا طرائق تعاليمهم ، ولكن عليهم أيضاً أن يودعوا أجسادهم فيستولي على ألسنتهم الخرس.

يقول الطفل أنا جسد وروح . فلماذا لا يتكلم هؤلاء الناس كالأطفال ؟ أما الإنسان الذي انتبه وأدرك ذاته فيقول :

انني بأسري جسداً لا غير ، وما الروح إلا كلمة اطلقت لتعيين جزء من هذا الجسد .

ما الجسد إلا مجموعة آلات مؤتلفة للعقل ، ومظاهر متعددة لمعنى واحد . ان هو إلا ميدان حرب وسلام ، فهو القطيع وهو الراعي .

ان آلة جسدك إنما هي اداة عقلك الذي تدعوه روحـاً ، أيها الأخ ، ان هي الا أداة صغيرة وألعوبة صغيرة لعقلك العظيم .

انك تقول « أنا » ، وتنتفخ غروراً بهذه الكلمة ، غير ان هنالك ما هو أعظم منها ، أشئت أن تصدق أم لم تشأ ، وهو جسدك وأداة تفكيره العظمى ، وهذا الجسد لا يتبجح بكلمة أنا لأنه هو « أنا » ، هو مضمر الشخصية الظاهرة .

ان ما تتأثر الحواس به وما يدركه العقل لا نهاية له في ذاته ، غير ان الحس والعقل يحاولان اقناعك بأن فيهما نهاية الأشياء جميعها ، فما أشد غرورهما !

ما الحس والعقـل الا أدوات وألعوبة ، والذات الحقيقية كامنة وراءهما مفتشة بعيون الحس ومصغية بآذان العقل .

ان الذات ما تبرح مفتشة مصغية ، فهي تقـابل وتستنتج ثم تهدم متحكمة في الشخصية سائدة عليها ، فان وراء احساسك وتفكيرك ، يا أخي يكمن سيد أعظم منهما سلطاناً ، لأنه الحكيم المجهول ، وهذا الحكيم انما هو الذات بعينها المستقرة في جسدك وهي جسدك بعينه أيضاً [١] .

ان في جسدك من العقل ما يفوق خير حكمة فيك ، ومن له أن يعلم السبب الذي يجعل جسدك بحاجة الى خير ما فيك من حكمة .

ان ذاتك تهزأ بشخصك وبألعابها قائلة : ما هي خطرات الفكر وتساميه ان لم تكن جنوحاً الى هدفي ، أفلست أنا وائدة الشخصية وملهمة أفكارها ؟

تقول الذات للشخصية : — اشعري بألم ، فتتألم وتفكر بالتخلص من هذا الألم ، وقد تحتم عليها أن تتجه الى هذه الغاية .

وتقول الذات للشخصية : — اشعري بالسرور ، فتسر وتفكر باطالة أمد هذا السرور ، وقد تحتم عليها أن تتجه الى هذه الغاية .

لي كلمة أقولها للمستهزئين بالجسد،وهي ان احتقارهم انما هو فيالحقيقة حرمة واعتبار ، اذ من هو يا ترى موجد الاحترام والاحتقار والتقدير والارادة ؟

ان الذات المبــــدعة أوجدت لنفسها الاحترام والاحتقار كما أوجدت اللذة والألم . ان الجسم المبدع أوجد العقل لخدمته كساعد يتحرك بارادته .

انكم لتخدمون الذات الكامنة فيكم حتى في جنونكم وفي احتقاركم . وأنا أقول لكم أيها المستهزئون بالجسد ان ذاتكم نفسها تريد أن تموت، وقد تحولت

---

(١) أفلا يرى القارىء الكريم اثبات واجب الوجود في محاولة انكاره ، واثبات الايمان الفكري الاسمى في أضل منطق وأصرح جحود ؟ ذلك هو رد الفعــل الذي أشرنا اليـه في مقدمتنا ، فان الإيمان الغربي قد اعتبر الجسد آلة شهوة محتقرة يجب اذلالهـا ، فأنكر الحياة (وما الحياة في نظر الشرق المؤمن إلا مقدمة للخلود) وما ثار نيتشه إلا على هـذا التصور للكيان الانساني ، فهب يقلب ظاهره باطناً وباطنه ظاهراً ، ويشطره إلى ذات وإلى شخصية معتبراً الشخصية عقلاً وادراكاً زائلين وقائلاً بأن الجسم بما فيه من حوافز مجردة خفية انما هو بنفسه الذات الواجبة الوجود التي تندفع إلى التكامل لتبلغ بالانسان مرتبة الالوهية .

هذه كلمة لم نر بداً من الاتيان بها وهي جـــد موجزة ، ولكنها ستكون مداراً لبحث نتوق إلى تناوله عندما ننتهي من ترجمة فيلسوف الغرب الكبير لنأخذ من الحاده دليلاً له شأنه على صحة ايمان الشرق بالواحد الاحد وبما نفخ في الأجساد من نسمة الحياة الخالدة .

عن الحياة لأنها عجزت عن القيام بما كانت تطمح اليه وما أقصى رغباتها الا ابداع من يتفوق عليها ، ولقد مضى زمن تحقيق هذه الرغبة ، لذلك تطمح ذاتكم إلى الزوال أيها المستهزئون بالأجساد .

ان ذاتكم أصبحت تتوق إلى الزوال ، وهذا ما يدفع بكم إلى الاستهزاء بالأجساد إذ قد امتنع عليكم أن تخلقوا من هو أفضل منكم .

ان هذا العجز قـــد ولد فيكم النقمة على الحياة والأرض ، وها هي ذي تتجلى في شهوة لحظاتكم المنحرفة دون أن تعلموا .

انني لا أسير على طريقكم أيها المستهزئون بالاجساد ، لأنني لا أرى فيكم المعبر الذي يؤدي إلى مطلع الانسان المتفوق .

هكذا تكلم زارا ...

المـــلذات والشهوات

إذا كان لك فضيلة يا أخي ، وكانت هذه الفضيلة خاصة بك فانك لاتشارك فيها أحداً سواك . ولا ريب في انك تريد أن تدعوها باسمها وتداعبها لتتسلى بها ولكنك بهذا أشركت بها الناس بمـا أطلقت عليها من تعريف ، فأصبحت أنت وفضيلتك مندغمين في القطيع .

خيرٌ لك يا أخي أن تقول: ما تلذ به روحي وتتعذب به يتعالى عن الايضاح، ويجل عن أن يسمى ، وهذا العجز عن ادراكي له يخلق المجاعة في احشائي .

لتكن فضيلتك أسمى من أن تستخف بالاشياء عند تحديدها، وإذا ما اقتحمت هذا التحديد ، فلا تستحي من أن تتلفظ به تمتمة ، فقل وأنت تتمتم :

ـ ان هذا هو خيري الذي أحب ، ان هذا ما يثير اعجابي ، فأنا لا أريد الخير إلا على هذه الصورة . لا أريد هذه الاشياء تبعاً لارادة رب من الأرباب

ولا عملاً بوصية أو ضرورية بشرية ، فأنا لا أريد أن يكون لي دليل يهديني إلى عوالم عليا وجنّات خلود ...

قل : ما أحب سوى فضيلة هذه الارض ، لأن مـا فيها من الحكمة قليل ، وأقل منه ما فيها من صواب متفق عليه ، إن هذا الطير قـد بنى عشه على مقربة مني ، لذلك احببته وعطفت عليه ، وها هوذا الآن يحتضن عندي بيضه الذهبي . على هذه الوتيرة تكلم وأنت تتمتم ممتدحاً فضيلتك .

لقد كان لك فيما مضى شهوات كنت تحسبها شروراً ، أما الآن فليس فيك إلا الفضائل ، وقد نشأت هذه الفضائل من شهواتك نفسها ، لأنك وضعت في هذه الشهوات أسمى مقاصدك فتحولت فيك إلى فضائل ومـلذات هي منك ولك ، ولسوف ترى جميع شهواتك تستحيل إلى فضائل ، ولسوف ترى كل شيطان فيك يستحيل ملاكاً حتى ولو كنت ممن يستسلمون للغيظ والشهوات وكنت من فئة الحاقدين المتعصبين .

لقد كانت الكلاب المفترسة تسكن دهاليز من قبل ، فهـا هي ذي الآن أطيار مغردة . لقد استقطرت السماء بلسماً من سمومك وحلبت ناقة الاوصاب، وأنت الآن تكرع لذيذ درها .

لن يخلق منك شر بعد الآن ، غير ان هنـاك شراً قد ينشأ من تخاصم فضائلك . فاصغ إلي ، يا أخي ! انك اذا شعرت بسعادة فما يكون ذلك إلا لفضيلة مستقرة فيك وهي تسهل اجتياز الصراط عليك .

انها لمزية أن تكون للانسان فضائل عديدة ، غير ان تعدد الفضائل يرمي بالانسان الى أشقى الحظوظ وكم من مجاهدٍ أرهقـه النزل في ساحات الفضائل فتوارى لينتحر في الصحراء .

اذا كنت ترى المعارك والحروب شروراً فاعلم يا أخي انها شروط لا بـد منها لأن الحسد والريبة والشتيمة مقامها المحترم بين فضائلك نفسها . تبصّر تر

ان كلاً من فضائلك تطمح الى المقام الأسمى وتطمح في الاستيلاء على جميع أفكارك لتستعبدها وتحصر بها وحدها كل ما في غضبك وبغضائك وحبك من قوة .

ان كلاً من فضائلك تحسد الاخرى ، والحسد هائل مريع يتناول الفضائل أيضاً فيبيدها .

ان من يحيط به لهيب الحسد تنتهي به الحال الى ما تنتهي العقرب اليه فيوجه حمته المسمومة الى نحره .

أفما رأيت ، يا أخي ، من الفضائل من تشتم نفسها وتنتحر ؟

ليس الانسان الا كائناً وجب عليه أن يتفوق على نفسه ، لذلك حق عليك يا أخي ، أن تحب فضائلك لأنك بها ستفنى .

هكذا تكلم زارا ...

المجرم الشاحب

أفما تريدون أن تنزلوا القصاص ، أيها القضاة والمضحكون ، ما لم يهز الحيوان رأسه ؟ اليكم رأس المجرم الشاحب ، انها لترتعش ، وها ان افظع احتقار يتكلم في نظراته .

ان عيني المجرم تقولان لكم : ما الشخصية الا شيء وجب علينا أن نتسامى فوقه ، وما شخصيتي الا عظيم احتقاري للبشر .

لقد انتهى أجل هذا المجرم عندما أصدر حكمه على نفسه ، فلا تتركوا لتساميه سبيلاً يندفع منه الى الانحطاط . عاجلوه بالموت فهو المنقذ الوحيد لمن بلغ عذابه بنفسه هذا الحد البعيد .

ليكن قصاصكم ، أيها القضاة ، رحمة لا انتقاماً . واذا ما حكمتم بالموت فلتكن غايتكم تبرير الحياة : لا يكفيكم أن تقيموا السلم بينكم وبين من

تقتلون ، يجب أن يكون حزنكم تعبيراً عن ولهكم بالانسان المتفوق . وهكذا تبررون الاستبقاء على أنفسكم .

قولوا ان هذا الرجل عدو ، ولا تقولوا انه سافل ، صفوه بالمرض لا بالدناءة . اعتبروه مختلاً لا مجرماً . وأنت أيها القاضي لو انك تعلن للملأ ، وأنت في برودك الحمراء ، ما ارتكبت من مآتٍ في تفكيرك ، لكنت تسمع الناس يهتفون قائلين :

اخلعوا هذا الرجل عن كرسيه فهو ممتلىء أقذاراً وسموماً .

ولكن الفكرة شيء والعمل شيء آخر ، كما ان شبح العمل شيء مستقل بنفسه أيضاً . فليس بين هذه الأشياء الثلاثة أية علاقة يصح أن تعتبر علاقة العلة بالمعلول .

ان شبح الجريمة كان صورة لاحت لهذا الرجل فعلا وجهه الاصفرار ، لأنه عندما ارتكب جرمه كانت قوته على مستواها ، ولكنه ما أتم الجرم حتى وهنت تلك القوة فلم يستطع أن يتفرس في شبح جرمه .

لقد لاح لهذا الرجل انه ارتكب فعلة واحدة لا غير ، وبذلك يقوم جنونه لأن الشذوذ تحول الى قاعدة كيانه . ان الدائرة التي يرسمها المجرم تصبح قيداً لتفكيره كالفرخة يرسم المنوم حولها دائرة فلا تستطيع اجتياز خطها . وهكذا لا يكاد المجرم يخرج من جرمه حتى يدخل في دائرة جنونه .

اصغوا الي ، أيها القضاة ، ان الجنون الذي يتلو العمل انما تقدمه جنون آخر قبله ، وأنتم لم تسبروا روح المجرم الى أقصاها .

ان القاضي الاحمر يتساءل عن سبب اقدام المجرم على القتل ، فيقول في نفسه ان القاتل أراد السرقة أولاً ، أما أنا فأقول ان نفس المجرم لم تقصد السرقة بل طلبت اراقة الدماء ، لأنها كانت ظامئة الى اغماد النصل . ان عقلية المجرم لم تفهم هذا الجنون فاندفع الى ارتكاب جرمه ، وعقليته تناجيه قائلة: ما يهمك أن تريق الدماء ما دام جرمك يوصلك الى السرقة أو الانتقام ؟ لقد أصغى

المجرم الى صوت عقليته المسكينة لأن ما أسرّت به اليه كان ثقيلاً كالرصاص ، فسرق بعد ان قتل لأنه أراد أن يبرر جنونه ولا يخجل منه .

وعاد جرمه فثقـــل عليه كالرصاص أيضاً ، فثقل عقله المسكين فاستولى عليه التخدر والشلل . ولو ان هذا المجرم تمكن من أن ينتفض بهامته لكان تهاوى حمله الثقيل عنه ، ولكن من كان سيهز رأسه يا ترى ؟

لو انك انعمت النظر في هذا الانسان ، لما تجلى لك الا مجموعة علل تتطلع بالعقل الى العالم الخارجي مفتشة عن غنيمة تظفر بها .

ليس هذا الانسان الا كتلة أفاعٍ اشتبكت وهي تدافع مستمر لا تسكن الا لتتفكك منسابة في شعاب الدنيا تسعى وراء غنائمها .

انظروا الى هذا الجسم المسكين ! ان روحه الضعيفة طمحت الى استكناه ما في الجسم من ألم ورغبات ، فخيل لها انها متشوقة الى القتل .

ان من يتسلط عليه هذا المرض في هــذه الايام لتباغته شرورها فيريد أن يعذب الآخرين بما يتعذب هو به ، غير انــه قد مرّ زمان من قبل كان له خير وشر هما غير خير هذه الايام وشرها . ذلك زمان كانت تحتسب فيه شكوك الانسان ومطامعه جرائم عليه ، فكان المبتلي بالشكوك والمطامع يعد ساخراً ومنشقاً عن المجتمع فيعمد هو الى تعذيب الآخرين بعذابه .

انكم لا تريدون الاصغاء الى أقوالي اذ ترونها تلحق الضرر بالصالحين بينكم ولكنني لا أقيم وزناً لرجالكم الصالحين .

ان في هؤلاء الرجال من تشمئز منه نفسي ، وليس مـا أكره فيهم ما يعد من الشرور ، فانني أتمنى لهم جنوناً يوردهم الردى كجنون المجرم الشاحب .

والحق انني أريد أن يدعى هذا الجنون حقيقة أو اخلاصاً أو عدلاً ، لأن فضيلة هؤلاء الناس لا تقوم الا على اطالة عمرهم لقضائه بالملذات السافلة ولا ملذة لهم الا بالارتياح الى نفوسهم والرضى عنها .

ما أنا الا حاجز قائم على ضفة النهر، فمن له قدرة على التمسك بي فليفعل، ومن لا طاقة له على ذلك فلا يظن اني سأكون طوع يده يقبض عليّ كما يقبض الكسيح على عصاه .

هكذا تكلم زارا ...

القراءة والكتابة

اني استعرض جميع ما كتب ، فلا تميل نفسي الا الى ما كتبه الانسان بقطرات دمه . اكتب ، بدمك فتعلم حينئذ ان الدم روح ، وليس بالسهل أن يفهم الانسان دماً غريباً . انني أبغض كل قارىء كسول لأن من يقرأ لا يخدم القراءة بشيء ، واذا مر قرن آخر على طغمة القارئين فلا بد من أن تتصاعد روائح النتن من التفكير .

اذا اعطي لكل انسان الحق في أن يتعلم القراءة ، فلن تفسد الكتابة مع مرور الزمن فحسب ، بل أن الفكر نفسه سيفسد أيضاً .

لقد كان الفكر فيما مضى الهاً فتحول الى رجل ، وها هو ذا الآن كتلة من الغوغاء . أن من يكتب سوراً بدمه لا يريد أن تتلى تلك السور تلاوة ، بل يريد أن تستظهرها القلوب .

ان أقرب الطرق بين الجبال انما هو الخط الممتد من ذروة الى ذروة ، ولا يمكنك أن تتبع هذا السبيل اذا لم تكن لك رجلا مارد. يجب أن تكون التعاليم شامخة كهذه الذرى ، وأن يكون لمن تلقن لهم قوة الجبابرة وعظمتهم .

لقد رق النسيم وصفاً ، وهذه المخاطر تحدق بي عن كثب ، وفكرتي تتخطر مرحة في قسوتها . أمامي الصراط الممتد فلأتخذن من الجن اتباعاً . أنا رب الجسارة والعزم ، ومن توصل باقدامه الى طرد الاشباح لايصعب عليه أن يخلق من الجن له اتباعاً .

لقد تاقت شجاعتي الى الضحك ، وقد انقطع كل حبل بيني وبينكم . أن السحب المتمخضة بالعواصف لهي سحبكم السوداء الثقيلة وأنا أهزأ الآن بها .

انكم تنظرون إلى ما فوقكم عندما تتشوقون إلى الاعتلاء ، أما أنا فقد علوت حتى أصبحت أتطلع إلى مـا تحت قدمي . فهل فيكم من يمكنه أن يضحك وهو واقف على الذرى ؟

من يحوم فوق أعالي الجبـال يستهزىء بجميع مآسي الحياة ويستهزيء بمسارحها بل بالحياة نفسها .

تريدنا الحكمة شجعاناً لا نبالي بشيء ، تريدنا أشداء مستهزئين.، لأن الحكمة انثى ، ولا تحب الانثى إلا الرجل المكافح الصلب .

تقولون أن الحياة وقر ثقيـل ، فقولوا لي أيضاً لماذا تقابلون الصباح بغروركم ، ثم يجيء المساء فلا يجد فيكم إلا المذلة والخضوع ؟

ان الحياة جد ثقيلة ، ولكن ما هذا الخور الذي يبدو عليكم ؟ أفلسنا كلنا دوّاب ولكل دابة منها وقرها ؟ وهل من شبه بيننا وبين برعم الورد يرتجف متضايقاً لسقوط قطرة الندى عليه ؟

لا ريب أننا نحب الحياة ، وليس سبب ذلك لأننا تعودنا الحياة ، بل السبب في أننا تعودنا حب الحياة . .

ان في الحب شيئاً من الجنون ، ولكن في الجنون شيئاً من الحكمـة . وأنا نفسي التائق إلى الحياة يتراءى لي أن خير من يدرك السعادة انما هي الفراشات وكرات الصابون الفارغة ، ومن يشبهها من النـاس . ولا شيء يبكي زارا ويدفعه إلى الانشاد كنظره إلى هـذه الأرواح الصغيرة الخفيفة الرائعة الدائمة الخفقان في جنونها .

ان الاله الذي يمكنني أن أؤمن به إنما هو الإله الذي يمكنه أن يرقص .

عندما تراءى لي الشيطان رأيته جامداً مستغرقاً ملؤه الجد والجلال، فقلت هذا هو الروح الثقيل الذي تتساوى جميع الحالات لديه .

اذا أردت القتل فلا تستعن بالغضب ، بل استعن بالضحك . فهيا بنا نقتل الروح الثقيل .

انني ما زلت راكضاً منذ تعلمت المشي . وهأنذا أطير الآن ولست بحاجة الى من يدفعني لأتحرك .

لقد أصبحت خفيفاً ، فأنا أطير مشعِراً بأنني احلق فوق ذاتي وان الهـاً يرقص في داخلي .

هكذا تكلم زارا ...

دوحة الجبـــل

وارتقى زارا ذات مساء الربوة المشرفة على مدينة (البقرة الملونة) فالتقى هنالك فتىً كان يلحظ فيما مضى صدوده عنه ، وكان هذا الفتى جالساً الى جذع دوحة يرسل الى الوادي نظرات ملؤها الأسى ، فتقـدم زارا وطوّق الدوحة بذراعيه وقال : — لو انني أردت هزّ هذه الدوحة بيدي لما تمكنت . غير ان الريح الخفية عن أعيننا تهزها وتلويها كما تشاء . هكذا نحن تلوينا وتهزنا أيادٍ لا تُرى .

فنهض الفتى مذعوراً وقال: هذا زارا يتكلم ! وقد كنت موجهاً أفكاري اليه .

فقال زارا : ما يخيفك يا هذا ؟ أليس للانسان وللدوحة حـالة واحدة ؟ فكلما سما الانسان الى الأعـــالي ، الى مطالع النور ، تذهب أصوله غائرة في أعماق الارض ، في الظلمات والمهاوي .

فصاح الفتى : أجل ! اننا نغور في الشرور ، ولكن كيف يتسنى لك أن تكشف خفايا نفسي ؟

فابتسم زارا وقال : ان من النفوس من لا نتوصل الى اكتشافها الا باختراعها اختراعاً .

وعاد الفتى يكرر قوله : أجل اننا نغور في الشرور قلت حقاً يا زارا ، لقد تلاشت ثقتي بنفسي منذ بدأت بالطموح الى الارتقاء ، فحرمت أيضاً ثقة الناس، فما هو السبب يا ترى ؟ انني اتجول بسرعة فيدحض حاضري ما مضى من أيامي، ولكم حلقت فوق المدارج اتخطاها وهي الآن لا تغتفر لي اهمالي . انني عندما أبلغ الذروة أراني دائماً منفرداً وليس قربي من يكلمني ، ويلفحني القرّ في وحدتي فترتجف عظامي ، وما أدري ماذا أتيت أطلب فوق الذرى !

ان احتقاري يساير رغباتي في نموّها ، فكلما ازددت ارتفاعاً زاد احتقاري للمرتفعين فلا أدري ما هم في الذرى يقصدون . ولكم اخجلني سلوكي متعثراً على المرتقى ، ولكم هزأت بتهدج أنفاسي . انني أكره المتنفضين للطيران . فما أتعب الوقوف على الذرى العالية !

ونظر زارا الى الدوحة يتكىء الفتى عليها ساكتاً فقال : ان هذه الدوحة ترتفع منفردة على القمة وقد نمت وتعالت فوق الناس وفوق الحيوانات ، فاذا هي أرادت أن تتكلم الآن بعد بلوغها هذا العلو فلن يفهم أقوالها أحد . انها انتظرت ولم تزل تتعلل بالصبر ، ولعلها وقد بلغت مسارح السحاب تتوقع انقضاض أول صاعقة عليها .

فهتف الفتى متحمسا : نطقت بالحق ، يا زارا ، انني اتجهت الى الاعماق وأنا أطلب الاعتلاء ، وما أنت الا الصاعقة التي توقعتها . تفرّس فيّ ، وانظر الى ما آلت اليه حالتي منذ تجليت لنا ، فما أنا الا ضحية الحسد الذي استولى عليّ .

وكانت الدموع تنهمر من مآقي الفتى وهو يتكلم ، فتأبط زارا زراعه وسار به على الطريق . وبعد ان قطعا مسافة منها قال زارا : لقد تفطر قلبي ، ان في عينيك ما يفصح بأكثر من بيانك عما تقتحم من الاخطار . انك لمـــا تتحرر يا أخي ، بل ما زلت تسعى إلى الحرية ، وقد أصبحت في بحثك عنها مرهف الحس كالسائر في منامه .

انك تريد الصعود مطلقاً من كل قيد نحو الذرى ، فقد اشتاقت روحك إلى مسارح النجوم ، ولكن غرائزك السيئة نفسها تشتاق الحرية أيضاً .

ان كلابك العقورة تطلب حريتها فهي تنبح مرحة في سراديبها ، على حين ان عقلك يطمح إلى تحطيم أبواب سجونك كلها . وما أراك بالطليق الحر فأنت لم تزل سجيناً يتوق إلى حريته ، وأمثال هـــذا السجين تتصف أرواحهم بالحزم غير انها تصبح وا أسفاه مراوغة شريرة .

على من حرّر عقله أن يتطهر مما تبقى فيه من عادة كبت العواطف والتلطخ بالاقذار ، لتصبح نظراته برّاقة صافية . انني لا أجهل الخطر المحدق بك ، لذلك استحلفك بحبي لك وأملي فيك ألا تطرح عنك ما فيك من حب ومن أمل .

انك لم تزل تشعر بالكرامة ولم يزل الناس يرونك كريماً بالرغم من كرههم لك وتوجيههم نظرات السوء اليك ، فاعلم ان الناس لا يبالون بالكرماء يمرون بهم على الطريق ، غير ان أهل الصلاح يهتمون بهم ، فاذا مـــا صادفوا في سبيلهم من يتشح الكرامة دعوه رجلاً صالحاً ليتمكنوا من القبض عليه لاستعباده .

ان الرجل الكريم يريد أن يبدع شيئاً جديداً وفضيلة جديدة ، على حين ان الرجل الصالح لايحن إلا إلى الاشياء القديمة ، وجل رغبته تتجه إلى الابقاء عليها .

لا خطر على الرجل الكريم من أن ينقلب رجل صلاح ، بـــل كل الخطر عليه في أن يصبح وقحاً هداماً .

لقد عرفت من الناس كراماً دلت طلائعهم على انهم سيبلغون اسمى الأماني ،

فما لبثوا حتى هزأوا بكل امنية سامية ، فعاشوا تسير الوقاحة أمامهم ، وتموت رغباتهم قبل أن تظهر، فما أعلنوا في صبيحتهم خطة إلا شهدوا فشلها في المساء،

قال هؤلاء الناس : ما الفكرة إلا شهوة كغيرها من الشهوات .

وهكذا طوت الفكرة فيهم جناحيها فتحطما ، وبقيت هي تزحف زحفاً وتدنس جميع ما تتصل به .

لقد فكر هؤلاء الناس من قبل أن يصيروا أبطالاً ، فما تسنى لهم إلا أن يصبحوا متنعمين ، يحزنهم شبح البطولة ويلقي الخوف في روعهم .

استحلفك بحبي لك وأملي فيك ألا تدفع عنك البطل الكامن في نفسك إذ عليك أن تحقق أسمى أمانيك .

هكذا تكلم زارا ...

المنذرون بالموت

ما أكثر المنذرين بالموت ! والعالم مــــليء بمن تجب دعوتهم إلى الاعراض عن الحياة

ان الارض مكتظة بالدخلاء وقد أفسدوا الحياة ، فما أجدرهم بأن تستهويهم الحياة الأبدية ليخرجوا من هذه الدنيا .

لقد وُصف المنذرون بالموت بالرجــال الصفر والسود ، ولسوف أصفهم أنا فينكشفون عن ألوان أخرى أيضاً .

انهم لأشد الناس خطراً ، إذ كمن الحيوان المفترس فيهم ، فغدوا ولا خيار لهم إلا بين حالتين ، حالة التحرق بالشهوة وحالة كبتها بالتعذيب . وما شهوتهم إلا التعذيب بعينه . ان هؤلاء المسوخ لم يبلغوا مرتبة الانسانية بعد ، فليبشروا بكره الحياة ، وليقلعوا عن مرابعها .

هؤلاء هم المصابون بسل الروح . فانهم لا يكادون يولدون للحياة حتى يبدأ موتهم وقد شاقتهم مبادىء الزهد والملال

يود هؤلاء الناس أن يدرجوا عداد لأموات ، فعلينا أن نحبـــذ ارادتهم ولنحترس من أن نعمــــل على بعث هؤلاء الأموات وعلى تشويه هذه النعوش المتحركة .

إذا هم صادفوا مريضاً أو شيخــاً أو جثة ميت ، فانهم يقولون : — لقــد انتفت الحياة ، ولو انصفوا لقالوا انهم هم نفي للحياة ، وان عيونهم دحضٌ لها لأنها لا تتجه إلا إلى مظهر واحد من مظاهر الوجود .

هم يتلفعون برداء وسيع من الاسى ويتشوقون إلى الحوادث التي تجر وراءها الموت . ولكنهم يتوقعون الموت وأسنانهم تصطك فرقاً . غير انهم في الوقت نفسه يمدون أيديهم إلى مــا لذ وطاب هازئين ، فكأن الحياة قشة يهزأون بها ولكنهم يحرصون عليها . ان حكمة هؤلاء الناس تهتف قائلة « الحياة جنون ، أفظع منه التمسك بالحياة . وقد بلغ الجنون بنا هذا الحد الفظيع » .

يقولون ان الحياة آلام ، انهم يقولون حقاً ، فلماذا لا يضعون حــداً لهذه الحياة ان لم يكن فيها سوى العذاب ؟ تلك تعاليم ترمي إلى وجوب الانتحار ، فيقول البعض وهو يدعو إلى الموت : ان الملاذ الجنسية خطيئة فيجب الامتناع عنها والاضراب عن التوليد . ويقول البعض الآخر : ان الولادة مؤلمة ، فعلام تلد النساء وهن لا يقذفن الى الوجود الا بالاشقياء ؟ وهــذه الفئة هي أيضاً من المنذرين بالفناء .

وتقول لك فئة أخرى : ان الرحمة لازمة فخذ ما نملك ، بل خذ ما تتكون شخصيتنا منه ، فان فعلت فانك تقطع الاسلاك التي تشد بنا الى الحياة . ولو ان رحمة هذه الفئة من الناس تتغلغل في صميم ذاتهم لكانوا يبذلون الجهد في سبيل دفع سواهم الى كره الحياة . ليستمر هؤلاء الناس على ما هم عليه ، لأن رحمتهم الحقيقية كامنة في ايقاع الأذى .

ان ما يقصد هؤلاء الناس انما هو التماص من تكاليف البقاء فلا يهمهم ان هم القوا باغلالهم على الآخرين .

وأنتم أيضاً أيها المتحماون من الدنيا همومها وجهودها المرهقة ، أفما تعبتم من الحياة ؟ أفما أنضجت المحن نفوسكم لتقوم هي أيضاً منذرة بالموت ؟

انتم يا من تحبون الأعمال الوحشية وكل حادث يتمعكم بكل جديد وغريب سريع الزوال ! لقد ضقتم ذرعاً بأنفسكم فما تتهالكون في العمل الا تهرباً من الحياة وطلباً للاستغراق لتصلوا بذاتكم الى نسيان ذاتها ولو كنتم أشد ايماناً بالحياة لما كنتم تستسلمون هذا الاستسلام الكامل لحاضركم ، لقد خلت سرائركم من القوة اللازمة للانتظار ، بل خلت مما يستلزم كسلكم نفسه من جلد .

ان صوت المنذرين بالموت يدوي في كل مكان ، والعالم مكتظ بمن وجبت دعوتهم الى الموت أو بالحري الى الحياة الابدية ، ولا فرق عندي بين ذاك وهذه اذا كان هؤلاء الناس يسارعون إلى اخلاء الأرض .

هكذا تكلم زارا ...

الحرب والمحاربون

لا نريد أن يراعينا خيرة أعدائنا ، كما لا نريد أيضاً أن يراعينا من نحبهم من صميم الفؤاد .

دعوني أعلن لكم الحقيقة .

إنني أحبكم من صميم الفؤاد أيها الرفاق في المعارك ، فما أنا الآن إلا ، كما كنت في الأمس ، جندي مثلكم ، فأنا إذن من خيار أعدائكم . دعوني اعلن الحقيقة لكم .

انني أعرف ما في قلوبكم من حقد وحسد ،فأنتم من العظمة بحيث لايمكنكم

أن تتجاهلوا الحقد والحسد، فلتكن عظمتكم رادعة لكم عن الخجل بما في قلوبكم.
وإذا امتنع عليكم أن تكونوا أولياء في معرفة الحق فكونوا على الأقل جنوداً يكافحون من أجل هذه المعرفة، وما المكافحون إلا طليعة الاولياء.

لقد كثر عدد الجنود فليتني أرى مثل هذا العدد من المحاربين، وعسى ألا تكون سرائرهم على طراز واحد كالالبسة التي يرتدونها.

لتكون أنظاركم منطلقة تفتش عن عدو لكم، وقد لاحت في لماتها بوادر البغضاء. عليكم أن تجدوا العدو لتصلوا معه حرباً تناضلون فيها من أجل أفكاركم حتى إذا سقطت هذه الأفكار في المعترك، ينتصب اخلاصكما هاتفاً بالظفر.

أحبوا السلام كوسيلة لتجديد الحروب، وخير السلام ما قصرت مدته. انني لا أشير عليكم بالسلم، بل بالظفر. فليكن عملكم كفاحاً وليكن سلمكم ظفراً.

لا اطمئنان في الراحة إذا لم تكن السهام مسددة على أقواسها. وما راحة الأعزل إلا مدعاة للثرثرة والجدال. فليكن سلمكم ظفراً ...

تقولون ان الغاية المثلى تبرر الحرب، أما أنا فأقول لكم ان الحرب المثلى تبرر كل غاية، فقد أتت الحروب والاقدام بعظائم لم تأت بمثلها محبة الناس، وما أنقذ الضحايا حتى الآن إلا اقدامكم لا اشفاقكم.

انكم تتساءلون عن الخير، وما الخير إلا الاتصاف بالشجاعة، فدعوا الاطفال يقلن: ان الخير في اللطف والجمال».

يقولون ان لا قلوب لكم، ذلك لأن قلوبكم تنبض بالاخلاص، وأنا أحب تواضعكم واخلاصكم. انكم تستحون لأن أمواجكم تندفع في مدها، وسواكم يخجل من تراجعها في جزرها.

ان قبحكم مريع، فتدثروا به أيها الاخوة، في دثار القبح ما ليس في سواه من الروعة والبهاء.

ان النفس لتقف صاخبة عندما تعتلي ، والقسوة كامنة في اعتلائكم ، فما خفيت حالكم عني . ففي ميـدان القسوة يلتقي الشديد العزم بمنهوك القوى فلا يمكنهما أن يتفاهما — انني أعرف من أنتم .

اذا ظفرتم بعدو فصبوا عليه بغضكم ، وحاذروا أن تصبوا عليه احتقاركم ، فما عدوكم الا مدعاة مباهاتكم ، فاذا عملتم بوصيتي يصبح انتصاره انتصاراً لكم أيضاً .

ان الثورة مفخرة للعبيد ، فليكن افتخاركم أنتم قائماً على طاعتكم . وليكن أمر الآمر فيكم جزءاً من هذه الطاعة نفسها . ان المحارب الصادق يفضل ما شب عليه على ما يريده فعليكم أن توجهوا ما تؤمرون به إلى هدف رغباتكم . وليكن حبكم للحياة تعبيراً عن أسمى أمانيكم ، ولتكن هذه الاماني عبارة عن أرفع فكرة في الحياة . ومـا أرفع فكرة لكم ، وأنا استميحكم ابداءهـا لكم كأمر ، إلا هذه القاعدة : « ما الإنسان إلا كائن يجب أن نتفوق عليه » .

على هذا الوجه تمر حياتكم بالطاعة والجهاد ، فما يهمكم أطالت الحياة أم قصرت فليس من محارب يطلب أن يعمل بالمراعاة .

لقد قلت لكم الحق بلا محاباة لأنني أحبكم من صميم الفؤاد ، أيهـا الاخوة في السلاح .

هكذا تكلم زارا ...

الصنم الجديد

لم يزل في بعض الأماكن من الأرض شعوب وجامعات ، أمـا نحن فليس عندنا سوى حكومات وما أدراكم ما هي الحكومات ؟

أعيروني أسمـاعكم لأخاطبكم عن موت الشعوب : ليست الحكومة إلا

أبرد مسخ بين المسوخ البـــاردة ، فهي تكذب بكل رصانة إذ تقول : « أنا الحكومة أنا الشعب » .

اياكم وتصديق ما تقول ، فمـــا كوّن الشعوب إلا المبدعون الذين نشروا الايمان والمحبة ، فأتوا بأجلّ خدمة للحياة . ومـــا الناصبون الاشراك للجموع الغفيرة إلا من يهدمون كيانها ليشيدوا الحكومات على أنقاضها ، ويعلقوا نصلاً قاطعاً فوق رأس الشعب ، وينصبوا مئات الشهوات أمام عينه .

ان الشعب ، حيث بقي له مرتع على الأرض ، لا يفهم مـــا هي الحكومة ، بـــل هو ينفر منها كما ينفر من العين الساحرة ، ويراها شذوذاً هادماً للشرائع والتقاليد . واليكم الدليل : ان لكل شعب بيانه عن الخير والشر ، وجيرة هذا الشعب لا تفهم هذا البيان الذي أوجده لنفسه محدداً به شرائعه وتقاليده ، على حين ان الحكومة تكذب في جميع تعابيرها عن الخير والشر ، فليس ما تقوله إلا كذباً ، وليس ما تملكه إلا نتاج سرقتها واختلاسها .

ان كل ما للحكومة مزيف ، فهي تنهش بأسنان مستعـــارة ، وأحشاؤها مختلقة اختلاقاً ، وما شعارها إلا « البيان المبهم المشوّش عن الخير والشر » ، فهي تتجه به نحو الفناء ، وتقوم بنشره بدعوة صريحة للمنذرين بالموت .

إن عدد من يدخلون الدنيا قد تجاوز الحد، وما أوجدت الحكومة إلا لخدمة الفضوليين الدخلاء على الحياة . أنظروا إلى هـــذه الحكومة كيف تجتذب اليها الدخلاء فتضمهم إلى صدرها وتشبعهم عناقاً وتقبيلاً . اسمعوها تهدر قائلة :

– ليس أعظم مني على وجه الغبراء ، فأنا يد الالوهية المنظمة .

وعندما تهتف هذا الهتاف ، تتهاوى الركاب جاثية ، وبين الراكعين كثير من غير طوال الآذان وقصار النظر .

ان هذه الاكاذيب تجد مصدّقين لها وا أسفاه حتى بينكم أنتم ، يا من تجول فيكم النفوس الأبية ، لأن الحكومة تعرف أن تدغدغ قلوبكم الطافحة بالمكارم

الطامحة إلى الجود، انها لتخترق سرائركم، أنتم أيضاً، يا من تغلبتم على الالوهية القديمة، فهي تعرف انكم تعبتم من الكفاح فتستخدم ملالكم لعبادة الصنم الجديد .

انه لصنمٌ يتمنى أن يحيط به الأبطال وفضلاء الرجال، انه لمسخ بارد يريد أن يدفأ بشمس الضمائر المشعة المشرقة .

انه ليمنحكم كل شيء إذا أنتم سجدتم له . فهذا الصنم الجديد يشتري لمان فضائلكم وما في لفتاتكم من عزة وكرامة . انـه في حاجة اليكم ليجتذب اليه العدد الفائض من الدخلاء على الحيـاة ، فهنالك البرج الجهنمي ، وهنالك جياد الموت تفرقع بعددها حـــاملة شارات المراتب والأمجاد ، أجل ذلك هو اختراع الموت أتى به للجموع ليحصدها حصداً وهـو يباهي بأنه هو الحياة ، والمنذرون بالموت يرون بفعلته خير خدمة لمبادئهم .

حيث يكرع الجميع السموم ويضيّع كل انسان نفسه صالحاً كان أو طالحاً ، هناك تقوم الحكومة لأنها تسود كل مكان يوصف فيه الانتحار البطيء بالحياة .

أنظروا إلى هؤلاء الدخلاء . انهم يختلسون ثمرة جهود المخترعين وكنوز الحكماء ويدعون هذا الاختلاس تمدناً ، غير ان كل شيء يصبح أدواء ومصاعب تحت سلطانهم . أنظروا إلى هؤلاء الدخلاء وليس فيهم إلا الأعـلاء ينفثون غسلين مرائرهم ، وينتحلون صفة الصحافيين ... انهم يتناهشون ويلتهم بعضهم البعض الآخر وليس لهم قوة على هضم ما يلتهمون .

أنظروا إلى هؤلاء الدخلاء، انهم يحشدون الأموال، وكلما ازدادت ذخائرهم زاد فقرهم ، فانهم يطمحون إلى الاستيلاء على القوة فيبدأون بالقبض على محركها الأول : على الأموال الطائلة ، وما هم إلا الدخلاء العاجزون .

أنظروا اليهم ! أنظروا إلى هؤلاء القرود يتسلق بعضهم البعض الآخر فيتدافعون متمرغين في الأوحال على الشفير . ان كلاً منهم يطمح إلى التقرب من العرش ،

وقد عراهم جنون التوصل اليه ، فكأن لا سعادة إلا على مقربة منه، وقد يرتفع رشاش الاوحال إلى العرش كما ينزلق العرش نفسه إلى الأوحال[1] .

انني أراهم وقد جن جنونهم ، قروداً لا تسكن لهم حركة وهم يتسلقون قاعدة صنمهم البارد وقد انبعثت منه ومنهم أكره الروائح وأخبثها .

أفيحلوا لكم ، أيها الاخوة ، أن يخنقكم ما يتبخر من أشواق هؤلاء المسوخ ؟ حطموا النوافذ واقفزوا منها لتنجوا بأنفسكم .

حاذروا هذه الأبخرة الخانقة وابتعدوا عن عبادة الاصنام فانها دين الدخلاء على الحياة . حاذروا هذه الابخرة واعرضوا عن هذه الضحايا البشرية .

لم يزل حتى الآن مجال تسعى في رحبه النفوس الكبيرة نحو الحرية في الحياة ، ولم تخل الارض من أماكن يلجأ اليها المنعزل منفرداً أو مزدوجاً حيث تهب نسمات البحر الهادئة . فان الحياة الحرة لم تزل تفتح أبوابها لكبار النفوس ، والحق ان من يملك القليل من حطام الدنيا لا يناله إلا اليسير من تحكم المتسلطين. فطوبى لصغار الفقراء !

لا يظهر الانسان الاصيل في الحياة إلا حيث تنتهي حدود الحكومات ، فهنالك يتعالى نشيد الضرورة بنغماته المحررة من كل مطاوعة وتقييد .

هنالك عند آخر حدود الحكومات ، قفوا وتطلعوا ، يا اخوتي ، أفما ترون تحت قوس قزح المعبر الذي يجتازه الانسان المتفوق ؟

هكذا تكلم زارا . . .

---

(١) لا يغرب عن القارىء الكريم ان نيتشه يعالج في هذا الفصل القضية الكبرى في مدنية الغرب . وقد نشأت من استخدام أصحاب الاموال لنتاج عبقرية المخترعين وجهود المكتشفين في سبيل حشد الثروات الطائلة والتسلط بها على الحكومات . وقد أصبحت مدنية الغرب من هذا الوضع الشاذ في حلقة مفرغة تبتدىء حيث تنتهي بين ملوك الحكومات وملوك المال وليس ، والحمد لله ، في الشرق أمثال لهؤلاء الملوك .

سارع إلى عزلتك ، يا صديقي ، فقد أورثك الصداع صخب عظماء الرجال، وآلمتك وخزات صغارهم . ان جلال الصمت يسود الغاب والصخور أمامك ، فعد كما كنت شبيهاً بالدوحة التي تحب ، الدوحة الوارفـــة الظل المشرفة على البحر مصغية في صمتها إلى هديره .

على أطراف حقول العزلة تبدأ حدود الميادين حيث يصخب كبار الممثلين ويطن الذباب المسموم . لا قيمة لخير الأشياء في العالم إن لم يكن لهـا من يمثلها ، والشعب يدعو ممثليه رجالاً عظاماً ، انه يسيء فهم العظمة المبدعة ، فيبتدع من نفسه المعاني التي يحمل بها ممثليه والقائمين بالأدوار الكبرى على مسرح الحياة .

إن العالم يدور دورته الخفية حول موجدي السنن الجديدة . وحول لاعبي الأدوار على مسرح الحيـــاة يدور الشعب وتدور الامجاد ، وعلى هذه الوتيرة يسير العالم .

إن للاعب الادوار ذكاءه ، ولكنه لا يدرك حقيقة هذا الذكاء لانصباب عقيدته إلى كل طريقـة توصله لخير النتائج وإلى كل أمر يدفع بالناس إلى وضع ثقتهم به .

غداً سيعتنق هذا الرجل عقيدة جديدة ، وبعد غـــد سيستبدل بها أجدّ منها . ففكرته تشبه الشعب تذبذباً وتوقداً وتقلباً .

ان ممثل الشعب يرى بالتحطيم برهانه ، وبايقاد النار حجته ، وباراقة الدماء أفضل حجة وأقوى دليل . انه ليعتبر هباء كل حقيقة لا تسمعها إلا الآذان المرهفة ، فهو عبد الآلهة الصاخبة في الحياة .

ان ميدان الجماهير يغص بالغوغاء المهرجين ، والشعب يفاخر بعظماء رجاله فهم أسياد الساعة في نظره ، ولكن الساعة تتطلب السرعة من هؤلاء الأسياد ،

فهم يزحمونك ، يا أخي ، طالبين منك اعلان رفضك/أو قبولك ، والويل لك إذا وقفت حائراً بين « نعم » وبين « لا » .

وإذا كنت عاشقاً للحقيقة فـلا يغرنك أصحاب العقول الرعناء المتصلبة ، وما كانت الحقيقة لتستند يوماً إلى ذراع أحد هؤلاء المتصلبين .

دع المشاغبين وارجع إلى مقرك، فما ميدان الجماهير إلا معترك يهدد سلامتك بين خنوع « نعم » وتمرد « لا » . ان تجمع المياه في الينابيع لا يتم إلا ببطء ، وقد تمر أزمان قبل أن تدرك المجاري ما استقر في أغوارها .

لا تقوم عظمة إلا بعيداً عن ميدان الجماهير وبعيداً عن الامجاد ، وقد انتحى الأماكن القصية عنها من أبدعوا السنن الجديدة في كل زمان .

اهرب ، يا صديقي ، إلى عزلتك . لقد طالت إقـامتك قرب الصعاليك والأدنياء . لا تقف حيث يصيبك انتقامهم الدساس وقد أصبح كل همهم أن ينتقموا منك . لا ترفع يدك عليهم فان عددهم لا يحصى ، وما قدر عليك أن تكون صياداً للحشرات . انهم لصغار أدنياء ولكنهم كثرة . ولكم اسقطت قطرات المطر وطفيليات الاعشاب من صروح شامخـات . ما أنت بالصخرة الصلدة ولشد ما فعلت بك القطرات، ولسوف يتوالى ارتشاقها عليك فتصدعك وتحطمك تحطيماً .

لقد أرهقتك الحشرات السامة فخدشت جلدك وأسالت منه الدماء ، وأنت تتحصن بكبرك لتكظم غيظك ، وهي تود لو انها تمتص كل دمك معتبرة ان من حقها أن تفعل لأن دمها الضعيف يطلب دماً ليتقوى ، فهي لا ترى جناحاً عليها إذ تنشب حمتها في جلدك . ان هذه الجروح الصغيرة لتذهب بالألم إلى مدى بعيد في حسك المرهف ، فتتدفق صديداً يرتعيه الدود . أراك تتعالى عن أن تمد يدك لقتل هذه الحشرات الجائعة ، فحاذر أن يحول سم استبدادها في دمك .

ان هـؤلاء المشاغبين يدورون حولك بطنين الذباب ، فهم يرفعون أناشيدهم

تزلفاً اليك ليتحكموا في جلدك ودمك . انهم يتوسلون اليك ويداهنونك كما يداهنون الآلهة والشياطين ، فيحتالون عليك بالملاطفة والثناء ، وما يحتال غير الجبناء .

انهم يفكرون بك كثيراً في سرهم فيلقون الشكوك عليك ، وكل من يفكر الناس به كثيراً تحوم حوله الشبهات .

انهم يعاقبونك على كل فضيلة فيك ولا يغتفرون لك من صميم فؤادها إلا ما ترتكب من الخطأ . انك لكريم وعادل ، لذلك تقول في قلبك : « ان هؤلاء الناس أبرياء وقد ضاقت عليهم الحياة » . لكن نفوسهم الضيقة تقول في نجواها :

«ان كل حياة عظيمة إنما هي حياة مجرمة» ويشعر هؤلاء الناس بأنك تحتقرهم عندما تشملهم بعطفك ، فيبادلونك عطفك بالسيئات. انك لتصدعهم بفضيلتك الصامتة فلا يفرحون إلا عندما يتناهى تواضعك فيستحيل غروراً . إن الناس يطمحون بالطبع إلى إلهاب كل عاطفة تبدو لهم، فاحذر الصعاليك لأنهم يحسون بصغارهم أمامك فيتحمسون حتى ينقلب احساسهم كرهاً وانتقاما .

أفما شعرت انهم يخرسون عندما تطلع عليهم ، فتبارحهم قواهم كما يبرح الدخان النار إذا اخمدت ؟

أجل يا صديقي ، ما أنت إلا تبكيت في ضمائر أبناء جلدتك لأنهم ليسوا أهلاً لك ، فهم لذلك يكرهونك ويودون امتصاص دمك .

ان ابناء جلدتك لن يبرحوا كالحشرات المسمومة لأن العظمة فيك ستزيد أبداً في كرههم لك .

إلى عزلتك ، يا صديقي ، إلى الاعالي حيث تهب رصينات الرياح ، فانك لم تخلق لتكون صياداً للحشرات .

هكذا تكلم زارا ...

احب الغاب ، فمــا تسهل حياة المدن علي وقد كثر فيها عبيد الشهوات الثائرات .

لخيرٌ أن يقع الرجل بين براثن سفاح من أن تحدق به أشواق امرأة جائعة ملتهبة .

انك إذا ما تفرست في رجال المدن ، لتشهد لك نظراتهم بأنهم لا يرون في الارض شيئاً يفضل مضاجعة امرأة ...

في أغوار أرواحهم ترسب الأقذار ، وأشقاهم من تمرغ عقله بأقذاره .

ليتك حيوان اكتملت حيوانيته على الأقل،ولكن أين منك طهارة الحيوان. ما أنا بالمشير عليك بقتل حواسك ، ان ما اوجبه انما هو طهارة هذه الحواس .

ما أنا بالمشير عليك بالعفة ، لأنهـا إذا كانت فضيلة في البعض فانها لتـكاد تكون رذيلة في الآخرين . ولعـل هؤلاء يمسكون عن التمتع ،غير ان شبقهم يتجلى في كل حركة من حركاتهم .

ان كلاب الشهوة تتبع هؤلاء المسكين حتى إلى ذرى فضيلتهم فتنفذ إلى أعماق تفكيرهم الصارم لتشوش عليه سكينته ، ولكلاب الشهوة من مرونة الزلفى ما تتوسل به إلى نيل قطعة من الدماغ المفكر إذا منعت قطعة اللحم عنها .

انكم تحبون المآسي وكل مــا يفطر القلوب ، أما أنا فلا اثق بكلاب شهواتكم لأن نظراتكم الرصينة تمتلىء شهوة عندما تقع على المتألمين،وقد تنكر الشبق فيكم فدعوتموه اشفاقاً . واني لأضرب لكم مثـلاً على هذا حالة العدد الوفير ممن أرادوا طرد الشياطين فدخلوا هم في الخنازير بدلاً منها .

إذا ما ثقلت العفة على أحد منكم فعليه أن يعرض عنهـا كيلا تنبسط أمامه سبيلاً إلى الجحيم ، جحيم أقذار النفس ونيرانها .

لعلكم ترون بذاءة في كلامي ، أما أنا فأرى البذاءة حيث لا ترونها أنتم . ليست البذاءة في قذارة الحقيقة ، بل هي في تدنيها وإسفافها ، وطالب المعرفة يأنف من الانحدار إلى مهاويها .

ان من الناس من دخلت العفة قلوبهم فلانت هذه القلوب لهـــا . أولئك هم الضاحكون وفي ابتسامهم ما ليس في ابتسامكم من إخلاص . انهم يهزأون ويتساءلون عما يمكن أن تكون .

أفليست العفة غروراً ؟ أفليست هي التي جاءت الينا ولم نذهب نحن اليها ؟

لقد فتحنا قلبنا لها فاستقرت ضيفاً ثقيلاً فيه ، فليبقَ هـذا الضيف نازلاً فينا ما طاب له المقيل .

هكذا تكلم زارا ...

الصديق

يقـول المنفرد في نفسه « لا اطيق وجود أحد بقربي » ولكثرة مـا يقف محدقاً في ذاته تظهر التثنية فيه ، ويقوم الجدال بين شخصيته وبين ذاته فيشعر بالحاجة إلى صديق . ومـا الصديق للمنفرد إلا شخص ثالث يحول دون سقوط المتجادلين إلى الأغوار كما تمنع المنطقة المفرغة غرق العائمين .

ان أغوار المنفرد بعيدة القرار ، فهو بحاجة إلى صديق له أنجـاده العالية ، فثقة الانسان بغيره تقوده إلى ثقته بنفسه ، وتشوقه إلى صديق ينهض أفكاره من كبواتها .

كثيراً مـا يقود الحب إلى التغلب على الحسد ، وكثيراً ما يطلب الانسان الاعداء ليستر ضعفه ويتأكد امكانه مهاجمة الآخرين .

من يطمح إلى اكتساب الصديق وجب عليه أن يستعد للكفاح من أجله ،

ولا يصلح للكفاح إلا من يمكنه أن يكون عـــدواً . يجب على المرء أن يحترم عداءه في صديقه ، إذ لا يمكن أن تقترب من قلب صديقك إلا حين تهـاجمه وتحارب شخصيته .

أنت تريد الظهور أمام صديقك على ما أنت عليه هاتكاً كل ستر عن خفايا نفسك ، فلا تعجب إذا رأيت صديقك يعرض عنك ويقذف بك إلى بعيد .

من لا يعرف المصانعة يدفـع بالناس إلى الثورة عليه ، فـاحذر العري ، يا هذا ، لأنك لست إلهاً ، والآلهة دون سواهم يخجلون من الاستتار .

عليك بارتداء خير لباس أمام صديقك ، لتهيب به إلى طلب المثل الأعلى : الانسان المتفوق .

أفما تفرّست يوماً في وجه صديقك وهـو نائم لترى حقيقته ؟ أفما رأيت ملامحه إذ ذاك كأنها ملامحـــك أنت منعكسة على مرآة مبرقعة معيبة ؟ أفما ذعرت لمنظر صديقك وهو مستسلم للكرى ؟

ما الانسان ، أيها الرفيق ، إلا كائن وجب عليه أن يتفوق على ذاته ، وعلى الصديق أن يكون كشافاً صامتاً ، فامسك عن النظر علناً إلى كل شيء ما دمت قادراً في غفلتك على كشف كل ما يفعله صديقك في انتباهه . عليك أن تحـل الرموز قبل أن تعلن اشفاقك ، فقد ينفر صديقك من الاشفاق ويفضل أن يراك مقنعاً بالحديد وفي عينيك لمعان الخلود .

ليكن عطفك على صديقك متشحاً بالقسوة وفيه شيء من الحقـد ، فيبدو هذا العطف مليئاً بالرقة والظرف .

كن لصديقك كالهواء الطلق والعزلة والغـذاء والدواء ، فان من الناس من يعجز عن التحرر من قيوده ولكنه قادر على تحرير اصدقائه .

دع الصداقة إذا كنت عبـداً ، وإذا كنت عاتياً فلا تطمح إلى اكتساب الاصدقاء .

لقد مرّت أحقاب طويلة على المرأة كانت فيهـا مستبدة أو مستعبدة فهي لم تزل غير أهل للصداقة ، فالمرأة لا تعرف غير الحب .

ان حب المرأة ينطوي على تعسف وعماية تجاه من لا تحب ، وإذا ما اشتغل بالحب قلبها فان أنواره معرضة أبداً لخطف البروق في الظلام ...

لم تبلغ المرأة بعد ما يؤهلها للوفاء كصديقة ، فمـا هي إلا هرّة ، وقـد تكون عصفوراً ، وإذا هي ارتقت اصبحت بقرة ...

ليست المرأة أهلاً للصداقة ، ولكن ليقل لي الرجال من هو أهل للصداقة بينهم ؟ ان روحكم وخساستها يستحقان اللعنة أيهـا الرجال ، لأن ما تبذلونه لأصدقائكم يمكنني أن أبذله لأعدائي دون أن ازداد فقراً .

انكم لا تتخذون إلا الأصحاب ، فأي متى تسود الصداقة بينكم ؟

ألف هدف وهدف

لقد شاهد زارا كثيراً من البـلدان وكثيراً من الشعوب ، فنفذ إلى حقيقة الخير والشر ، وعرف ان لا قوة في العالم تفوق قوتها .

تحقق إن ليس على الأرض من شعب تحـلو له الحياة دون أن يخضع النظم والسنن لتقديره ، وان كل شعب يرى من واجبه ، إذا أراد الحياة ، أن يجيء بتقدير يختلف عن تقدير من يجاوره من الشعوب . وهكذا كان ما يراه أحدهما خيراً يراه الآخر دناءة وعاراً .

ذلك ما عرفته ، فكم من عمل اتشح العيب في بلد ، رأيته مجللاً بالشرف والفخر في بلد آخر .

لم أر جـاراً تمكن من ادراك حقيقة جـاره ، بل رأيت كلاً منهما يعجب لجنون الآخر وقسوته .

لقد علق كل شعب فوق رأسه لوح شريعته ، وسطر عليه مـــا اجتاز من عقبات وما تضمر ارادته من عزم ، فمـــا تراءى له صعب المنال فهو موضوع تمجيده ، وما خيره إلا حـــاجة ملحة عز مطلبها ، فهو يقصد كل وسيلة تمكنه من الظفر بهذه الحاجة .

ان كل ما يوطد الحكم لهذا الشعب ، وكل ما ينيله النصر والمجد ويلقي الرعب في روع جاره مثيراً حسده انما هو في نظره ذو المكانة الاولى ، وما احتل المقام الاول في اعتباره يصبح مقياساً لجميع أموره ومعنى لجميع ما يحيط به ، فاذا ما تمكنت من الاطلاع على حاجات أي شعب وخبرت أرضه وجوّه وحالة جاره ، فانك لتدرك النواميس التي تتحكم فيه وتحفزه إلى المجالدة للغلبة على أهوائه ، ولتعرف السبب في اختياره مراقيه الخاصة يتدرج عليها لبلوغ أمانيه .

« عليك أن تكون سباقاً مجلياً في كل مضمار ، فلتتلفع نفسك بغيرتها كيلا تبذل الولاء إلا للصديق » .

انها لكلمات إذا وقعت في اذن يوناني ترتعش نفسه لهـا فيندفع إلى اقتحام الصعاب طلباً للمجد .

« قل الحق ، وكن ماهراً في تفويق سهامك من قوسك » .

انها لوصية صعبت وعزت على الشعب الذي اقتبست اسمي منه ، وفي هذا الاسم من المصاعب قدر ما فيه من أمجاد .

« اكرم أباك وأمك ، ولتكن باراً بهما من صميم قلبك » .

وهذه الوصية القائمة على ارغام النفس ، قد عمل بها شعب آخر فبلغ القوة وأصبح خالداً .

« كن أميناً وابذل للأمانة دمك وشرفك حتى ولو كان جهادك في سبيل ما يضير وما يورد المهالك » .

وهذه أيضاً وصية عمل بهـا شعب آخر ، فتغلب على ذاتـه وأصبح عظيماً تثقله الأماني الجسام .

لقد أقام الناس الخير والشر ، فابتدعوهما لأنفسهم ، ومـا اكتشفوهما ولا أنزلا عليهم بهاتف من السماء .

لقد وضع الانسان للامور أقدارها ليحـافظ على نفسه ، فهو الذي أوجد للاشياء معانيها الانسانية .

ما التقدير إلا الايجاد بعينه ، فاصغوا إليّ أيها الموجدون .

ما الكنوز والجواهر إلا أشياء أرادها تقديركم جواهر وكنوزاً ، فما القيمة إلا اعتبار ، ولولا التقدير لما كان الوجود إلا قشوراً لا نواة فيها . اسمعوا أيها الموجدون ان قيمة الأشياء تتغير تبعاً لتحول اعتبار الموجد ، ولا بـد لهذا الموجد من أن يهدم في كل حين .

لقد كانت الشعوب تتـوالى الايجاد في البدء حتى ظهر الأفراد الموجدون ، فما الفرد في الواقع إلا أحدث هيئات الوجود .

لقد أقامت الشعوب لنفسها قدماً شريعة خيرها ، وما نشأت هذه الشريعة إلا باتفاق المحبة التي طمحت إلى السيادة . والمحبة التي رضيت بالامتثال .

ان هوى المجموع أقدم من أهواء الفرد ، وإذا كان خير الضمائر مـا يكمن في المجموع ، فان شرها ما يتجلى في الفرد المعلن شخصيته .

والحق ان الشخصية المراوغـة التي لا محبة فيها ، الشخصية التي ترمي إلى الاستفادة من خير الأكثرية ، انما هي عنوان انحطاط المجموع لا مبدأ كيانه .

ما خلق الخير والشر في كل عصر إلا المتهوسون المبدعون ، وما أضرم نارهما إلا عاطفة الحب وعاطفة الغضب باسم الفضائل جمعاء !

لقد شاهد زارا كثيراً من الشعوب والبلدان فما رأى قوة على الأرض تفوق قوة المتهوسين ، والقوة معنى لكلمتي الخير والشر .

ما أشبه ما يستدعي التمجيد ويستوجب العقاب بالمسخ الهائـــل ، فمن له بسحق هذا المسخ ، أيها الاخوة ؟ من سيشد بالاغلال على ما يتلع هذا الحيوان من آلاف الاعناق ؟

لقد بلغت الأهداف الألف عـدداً إذ بلغ عدد الشعوب الفاً ، فنحن بحاجة إلى قيد واحد لألف عنق ، لأننا بحاجة إلى هدف واحد ، فالبشرية لم تعرف حتى اليوم لها هدفاً ، ولكن إذا كانت الانسانية تسير ولا غاية لهـا ، أفليس ذلك لقصورها وضلالها ؟

هكذا تكلم زارا ...

محبـة القريب

انكم لتعطفون على القريب ، وتعبرون عن عطفكم بترويق الكلام ، أما أنا فأقول لكم ان محبتكم للقريب ان هي إلا أنانية مضللة .

انكم تلجأون للقريب هرباً من أنفسكم ، وتريدون أن تعدوا هـذا العمل فضيلة ، وهل يخفي علي كنه تجردكم هذا ؟

ان المخاطَب أقدم من المتكلم ، فالأول مقدس أمـا الثاني فلم يقدس بعد . ذلك هو السبب في عطف الانسان على قريبه .

ان مـا اشير به عليكم هـــو أن تنفروا من القريب لا أن تحبوه وذلك لتتمكنوا من محبة الانسان البعيد ، فان مـــا فوق محبة القريب محبة الانسان البعيد المنتظر ، واني أضع فوق محبة الانسان محبة الأشياء والأشباح .

ان الشبح الذي يعدو أمامـــك ، يا صديقي لهو أجمل منك ، فلم لا تعير لحمك وعظمك ؟

لقـد استولى الخوف عليكم فلذلك تفزعون إلى القريب . لا قبل لكم

باحتمال أنفسكم وما حبكم بالحب الكامل ، لذلك أراكم تطمحون إلى اغواء قريبكم لتتمتعوا بضلاله .

اتمنى أن تنفروا من جميع فئات الأقربين ومن جيرتهم أيضاً لتضطروا إلى ايجاد الصديق الذي يطفح قلبه بالاخلاص. انكم لتدعون شهوداً عندما تريدون أن تغدقوا الثناء على أنفسكم ، وإذا ما توصلتم إلى تضليلهم ليحسنوا الظن بكم تبدأون حينئذ باحسان الظن بأنفسكم .

ما من أحد يرتكب الكذب إلا إذا تكلم ضد ضميره ، فأصدق الناس من لا ضمير له يحول دون قوله الصدق . على هذه القاعدة تتكلمون عن أنفسكم بين الناس لتضللوهم في حقيقتكم .

يقول المجنون في نفسه : « ان مخالطة الناس تفسد الاخلاق ، بل هيَ تفسد بخاصة من لا خلاق لهم » .

ان منكم من يهرع إلى جاره ليفتش عن نفسه ، ومنكم من يذهب اليه لينساها ، انكم تسيئون محبة أنفسكم ، لذلك يصبح انفرادكم بمثابة سجن لكم .

ان الغائبين يؤدون ثمن حبكم للقريب ، لأن خمسة يجتمعون منكم يقضون دائماً على السادس الغائب .

انني لا أحب أعيادكم ، إذ رأيتها مليئة بالممثلين ، ورأيت النظارة أبرع منهم تمثيلاً .

لا أدعوكم إلى محبة القريب ، بل أدعوكم إلى محبة الصديق . فليكن الصديق لكم مظهر حبور الأرض ، فتحسوا بما ينبئكم بالانسان المتفوق .

أوصيكم بالصديق يطفح قلبه اخلاصاً ، غير ان من يطمح إلى الظفر بمثل هذا القلب يجب عليه أن يكون كالاسفنجة قادراً على تشرب السائل المتدفق. اوصيكم بالصديق الذي يحمل عالماً في نفسه، فهو الصديق المبدع الذي يسعه أن يقدم لكم

هذا العالم في كل حين ، فيعرض عليكم ما مر به من عبر الحياة ، فتشهدون كيف يتحول الشر إلى خير ، وكيف تنتهي الصدف بكم إلى غاياتكم .

ليكن المستقبل والمقاصد البعيدة ما تصبو اليه في يومك ، فتحب في صديقك الانسان المتفوق ، وتضعه نصب عينيك كغاية جولودك .

لا اشير عليكم بمحبة القريب أيها الاخوة ، بل بمحبة الآتي البعيد .

هكذا تكلم زارا ...

طرق المبـــدع

أتقصد العزلة يا أخي لتجد الطريق التي توصلك إلى مكمن ذاتك ؟ إذن ، فقف قليلاً في تردد واصغ إلي :

لقد قال القطيع : « من فتش فقد تاه ، ومن انعزل فما أمن العثار » .

وأنت قد عشت طويلاً بين هـذا القطيع ، ولسوف يدوي صوته ملياً في داخلك . فاذا قلت له : — لقد تغير ضميري جانحاً عن ضميرك — فلن تكون إلا شاكياً متألماً .

ان اشتراكك بالشعور مع القطيع قد أورثك هذا الألم ، وآخر وهج من هذا الضمير المشترك لا يزال يلهب فجيعتك فيجددها . ولكنك ترغب في اتباع هاتف آلامك لأنه يقودك إلى التوغـل في ذاتك ، فأين برهانك على حقك في المضي اليها وعلى انك قادر على هذا السفر ! أفأنت قوة جديدة وحق جديد ؟ أأنت حركة ابتداء ؟ أأنت عجلة تدور على ذاتها ؟ أبوسعك أن تجعل النجوم تدور حولك ؟ لكم من طموح يتحفز نحـــو الأعالي ، ولكم من طمع يرتعش في امانيه ، فأثبت لي انك لست من الطامحين الطامعين .

ان كثيراً من ساميات الأفكار لا تعمـل إلا عمل الأكر المنتفخة فـلا تكاد تنخضم حتى يحكمها الضمور .

انك تدعو نفسك حراً ، فقل لي ما هي الفكرة التي تقيمها مبدأ لك . ولا تكتفِ بقولك انك خلعت نيرك . فهل كنت يا ترى ذا حق بخلعه ؟ ان من الناس من يفقدون آخر مزية لهم إذا هم انعتقوا من عبوديتهم .

لا يهم زارا أن تقول له من أية عبودية تحررت ، فلتعلن له نظراتك الصافية الغاية التي تحررت من أجلها .

هل بوسعك أن تسن لنفسك خيرها وشرها فترفع ارادتك شريعة تسود أعمالك ؟ أبوسعك أن تكون قاضياً على نفسك وأن تكون منتقماً منها لشريعتك ؟ انه لأمر مريع أن يبقى الانسان منفرداً مع من أقامه قاضياً على نفسه ومنتقماً منها بالشريعة التي أوجدها . ان مثل هذا الانسان ليذهب في الفضاء ذهاب الكوكب مقذوفاً إلى فراغ الوحدة وصقيعها .

انك وقد أصبحت منفرداً لا تزال تتألم من المجتمع لأنك لم تطرح شجاعتك ولم يزل للأمل مرتع فيك . غير انك ستتعب من انفرادك يوماً ، إذ تلين قناتك وينحطم غرورك فلا تتمالك من الهتاف قائلاً : انني أصبحت وحيداً فريداً .

سيأتي يوم تحتجب فيه عظمتك عنك فيلتصق صغارك فيك حتى لترتجف فرقاً من تساميك نفسه إذ يبدو أمامك كشبح مرعب فتصرخ قائلاً : « كل شيء باطل » .

ان في المنفرد عواطف تطمح إلى القضاء عليه ، فان لم تنل منه نالت من نفسها وانتحرت . فهل أنت مستعد لارتكاب جريمة القتل ؟

أتعرف ، يا أخي معنى كلمة الاحتقار ، وما ستكون آلامك إذا أنت أردت العدل واضطررت إلى الاقتصاص ممن يحتقرونك ؟

انك تكره الكثيرين على تغيير اعتقادهم فيك ، فتثير حفيظتهم عليك . لقد اقتربت منهم ثم تجاوزتهم ، فهم لذلك لن يغفروا لك .

لقد تفوقت عليهم ، فكلما اعتليت فوقهم ازددت صغاراً في أعين الحاسدين. وما كره الناس أحداً كرههم للمحلق فوق السحاب .

لقد وجب عليك أن تقول للناس : انني اخترت ظلمكم نصيباً حق لي منكم لذلك عز انصافي عليكم . ان الناس يرشقون المنفرد بالمظالم والمثالب ، ولكنك إذا كنت تريد أن تصبح كوكباً فعليك أن ترسل انوارك حتى إلى الراشقين .

واحترس بخاصة من أهل الصلاح والعدل لأنهم يتوقون إلى صلب من يوجد فضيلة لنفسه . انهم يكرهون المنفرد .

واحترس أيضاً من السذاجة المتقية ، لأنها ترى في كل انسان لا يلتصق بها . وقد كان الساذجون في كل مكان يتوقون إلى ايقاد النار واللعب بها .

كن على حذر من التطرف في حبك ، فان المنفرد يمد يده متسرعاً لمصافحة من يلتقي في طريقه . ان من الناس من يجب عليك ألا تمد اليهم يداً ، بل مخلباً ناشباً .

غير ان أشد من تصادف من الأعداء خطراً انما هو أنت وما يترصدك في المغاور والغابات إلا نفسك .

لقد تبيّنت الطريق الذي يقودك إلى ذاتك ، أيها المنفرد ، وطريقك منبسط أمامك وأمام شياطينك السبعة . فستصبح منذ الآن جاحداً لنفسك ، ساحراً مجنوناً مشككاً كافراً شريداً . فيجب عليك أن ترضى بالاحتراق بلهبك إذ لا يمكنك أن تتجدد ما لم تشتعل حتى تصبح رماداً .

انك تتبع طريق الخالق ، أيها المنفرد ، فأنت تفتش عن إله لك تقيمه من شياطينك السبعة . انك تتبع طريق العاشق ، أيها المنفرد ، وقد عشقت نفسك فأنت لذلك تحتقرها احتقار العاشقين .

يريد العاشق أن يبتدع لأنه يحتقر ، وما له أن يدعي الحب إذا كان لم يبدأ باحتقار المحبوب .

توغل في عزلتك يا أخي . سر فلا رفيق لك إلا حبك وابداعك . انك ستسير طويلاً قبل أن تقفو العدالة أثرك متثاقلة متعارجة .

اذهب الى عزلتك فانني اشيعك بدموعي يا أخي ، لأنني احب من يتفانى ليوجد في فنائه من يتفوق عليه .

هكذا تكلم زارا ...

الشيخة والفتاة

« لماذا تدلج مختفياً في الغسق يا زارا ؟ وما هو الذي تخفيه بكل احتراس تحت ردائك ؟ أكنز وهبته أم طفـل رزقته ؟ والى أين تتجه على طريق اللصوص يا صديق الاشرار ؟ » .

فأجاب زارا : — والحق يا أخي ان ما أحمل هو كنز وهبته ، فهو حقيقة صغيرة طائشة كالطفل ، ولولا انني كممت فمها لصاحت بملء شدقيها .

بينما كنت اسير اليـوم منفرداً في طريقي عند الغروب ، التقيت بشيخة ناجتني قائلة :

لقد كلمنا زارا مراراً نحن النساء ، ولكنه لم يتكلم عنا مرة واحدة .

قلت لها : يجب الا يتكلم الرجل عن النساء إلا للرجال .

فقـالت : لك أن تتكلم أمامي عن النسـاء لأنني بلغت من العمر أرذله فلن تستقر أقوالك في ذهني .

وقبلت رجاء المرأة العجوز فقلت لها : — كل ما في المرأة لغز ، وليس لهذا اللغز إلا مفتاح واحد وهو كلمة « الحبَل » .

ليس الرجل للمرأة إلا وسيلة ، أما غايتها فهي لولد ، ولكن ما تكون

المرأة للرجل يا ترى ؟ ان الرجـل الحقيقي يطلب أمرين : المخاطرة واللعب ، وذلك ما يدعوه إلى طلب المرأة ، فهي أخطر الألعاب .

خلق الرجل للحرب ، وخلقت المرأة ليسكن الرجل اليها ، وما عدا ذلك فجنون ، ولا يحب المحارب الثمرة إذا تناهت حلاوتها ، فهو لذلك يتوق إلى المرأة لأنه يستطعم المرارة في أشد النساء حلاوة .

تفهم المرأة الطفل بأكثر مما يفهمه الرجل ، غير ان الرجل أقرب إلى خُلق الطفل من المرأة ، ففي كل رجـــل حقيقي يحتجب طفل يتوق إلى اللعب . فلتعمل النساء على اكتشاف الطفل في الرجل .

لتكن المرأة لعبة صغيرة طاهرة كالماس تشع فيها فضائل العالم المنتظر .

لينوهج الكوكب السني في حبـــك أيتها المرأة ، وليهتف شوقك قائلاً : لأضعن للعالم الانسان المتفوق . ليكن في حبك استبسال تتسلحين بـه لاقتحام من يثير الوجل في قلبك . ضعي شرفك في حبك، وما تعرف المرأة من الشرف إلا يسيراً ، غير ان الشرف في حبك هو الخلق الذي يجملك تبادلين المحبة بأكثر منها فلا تنحدرين إلى المقام الثاني .

ليحذر الرجل المرأة عندما يستولي الحب عليهـا ، فهي تضحي بكل شيء في سبيل حبها ، إذ تضمحل في نظرهـا قيم الأشياء كلها تجاه قيمته . ليحذر الرجل المرأة عندما تساورها البغضاء لأنه إذا كان قلب الرجل مكمناً للقسوة ، فقلب المرأة مكمن للشر .

إلى من توجه المرأة بغضائها ؟

والجواب في قول الحديد للقوة الجاذبة :

ان أشد كرهي موجه اليكِ لأنك تجتذبين وليس فيك من طاقة تربط على ما تجتذبين

ان سعادة الرجل تابعة لارادته، أما سعادة المرأة فمتوقفة على ارادة الرجل.

تقول المرأة وقد استسلمت لحبها العميم : لقد اكتمل العالم .

ولا بد لها أن تخضع وأن ترى أعماقاً على سطحها ، لأن روح المرأة سطحية فهي صفحة ماء متماوجة تداعبها الرياح ، في حين ان روح الرجل أعماق تزمجر أمواجها في المغـاور السحيقة القرار ، وقد تشعر المرأة بقوة الرجل ولكنها لن تفهمها .

عندئذ قالت العجوز : لقد تكلم زارا عن أشياء طريفة أجدر بسماعها من النساء مَنْ لم يزلن في مقتبـل العمر . ومن الغريب أن ينطق زارا بالحق عن النساء وهو لا يعرفهن إلا قليلاً . أفتكون إصابته ناشئة عن ان ليس في حالة المرأة شيء ممتنع ؟

والآن اصغ إلي يا زارا ، فانني سأعلن لك حقيقة صغيرة مكافأة على مـا قلت ، وكبر سني يجيز لي أن اعلن لك ، فاسترعها واطبق شفتيك عليها لئلا يتعالى صراخها من فمك .

فقلت هاتها ، هذه الحقيقة الصغيرة أيتها المرأة وهذا ما قالت العجوز :

إذا ما ذهبت إلى النساء فلا تنس السوط .

هـكذا تكلم زارا ...

لسعة الأفعـى

واستسلم زارا الكرى يوماً تحت شجرة التين، وكان الحر شديداً فستر وجهه بساعده فأتت أفعى ولسعته في عنقه فصرخ متألماً وانتفض محدقاً بها فعرفت عينيه وتململت لتنصرف ، فقال لهـا زارا : — « لا تذهبي قبل أن أقدم لك شكري ، لأنك نبهتني في الزمن المناسب لأقوم بسفر بعيد » .

فأجابت الأفعى وفي صوتها غنة الأسى : — بل سفرك قريب فزُعافي قاتل .

وابتسم زارا وقال : وهل لزعاف الأفعى أن يقتل تنيناً ؟ خذي سمك ، اذني أعيده اليك فلستِ من الغنى ما يسمح لك بتقديمه هدية لي .

وسارعت الافعى للالتفاف حول عنق زارا تلحس جرحه .

وقص زارا هذه الحادثة يوماً على أتباعه فقالوا له وما هو المغزى الأدبي لهذه القصة ؟ فأجاب : — ان أهل الصلاح والعدل يدعونني هداماً للمبادىء الأدبية فقصتي لا تتفق وهذه المبادىء .

إذا كان لكم عدو فلا تقابلوا شره بالخير لأنه يستصغر بذلك نفسه ، بل أكدوا له انه أحسن بعمله اليكم ، والأجدر بكم ألا تحتقروا أحداً ، تظاهروا بالغضب ، وإذا وجهت اللعنة اليكم ، فلا يسرني أن تمنحوا البركة ، ان ما يسرني هو ألا تأبوا اللعن أنتم أيضاً ، وإذا ما أنزلت بكم مظلمة كبيرة فبادلوا المعتدي مثلها وارفقوها بخمس مظالم صغرى ، لأنه ما من مشهد أشد قبحاً من مشهد من لا يخضع إلا للظلم .

إن اقتسام المظالم بالتساوي انما هو مساواة بالحق ، فهل كنتم تعرفون هذا من قبل ؟ من يقدر على ارهاق الناس بظلمه فعليه أن يحتمل هو الظلم أيضاً .

لئن ينتقم الانسان قليلا ، فذلك أدنى من المعروف ، وليس من الانسانية أن يترفع المظلوم عن الانتقام . انني لأنفر من اقتصاصكم إذا لم يكن عبارة عن حق تؤدونه للمعتدي ، فان من يسند الخطأ إلى نفسه لأنبل ممن يعلنون في كل آن الحق في جانبهم ، وأخص من هؤلاء من كانوا حقيقة على صواب . ان اغنياء الروح لا يفعلون هذا .

انني أكره عدالتكم الباردة ، فان في عيون قضاتكم ازورار الجلاد ولمعان سيفه . فأين العدالة تلمح في عينيها الصفاء ؟ أوجدوا لي الحب الذي لا يكتفي بحمل كل أنواع العقاب ، بل يحمل أيضاً جميع الخطايا .

اوجدوا لي العدل الذي يبرىء الجميع ليحكم على الانسان الذي يدين .

أتريدون أن أذهب لأبعد مما قلت فأعلن لكم ان الكذب نفسه يصبح محبة للانسانية في نفس من يتوق إلى اقامة العدل .

ولكن هل بوسعي أن اقيم العدل بكل اخلاص ؟ وكيف يمكنني أن أتوصل إلى اعطاء كل ذي حق حقه ؟ اذن ، لأكتفين بأن اعطي أصحاب الحق حقي الخاص .

وأخيراً حاذروا ظلم المنفرد ، إذ ليس بوسعه أن ينسى وأن يبادل الظالمين ظلماً ، وما المنفرد إلا بئر عميقة يسهل على من يشاء أن يلقي فيها حجراً . ولكن من يقدر أن يستخرج هذا الحجر إذا بلغ قعر البئر السحيق ؟.

احترسوا من اهانة المفرد ، وإذا أنتم حقرتموه فاجهزوا عليه بقتله .

هكذا تكلم زارا ...

الطفل والزواج

لي سؤال اخصك به لأسبر أعماق روحك يا أخي :

– أنت في مقتبل العمر وتتمنى أن يكون لك زوجة وولد ، ولكن قل لي هل أنت الرجل الذي يحق له هذا التمني ؟ أأنت الظافر المنتصر على نفسه ، الحاكم على حواسه ، السائد على فضائله ؟ أم ان تمنيك هذا ليس إلا شهوة حيوان أو خشية منفرد أو اضطراب من قام النزاع بينه وبين نفسه ؟

ان ما أريده منك هو أن تتوق بانتصارك وحريتك إلى التجدد بالولد . إذ عليك أن تقيم الانصاب إلى ما فوق مستواك . وهل بوسعك أن تفعل إذا لم تكن متين البنية من رأسك إلى أخمص قدميك ؟

ليس عليك أن ترسل سلالتك إلى الأمام فحسب ، بل عليك بخاصة أن ترفعها إلى ما فوق . فليكن عملك في حقل الزواج منصباً إلى هذه الغاية .

عليك أن توجد جسداً جوهره أنقى من جوهر جسدك ليكون حركة أولى وعجلة تدور لنفسها على محورها ، فواجبك إذاً إنما هو ابداع من يبدع .

ما الزواج في عرفي إلا اتحاد ارادتين لإيجاد فرد يفوق من كان علة وجوده فالزواج حرمة متبادلة ترسو على احترام هذه الارادة .

ليكن هذا معنى زواجك وحقيقته ، أما ما يدعوه الدخلاء الاغبياء فأمر أحار في تعريفه ، فما هو إلا مسكنة روحية يتقاسمها اثنان ، ودنس يتمرغ به اثنان ، ولذة بائسة تتحكم في اثنين . ولكن الدخلاء يرون في مثل هذا الزواج رباطاً عقدته السماء .

وما أنا بالمرتضي بمثل هذه السماء، سماء الدخلاء أطبقت شباكها عليهم، تباً لهم، وسحقاً لمثل هذا الاله الذي يتقدم متراجعاً ليبارك اثنين لم يجمع هو بينهما .

لا يضحكنكم هذا الزواج ، فكم من طفل من حقه أن يبكي على أبويه !

رأيت رجلاً وقوراً فحسبته بالغاً من النضوج ما يدرك به معنى الأرض ، ولكنني رأيت امرأته بعد ذلك فلاحت لي الأرض كأنها مأوى المجانين . اود لو تميد الأرض بي عندما أرى رجلاً فاضلاً يتخذ له زوجة حمقاء .

من الناس من يتجرد كالأبطال سعياً وراء الحقائق ، فلا يلبث أن يصطاد رباطاً مزيفاً يدعوه زواجاً . ومنهم من يشتهر بحذره في علاقاته وبصرامته في اختياره ، فاذا هو بين ليلة وضحاها قد افسد حياته ووقف يدعو هذا الافساد زواجاً . ومنهم أيضاً من كان يفتش عن خادمة لها فضائل الملائكة ، فاذا هو ينقلب فجأة خادماً لامرأة ، وقد حق عليه أن يتصف هو بالفضائل الملائكية .

فتشت في كل مكان فما رأيت إلا مشترين يقبلون السلع وعيونهم تتدفق مكراً .

ولكن أمر هؤلاء الناس لا يتوصل في آخر الامر إلى ابتيـاع هرة يدسها في جلبابه .

إنما ما تدعوه عشقا إنما هو جنون يتتالى نوبة بعد نوبة حتى يجيء زواجكم خاتما هذه الحماقات بالحماقة المستقرة الكبرى . ويا ليت حب الرجل للمرأة وحب المرأة للرجل كانا إشفاقا يتبادله إلهـان يتألمان . ولكن هذا الحب لا يتجلى في الغالب إلا تفاهما بين احساس حيوانين . ومـا خير الحب لو تعلمون إلا تحوّل واضطرام في ألم وخشوع ، ان هـو إلا المشعل ينير أمامكم مسالك الاعتلاء . وسيأتي يوم يتجه فيه حبكم إلى مقر أبعد وأرفع من مستقر ذاتكم. لقد بدأتم بتعلم الحب ، لذلك ترتشفون الآن المرارة الطافية كالحبب على كأسه .

ان في كأس كل حب اطلاقـا وحتى في كأس أرقى حب ، مرارةً لا بد لكم من تجرعها ، وهذه المرارة هي التي تنبه فيكم الشوق إلى الانسان المتفوق وتلهب فيكم الظمأ اليه ، أيها المبدعون . إذا كان هـذا الظمأ هو الذي يدفع بك إلى طلب الزواج يا أخي ، وإذا كنت تشعر بشوقك يندفـع كالسهم نحو الانسان المتفوق فانني اقدس ارادتك واقدس زواجك .

هكذا تكلم زارا ...

تخير المـوت

كثير من يتأخرون في موتهم ، وكثير من يبكرون . فاذا قال قائل للناس بالموت في الزمن المناسب ، رفعوا عقيرتهم مستغربين. وزارا يعلم الناس أن يموتوا في الزمن المناسب . ولكن أنى لمن يعرف الحياة أن يتخير الموت في أوانه ؟

أفما كان خيراً للدخلاء على الحياة لو انهم لم يولدوا ؟ ولكن هؤلاء الدخلاء يريدون ان يولي الناس أهمية كبرى لموتهم ، وكم من نواة تباهي بانها كسرت وهي جوفاء .

انهم يعلقون أهمية على الموت لأنهم ما عرفوا بهجة الموت ، فالناس لم يعرفوا حتى اليوم كيف يقدسون أبهج الأعيـاد . ولسوف انبئكم بالموت الذي يقدس ، الموت الذي يدفع الأحياء ويجتـذبهم بحوافزه وآماله . ان من أكمل عمله يموت ظافراً وحوله من يحفزهم الأمل وتنطوي فيهم الأماني . تعلموا أن تموتوا هكذا ، ولكن اعلموا ان لا ظفر لمن يموت إذا هو لم يبارك ما أقسم الاحياء باتمامه .

تلك هي الميتة الفضلى ، تليهـا في المراتب ميتة من يسقط في المعركة وهو ينشر عليها عظمة روحه . غير ان ما يحتقره المجاهدون والظافرون على السواء انما هو ميتتـكم الشوهاء التي تزحف لصاً وتتقدم آمراً مطاعاً .

ما أجمل ميتتي إذا أنا تخيرتها فجاءتني لأنني أطلبها .

ولكن متى يجدر بالانسان أن يطلب الموت ؟

إن من يتجه إلى مقصد في الحياة وله وريث ؛ وجب عليه أن يتمنى الموت في الزمن المناسب لغايته ولوريثه ، لأنه يأنف حرمة لها من أن يلقي بالأكاليل الذابلة على هيكل الحياة .

انني لا اريد أن احبك الخيوط وانسحب إلى الوراء كمن يفتلون الحبال .

من الناس من لا يتجاوزون بأعمارهم الحد اللائق بالحقائق والظفر ، وخليق بالفم المجرد عن أسنانه ألا يتناول ببيانه جميع الحقائق . على الطامحين إلى الظفر أن يودعوا الأمجـــاد في الزمن المناسب ليتمرنوا على فن الرحيل عن الدنيا في الزمن المنـاسب أيضاً ، ومن واجب المرء أن يتوقف عن عرض نفسه للآكلين عندما يكفرن عن تذوقها ، ولا يعرف هذه الحقيقة إلا من يود الاحتفاظ بمحبة من حوله .

ولكن من الأثمار كالتفـاح من تقضي طبيعته الحامضة عليه أن ينتظر النضوج إلى آخر أيام الخريف، فاذا هو ماثل للنظر باصفرار الشيخوخة وتجاعيد أساريرها .

ومن الناس من يدب الهرم إلى قلوبهم أولاً ، ومنهم من يدب الهرم إلى عقولهم ، ومنهم من يشيخون في ربيع الحيـــاة ، غير ان من يبلغ الشباب متأخراً يحتفظ بشبابه أمداً طويلاً .

ومن الناس من ضلوا السبيل في حياتهم ، فأضاعوا عمرهم ، فعلى هؤلاء ان يعملوا على بلوغ التوفيق في موتهم على الأقل .

وهنالك أثمار لاتنضج لأنها تتهرأ في الصيف ولكنها تبقى معلقة بأغصانها لأن جبنها يصدها عن السقوط. وهكذا نرى في العالم اناساً يلتصقون التصاقاً بأغصانهم، فهل من عاصفة تهب على الشجرة لتسقط ما عليها من أثمار تهرأت ورعى الدود قلبها ؟ ليتقدم دعاة الموت العاجل وليهبوا كالعاصفة على دوحة الحياة ، غير انني لا أرى غير دعاة للموت البطيء يعظون بالصبر واحتمال كل مصائب الأرض .

انكم تدعون إلى مكابرة الأرض ومجالدتها ، أيها المجدفون ، والأرض صابرة عليكم صبرها الجميل .

والحق ان ذلك العبراني الذي يمجده المبشرون بالموت البطيء قد مات قبل أوانه ، ولم يزل جم غفير يعتقد بأن ميتته المبكرة كانت مقدورة عليه .

وما كان هذا المسيح العبراني قد عرف غير دموع قومـه وأحزانهم وكيد أهل الصلاح والعدل ولذلك راودته فجأة شهوة الفناء .

ولو انه بقي في الصحراء بعيداً عن أهل الصلاح والعدل لكان تعـلم حب الحياة وحب الأرض ، ولكان تعلم الضحك أيضاً .

صدقوني ، أيها الاخوة ، إن المسيح قد مات قبل أوانه ، ولو انه بلغ العمر الذي بلغت ، لكان جحد تعاليمه ، وقـــد كان له من النبل ما يكفيه لاقتحام العدول عنها ، ولكنه لم يبلغ النضوج ، ولم تبلغه المحبة في الشباب، فكره الناس

وكره الأرض . وهكذا بقيت روحه مثقلة ولم ينشر جناحه المهيض[1] .

إن في الرجل من الطفولة مـا ليس في الشاب ، فالرجل الناضج أقل حزناً وأقدر على فهم الحيـاة والموت لأنه يشعر بحريته للموت وبحريته في الموت ، وإذا امتنع عليه أن يثبت شيئاً أنكره .

حاذروا أن يكون موتكم تجديفـاً على الارض والانسان أيها الصحاب . تلك هي النعمة التي استجديها من وداعة روحكم .

ليرسل فكركم وفضيلتكم آخر أشعتها في احتضاركم كما ترسل الشمس الغاربة آخر أنوارهـا على الأرض ، وإلا فـان ميتتكم ستكون فاشلة . إنني هكذا أريد أن أموت ليزداد حبكم للأرض من أجلي ، ايها الاصحاب . أريد أن أعود إلى الارض التي خلقت منها لأجد الراحة في أحضانها .

لقد كان زارا يرمي إلى هدف وقد اطلق سهمه الآن فارموا إلى هذا الهدف بعدي ، لأنني من أجلكم أطلقت سهمي الذهبي . فما اشتهي شيئاً اشتهائي أن أراكم تطلقون سهامكم الذهبية أيضاً ، ولسوف أبقى على الأرض قليـلاً لأمتع عيني بهذا المشهد ، فاغتفروا لي هذا التخلف إلى حين .

هكذا تكلم زارا ...

---

(١) يعترف زارا بأن عيسى عرف دموع الشعب المظلوم وغطرسة من يدعون الصلاح والعدل ، فماذا يراد منه أن يعرف بعد ، وليس من قضية اجتماعية تخرج عن حـدي دمعة الضعيف وكيد المستقوين في الحياة .

كان زارا يريد أن يبلغ عيسى ما بلغه هو من العمر ليجحد تعاليمه ويطلق جناحي نفسه فيحب الانسان والأرض ، فهـل بلغ أحد من مصلحي الانسانية (باعتبـار القضية الاجتماعية مستقلة جدلاً عن المسألة الروحية) مـا بلغه العبراني والعربي بعـده من حب الانسانية والتضحيات في سبيل اصلاح الحياة ؟

وهل لنيتشه أن يدعي انه اتى بشيء جديـد في فلسفته عند تصويره مبادىء الحياة ؟ أفليس كل ما أصاب فيه مستمداً مما أوحى إلى رسل الله وانبيائه الاطهار ؟ أفليس كل مـا ضل فيه ناشئاً عن محاولته الاستغناء عن أنوار هذا بالوحي ؟..

الفضيلة الواهبة

١

وبعد ان ودع زارا مدينة (البقرة الملوّنة) التي شغف قلبه بهـا ، شيعه عدد غفير ممن كانوا يدعون أنفسهم أتباعه حتى بلغوا إلى منعطف الطريق فقال زارا انه يريد متابعة سيره وحده . فودعه أتباعه وقدموا اليه عصا قبضتها من ذهب بشكل أفعى ملتفة حول الشمس ، فسر زارا من هذه الهدية واتكأ على العصا قائلاً لاتباعه :

قولوا لي ، لمـاذا أصبح الذهب ذا قيمة ؟ أليس لأنه نادر ولا فائدة منه ، ولأنه وديع في لمعانه ، ويبذل نفسه في كل حين ؟ لم يبلغ الذهب أسمى مراتب الأشياء القيمة إلا لأنـه رمز لأسمى الفضائل ، فعين الواهب براقة كالذهب ، ووهج الذهب رسول السلام بين النيّرين .

ان أسمى الفضائل نادرة ولا نفع منهـا ، فهي تتوهج بنورها الهادىء ، وليس بين الفضائل من يطاول فضيلة السخاء .

والحق ، انني شاعر برغبتكم، أيها الصحاب ، فانكم تطمحون مثل طموحي إلى الفضيلة الواهبة ، فأنتم تريدون أن تحولوا نفوسكم إلى هبات وعطايا ، وإلا لكنتم أشبه بالهررة والذئاب ، ولهذا تتعطشون إلى حشد جميع الكنوز لأنها ظامئة أبداً إلى العطاء . انكم تجتذبون كل مـا حولكم ليتسرب إلى داخلكم فينفجر ينبوعكم بها كأنها هبة من محبتكم .

ان المحبة السخية الواهبة تستحيل إلى لص يمد يده إلى جميع الاشياء القيمة، وما أرى هذه الأنانية إلا عملاً صالحاً مقدساً .

غير أن هنالك أنانية أخرى تدهورت إلى أدنى دركات المسكنة في مجاعتها المتحكمة أبداً فيها ، تلك هي الأنانيـة التي تطمح إلى السرقة في كل آن ، فهي

أنانية المرض بـل هي الانانية المريضة ، تحدج كل شيء بنظرات اللص وبنهم الجائع ، فتزن لقيمات الآكلين من أبناء النعمة وتدب أبداً حول موائد الواهبين. وما مثل هذه الشهوة إلا عرض الداء الدفين ودليـل الانحطاط الخفي ، وما الطموح إلى السرقة بمثل هذه الانانية إلا نزعة من نزعات الجسوم العليلة .

أي شيء نراه أقبح الاشياء ، أيها الاخوة ، أفليس الانحطاط أقبحها ؟ وهل يسعكم إلا أن تحكموا بانحطاط مجتمع لا أثر لروح السخاء والعطاء فيه ؟

ان سبيلنا يتجه الى الاعالي ، وما نقصده إنما هو الارتقاء من نوع إلى نوع، لذلك نرتعش عندما نسمع الانحطاط يهتف قائلاً : لي كل شيء .

وهل روحنا إلا رمز لجسدنا وهي تطمح إلى الاعتلاء ، وهل الصفات التي ندعوها فضيلة إلا عبارة عن هذه الرموز عينها ؟

ان الجسد يقطع مسافات التاريخ بكفاحه ، ولكن مـا تكون الروح من الجسد يا ترى ان لم تكن المذيع لكفاح الجسد وانتصاراته ؟ مـا الجسد إلا الصوت ، ومـا الروح إلا الصدى الناجم عنه والتابع له . ليست الكلمات الموضوعة للدلالة على الخـير والشر سوى رموز فهي تشير إلى الامور ولا تعبر عنها ولا يطلب المعرفة فيها ومنها إلا المجانين .

انتبهوا ، أيهـا الاخوة ، إلى الزمن الذي يطمح فكركم فيه إلى البيان بالرموز لأن في هذا الحين تتكون الفضيلة فيكم ، وعندئذ يبمث جسدكم ويتجه إلى الاعالي مجتذباً عقلكم من سكونه ليدفع به إلى مراحل الابداع حتى إذا ما سار عليها عرف قيمة الاشياء وأحب فأجاد في كل أعماله .

في الزمن الذي يختلج فيه قلبكم تتكون فضيلتكم لأن هـذا القلب يفيض باختلاجه كالنهر العظيم فيغمر القائمين على ضفافه بالبركة كما يهددهم باشد الاخطار .

انما تنشأ فضيلتكم عندمـا يعجز المدح والذم عن بلوغ شعوركم ، فتطمح ارادة الرجولة فيكم إلى السيادة على كل شيء .

انما تنشأ فضيلتكم عندما تحتقرون النعم والفراش الوثير وعندما لا تجدون راحة الا بعيداً عن مواطن الراحة .

انما تنشأ فضيلتكم عندما تنصبّ ارادتكم على مقصد واحد، وعندما يصبح هذا التحول في آلامكم ضرورة لا يسعكم التحول عنها .

أفليس هذا شكلاً جديداً للخير والشر ؟ أفما تسمعون بهـذا القول خرير الينبوع العميق الذي غربت مسالكه من قبل عنكم ؟

انها لفضيلة جديدة تمنح الانسان قوة وتبعث فيه عزماً، هذه الفكرة المتحكمة في روح بلغت الحكمة لأنها شمس مذهبة التفتت عليها أفعى الحكمة .

٢

وصمت زارا مرسلاً نظرات الحب إلى أتباعه، ثم ارتفع صوته بنبرات جديدة قائلاً : اخلصوا للأرض ، يا اخوتي ، بكل قوى فضائلكم . لتكن محبتكم الواهبة ولتكن معرفتكم خادمتين لروح الأرض ، انني أطلب هذا متوسلاً .

لا تدعوا فضيلتكم تنسلخ عن حقائق الارض لتطير باجنحتها ضاربة اسوار الأبدية ، ولكم ضلت من فضيلة من قبل على هذا السبيل .

ارجعوا الفضيلة الضالة كما رجعت بها أنا إلى مرتعها في الأرض . عـودا بها إلى الجسد والى الحياة لتنفخ في الأرض روحها ، روحاً بشرية .

لقد تاه العقل وتاهت الفضيلة فخدعتها آلاف الامور ، ولما يزل هذا الجنون مسلط على جسدنا حتى أصبح جزءاً منه فتحول فيه إلى ارادة .

لقد قام العقل وقامت الفضيلة معه بتجارب عديدة فضلاً على الف سبيل ، وهكذا أصبح الانسان عبارة عن تجارب ومحاولات الصقت بنا الجهل والضلال ، وليس ما استقر فينا من التجارب حكمة الاجيال فحسب ، بل جنونها أيضاً . ولكم يتعرض الوارثون إلى اخطار .

اننا لم نزل نصارع جبار الصدف ، ولم يزل العته سائداً على الانسانية حتى اليوم .

ليكن عقلكم وفضيلتكم بمثابة روح للارض وعقل لها ، أيها الأخوة ، فتتجدد بكم قيم الأشياء جميعها ، من أجل هذا وجب عليكم أن تبدعوا .

ان الجسد يطهر بالمعرفة ، فيرتفع بمرانه على العلم ، لأن من يطلب الحكمة يطهر جميع غرائزه ، ومن ارتقى فقد ادخل المسرة في نفسه .

أعن نفسك ، أيها الطبيب ، لتتمكن من اعانة مرضك . ان خير ما تبذله من معونة لهذا المريض هو أن يرى بعينه انك قادر على شفاء نفسك .

ان في الارض من السبل ما لم تطأه قدم بعد ، فما أكثر مجاهلها وما أكثر خفاياها !!

اسهروا وانتبهوا أيها المنفردون لأن من المستقبل تهب نسمات سرية حاملة بشائر لا تقرع إلا الآذان المرهفة .

انكم في عزلة عن العالم ، أيها المنفردون ، ولكنكم ستصبحون شعباً في آتي الزمان ، ومنكم سيقوم الشعب المختار لأنكم اخترتم نفسكم اليوم . ومن هذا الشعب سيولد الانسان المتفوق .

والحق ان الارض ستصبح يوماً مستشفى للاعلاء ، فان في نشرها عبيراً جديداً هو عبير الاخلاص والامل الجديد .

٣

وسكت زارا كمن يقف عند كلمة تتلجلج في فمه ، وبعد ان قلب عصاه طويلاً بين يديه ، أطلق صوته وقد تغيرت نبراته فقال :

ـ سأذهب وحدي الآن أيها الصحاب ، وأنتم ستذهبون بعدي وحدكم لأنني هكذا أريد .

هذه نصيحتي اليكم ، ابتعدوا عني وقفوا موقف الدفاع عن أنفسكم تجاهي ، بل اذهبوا إلى أبعد من هذا ، اخجلوا من انتسابكم إليّ فلقد أكون لكم خادعاً .

على من يطلب الحكمة ألا يتعلم محبة أعدائه فحسب بل عليه أيضاً أن يتعلم بغض اصدقائه . وما يعترف التلميذ اعترافاً تاماً بفضل استاذه إذا هو بقي أبداً له تلميذاً . لماذا لا تردون أن تحطموا تاجي ؟

انكم تحوطونني بالاجلال ، ولكن ما هي الكارثة التي تتوقعونها من إعراضكم عني ؟ انِ في رفع الانصاب لخطراً فاحترسوا من أن يسقط عليكم التمثال المنصوب فيقضي عليكم .

تقولون انكم تؤمنون بزارا، ولكن أية أهمية له ؟ تقولون انكم مؤمنون ، ولكن ما أهمية جميع المؤمنين ؟ ما كان أحد منهم فتش عن نفسه قبل أن وجدتموني ، وهكذا جميع المؤمنين ، فليس الايمان شيئاً عظيماً . لذلك آمركم الآن أن تضيعوني لتجدوا أنفسكم ، ولن أعود اليكم إلا عندما تكونون جحدتموني جميعكم .

والحق يا اخوتي ، انني في ذلك الحين سأفتش عن خرافي الضالة بعين اخرى فأبذل لكم حباً غير هذا الحب .

سيأتي يوم تصيرون فيه اصحاباً لي إذا ما وحّد بينكم الامل الواحد،عندئذ سأرغب في الاقامة بينكم للمرة الثالثة للاحتفاء بأنوار الهاجرة العظمى .

وستبلغ الشمس الهاجرة عندما يصل الناس إلى منتصف طريقهم بين الحيوان والانسان المتفوق ، وعندما يرون أملهم الأسمى على منتهى السبيل الذي يقودهم إلى الفجر الجديد .

في ذلك الحين يتوارى من يسير إلى الجهة الثانية وهو يبارك نفسه إذ ترتفع شمس معرفته لتتكبد الهاجرة .

لقد مات جميع الآلهة ، فلن يعد لنا من أمل إلا ظهور الانسان المتفوق . فلتكن هذه ارادتنا عندما تبلغ الشمس الهاجرة .

هكذا تكلم زارا ...

* * *

الجزء الثاني

« ولن اعود اليكم إلا عندما تكونون
« جحدتموني جميعكم .
« والحق يا اخوتي ، انني في ذلك الحين
« سأفتش عن خرافي الضالة بعين أخرى
« فأبذل لكم حباً غير هذا الحب » .

زرادشت

الفضيلة الواهبة الجزء الاول صفحة ١٠٤

الطفل حامـــل المرآة

ورجع زارا إلى الجبال ، إلى عزلة كهفه ، ليحتجب عن الناس كالزارع القى بذوره في أثلام أرضه وبات يتوقع نبتها ، ولكنه ما لبث ان حنّت جوارحه إلى احبابه إذ كان عليه أن يمنحهم بعد كثيراً من الهبات ، وأصعب ما يلقى المحب اضطراره إلى قبض يده إجابة لداعي محبته وتفادياً للمنة في عطائه .

ومرت على المنفرد الشهور والاعوام وحكمته تزداد نمواً فتزيده ألماً باتساع آفاقها .

وأفاق يوماً من نومه قبل انفلاق الفجر واستغرق في تفكيره وهو ممدد على فراشه وتسائل قائلا :

– لماذا أرعبني هذا الحلم حتى استفقت منه مذعوراً ؟ رأيت كأن ولداً « يحمل مرآة » اقترب مني وهو يقول :

انظر في هذه المرآة يا زارا .

وما نظرت إلى المرآة حتى صرخت وخفق قلبي خفوقاً شديداً ، لأن ما انعكس لي في المرآة لم يكن وجهي بـــل وجهاً تقبطت أساريره بضحكة شيطان ساخر .

والحق ما يفوتني تعبير هذا الحلم وإدراك ما نبهت اليه فان تعاليمي مشرفة على خطر ، والزوان يريد أن ينتحل صفات الحنطة . لقد استأسد أعدائي فشوهوا تعاليمي حتى أصبح اتباعي يخجلون مما وهبتهم .

لقد فقدت صحبي وآن لي أن افتش عمن فقدت .

وانتفض زارا لا كمن استولى الذعر عليه بل كمأخوذ برؤي وكشاعر هزه شيطانه . فوجم نسره وافعوانه وحدقا بوجهه وقد لاحت بوادر السعادة عليه كتباشير الفجر . فقال لهما .

– ماذا حدث لي ؟ أفما تريان انني تغيرت ؟ أفما تحسان ان الغبطة قد نزلت عليّ كأنها عصفات الرياح ؟

لقد جن شعوري بهذه السعادة فلن يسلم بياني من اختلال هذا الشعور . ان سعادتي لم تزل في حداثتها فتذرعا بالصبر معي عليها .

لقد أوجعتني سعادتي فليكن أساتي كل من أرهقتهم الاوجاع .

ان في وسعي الآن أن انحدر إلى مقر صحبي وإلى مقر أعدائي ، فقد أصبح زارا قادراً على استطراد القول والاحسان الى من يحب .

لقد آن لحبي أن يتدفق كالنهر يندفع من الأعالي الى الاعماق ، ويتجه من المشرق إلى المغرب .

ان نفسي تندفع مرغية مزبدة في الوديان متملصة من الجبال الصامتة تصخب فوقها عواصف الآلام . ولطالما تعللت بالصبر وعلقت أبصاري على بعيد الآفاق . لقد ارهقتني العزلة فما أطيق السكوت بعد .

أصبحت وكأنني بأجمعي فم أو هدير جدول يتحدر من شاهقات الصخور . اريد أن اقذف بكلماتي إلى الاغوار ، فيجري نهر حبي في المفاوز البعيدة ، ولن يضل هذا النهر سبيله الى مصبه في البحار .

في داخلي بحيرة وحيدة قانعة بنفسها ، غير ان نهر محبتي يجتذبها في مسيره ليقطع معها السيول ويترامى واياها في لجة البحر .

انني أتبع مسالك لم أعرفها من قبل فألهمت بياناً جديداً بعد ان اتعبتني اللهجات القديمة التي ترهق كل المبدعين وقد امتنع علي فكري أن يقتفي رواشم النعال المتقطعة .

ما من لغة إلا وأراها بطيئة تقصر عن مجاراة بياني .

سأقفز إلى صهوتك أيتها العاصفة فألهبك انت أيضاً بسوط سخريتي .

أريد أن اقطع أجواء البحار كهتفة مسرة وحبور الى ان استقر على الجزائر السعيدة حيث يقيم أحبابي ، وبينهم أعدائي أيضاً . لشد ما أحب الآن جميع من يتسنى لي أن اوجه اليهم الكلام ، وسيكون لهؤلاء الاعداء أيضاً قسطهم في إيجاد غبطتي .

عندما اتحفز لاعتلاء أشد جيادي جموحاً لا أجد لي معيناً أصدق من رمحي متكأ ارتفع عليه .

هو رمحي اهدد بـه أعدائي ، ولكم يستحقون ثنائي إذا ما تمكنت من طرح هذا الرمح من يدي .

لقد طال اصطبار غيوري بين قهقهة الرعود وقد آن لي ان ارشق الاعماق بقذائف برَدي .

ان صدري سيتعاظم بانتفاخه حتى يزفر بالعاصفة الهائلة على الشامخات ، وهكذا سأفرج عنه .

ان سعادتي وحريتي ستندفعان اندفـاع العواصف ولكنني أتمنى لو يحسب اعدائي ان ما يزمجر فوق رؤوسهم إنما هو روح الشر لا روح سعادة وحرية .

وأنتم أيضاً أيهـا الصحاب سيتولاكم الرعب عندما تنزل عليكم حكمتي الكاسرة ولعلكم تولون هاربين منها كما يهرب الاعداء .

ليت لي ان استدعيكم إلي بحنين شبّابة الرعاة ، وليت لبؤة حكمتي تتعلم ان تزأر بنبرات العطف والحنان ، فلطالما وردنا سوياً من مناهل العرفان . ولكن حكمتي الوحشية تمخضت بآخر صغارها في الجبال السحيقة بين الجلامد الجرداء ، وهي الآن تطوف بجنونها الصحارى القاحلة مفتشة عن المروج الناضرة .

انها لشيخة وحشية هذه الكلمة التي تقصد انزال أعز ما لديهـــا في مروج قلوبكم الناضرة .

هكذا تكلم زارا ...

في الجزر السعيدة

ما ان التين يتساقط عن أشجار عطِرَ النكهة حلو المذاق وقشوره الحمراء تتشقق بسقوطها ، وأنا هو ريح الشمال يهب على هذه الاثمـــار الناضجة . ان تعاليمي تتساقط اليكم أيها الصحاب كمثـــل هذه الاثمار فتذوقوها الآن عنـــد ظهيرة من أيام الخريف وقد صفت فوقكم السماء .

سرحوا أبصاركم فيما حولكم من خيرات الارض ثم مدوا بهـــا الى آفاق البحر البعيد ، فليس أجمل لمن فاض رزقه من أن يتطلع الى الابعاد .

لقد كان النـــاس يتلفظون باسم الله عندما كانوا يسرحون أبصارهم على شاسعات البحار ، أما الآن فقد تعلمتم الهتاف باسم الانسان المتفوق .

إن الله افتراض ٌ وأنا أريد ألا يذهب بكم الافتراض الى أبعد ممـــا تفترض إرادتكم المبدعة .

افتستطيعون أن تخلقوا الهـــاً ؟ إذن اقلعوا عن ذكر الآلهة جميعاً ، فليس لكم إلا ايجاد الانسان المتفوق .

ولعلكم لن تكونوا بنفسكم هذا الانسان ولكن في وسعكم أن تصبحوا آباءً وأجداداً له ، فليكن هذا التحول خير ما تعلمون .

ان الله افتراض وأنا أريد ألا يتجاوز بكم الافتراض حدود التصور ، فهل تستطيعون أن تتصوروا إلهاً ، فاعرفوا من هذا ان واجبكم هو طلب الحقيقة

فلا تطمحوا إلى ما لا يبلغه تصور الانسان وبصره وحسه . امسكوا بتصوركم كيلا يتجاوز حدود حواسكم .

يتحتم عليكم أن تبدأوا بخلق ما كنتم تسمونه عالماً من قبل فيتكون عالمكم من تفكيركم وتصوركم وارادتكم ومحبتكم وعندئذ تبلغون السعادة يا من تطلبون المعرفة . وكيف تطيقون الحياة إذا لم يكن لكم هذا الرجاء ؟

على من يطلب المعرفة ألا يتورط في ما يريده العقل من المعميات .

لسوف أفتح لكم قلبي فلا تخفى عنكم خافية ، فأقول لكم : لو كان هنالك أرباب أكنت احتمل الا اكون رباً ؟ اذن ليس في الكون أرباب .

لقد استخرجت لذاتي هذه النتيجة ، وها هي تستخرجني الآن .

ان الله افتراض ولكن من له بتحمل كل ما يضمر هذا الافتراض من اضطراب دون أن يلاقي الفناء ؟ أتريدون أن تأخذوا من الخالق ايمانه ومن النسر تحليقه في أجواز الفضاء ؟

ان الله عبارة عن ايمان ينكسر به كل خط مستقيم ويميد عنده كل قائم ، فالزمان لدى المؤمن وهم ، وكل فان في عينيه بطل وخداع ، فهل مثل هذه الافكار إلا أعاصير تتطاير فيها عظام البشر وتورث الدوار لشاهدها ؟ تلك افتراضات يدور المبتلي بها على نفسه كالرحى حتى يموت .

أفليست من الشر والافتيات على الانسانية كل هذه التعاليم تقيم الواحد المطلق الذي لا يناله تحول ولا تغيير ؟

ان الرموز وحدها لا تتغير ، وطالما كذب الشعراء ، غير أن خير ما يضرب من الأمثال ما يصور الحاضر وآتي الزمان فيأتي حجة لكل زائل لا نقضاً له .

ليس في غير الابداع ما ينقذ من الأوجاع ويخفف أثقال الحياة ، غير ان ولادة المبدع تستدعي تحولات كثيرة وتستلزم كثيراً من الآلام .

أيها المبدعون ستكون حياتكم مليئة بمرير الميتات لتصبحوا مدافعين عن جميع ما يزول .

على المبدع إذا شاء أن يكون هو بنفسه طفل الولادة الجديـدة أن يتذرع بعزم المرأة التي تلد فيتحمل أوجاع مخاضها .

لقد اخترقت لي طريقاً في مئـات النفوس والاسرّة وأوجاع المخاض غير انني كثيراً ما نكصت على أعقابي لأنني أعرف ما تقطّع الساعات الاخيرة من نياط القلوب .

ولكن ذلك ما تطمح ارادتي المبدعة اليه ، وبتعبير أشد صراحة ذلك هو المقصد الذي تريده إرادتي .

ان جميـع ما فيّ من شعور يتألم مقيداً سجيناً ، وليس غير إرادتي من بشير يؤذن بالمسرة ، ويأتي بالافراج عن الشعور .

ان الارادة وحدها تحرر ، وما بغير هذه الآية من شرعـة صحيحة للارادة وللحرية ، على هذا تقوم تعاليم زارا .

بعداً وسحقاً لكل وهن وملال يشلان الارادة ويوقفان كل تقدير وابداع .

ان طالب المعرفة يشعر بلذة الارادة والايجاد وبلذة استحالة الذات إلى ما تحس به في أعماقهـــا ، فاذا انطوى ضميري على الصفاء فما ذلك إلا لاستقرار إرادة الايجاد فيه. وهذه الارادة هي ما أهاب بي للابتعاد عن الله وعن الآلهة ، إذ لو كان هنالك آلهة لما بقي شيء يمكن خلقه .

انطموح إرادتي إلى الايجاد يدفعني أبداً نحو الناس اندفاع المطرقة فوق الحجر.

أيها الناس انني ألمح في الحجر تمثـالاً كامناً هو مثال الامثلة . أفيجدر أن يبقى ثاوياً في أشد الصخور صلابة وقبحاً ؟

ان مطرقتي تهوي بضرباتها القاسية على هذا السجن فأرى حجره يتناثر .

أريد أن اكمل هـذا التمثال . ان طيفاً زارني والطف الكائنات وأعمقها سكوتاً قد اقترب مني .

لقد تجلى بهاء الانسان المتفوق لعيني في هذا الخيال الطارق فمالي وللآلهة بعد[1].

هكذا تكلم زارا ...

الرحمـــاء

لقد بلغني ، أيها الصحاب ، قول الناس « أفما تريدون زارا يمر بنا كأنه يمر بين قطيـع من الحيوانات ؟ » .

وكان أولى بهم أن يقولوا: ان من يطلب المعرفة يمر بالناس مروره بالحيوانات.

ان طالب المعرفة يرى الانسان حيواناً له وجنتان حمراوان .

ولِمَ يراه هكذا ؟ أفليس كثيراً ما علته حمرة الخجل ؟

هذا ما يقوله طالب المعرفة أيها الصحاب: — ان تاريخ الانسان عار في عار.

ولذلك يفرض الرجل النبيل على نفسه ألا يلحق إهـانة بأحد لأنه يستحيي جميع المتألمين .

إنني والحق أكره الرحماء الذين يطلبون الغبطة في رحمتهم، فاذا ما قضي عليّ بأن أرحم تمنيت أن تجهل رحمتي والا ابذلها إلا عن كثب. احب ان استر وجهي عند اشفاقي وأن اسارع الى الهرب دون أن أعرف . فتمثلوا بي أيها الصحاب .

---

(١) ونحن نقول بدورنا لنيتشه متحدين قياسنا من قياسه : لو أمكن للانسان أن يخلق شيئاً لما كان هنالك إله ، وبما ان الانسان يقصر عن ايجاد ذرة وخطرة فكر في عالمي المادة والروح فالكائن الأزلي مفروض فرضاً على العاقل وكل قول يخالف هذا القول ثرثرة وجنون .

ليت حظي يسوقني أبداً حيث التقي أمثالكم رجالاً لا يتألمون وفي طاقتهم أن يشاركوني آمالي وولائمي وملذاتي .

لقد قمت بأعمال كثيرة في سبيل المتألمين ولكن كنت أرى ان الافضل من هـــذا زيادة معرفتي في تمتعي بسروري . فان الانسان لم يسر إلا قليلاً منذ وجوده وما من خطيئة حقيقية إلا هذه الخطيئة .

إذا نحن تعلمنا كيف نزيد في مسرتنا فاننا نفقـد معرفتنا بالاساءة الى سوانا وباختراع ما يسبب الآلام .

ذلك ما يدعوني الى غسل يدي إذا أنا مددتها لمتألم ، بل والى تطهير روحي أيضاً ، لأنني أخجل لخجله وتؤلمني مشاهدتي لآلامه ولأنني جرحت معزة نفسه بلا رحمة عندما مددت له يدي .

ان عظيم الاحسان لا يولد الامتنان بل يدعو الى ايقاد الحقد ، وإذا تغلب تافه الاحسان على النسيان فانه يصبح دوداً ناهشاً .

لا تقبلوا شيئاً دون احتراس ، وحكموا تميزكم عندما تأخذون ، ذلك ما اشير به على من ليس لهم ما يبذلونه للناس .

أما أنا فمـن يبذلون العطاء وأحب أن اعطي الاصدقاء كصديق ، أمـــا الأبعدون فليتقدموا من أنفسهم لاقتطاف الأثمـار من دوحتي فليس في اقدامهم على الأخذ ما في قبولهم العطاء من مهانة لكرامتهم .

غير انه من اللازب أن يقطع دابر المتسولين لأن في الجود عليهم من الكدر ما يوازي كدر انتهارهم وحرمانهم .

وكذلك هو حال الخطاة وأهل الضمائر المضللة ، فان تبكيت الضمير يحفز الانسان الى النهش وايقاع الأذى .

وشرّ من كل هذا الافكار الحقيرة ، وخير للانسان أن يسيء عملا من أن تستولي المسكنة على تفكيره .

انكم تقولون : « ان في التفكير الملتوي كثيراً من الاقتصاد في شر الاعمال » وما يستحسن الاقتصاد في مثل هذا .

ان لشر الأعمال اكتلاناً والتهاباً وطفحاً كالقروح ، فهو حر وصريح لأنه يعلن نفسه داءً كما تعلن القروح ، في حين ان الفكرة الدنيئة تختفي كنـوامي الفطر وتظل منتشرة حتى تودي بالجسم كله ، ومع هـذا فاني أسر في أذن من تملكه الوسواس الخناس : « ان من الخير أن تدع الوسواس يتعاظم فيـك لأن أمامك أنت أيضاً سبيلاً يوصلك الى الاعتلاء » .

مما يؤسف له أن يكون جهـل بعض الشيء خيراً من ادراك كله ، غير ان من الناس من يشف حتى تبدو بواطنه ، ولكن ذلك لا يبرر طموحنا إلى استكناه مقاصده . ومن الصعب أن نعيش مع الناس ما دمنا نستصعب السكوت .

ان ظلمنا لا ينزل بمن تنفر منه اذواقنا بل يسقط على من لا يعنينا أمره .

وبالرغم من هـذا ، إذا كان لك صديق يتألم فكن ملجأ لآلامه ولكن لا تبسط له فراشاً وثيراً بل فراشاً خشناً كالذي يتوسده المحاربون وإلا فما أنت مجديه نفعاً .

وإذا أساء اليك صديق فقل له : إنني اغتفر لك جنايتك عليّ ولكن هل يسعني أن أغفر لك ما جنيته على نفسك بما فعلت ؟

هكذا يتكلم عظيم الحب ، لأنه يتعالى حتى عن المغفرة والاشفاق .

علينا أن نكبح جماح قلوبنا كيلا تجر عقولنا معها إلى الضلال .

أين تجلى الجنون في الارض بأشد مما تجلى بين المشفقين ؟ بل أي ضرر لحق بالناس أشد من الضرر الناشيء من جنون الرحماء ؟

ويل لكل محب ليس في محبته ربوة لا يبلغها اشفاق الرحماء .

قال لي الشيطان يوماً : ان للرب جحيماً هو جحيم محبته للناس .

وقد سمعت هذا الشيطان يقول أخيراً: لقد مات الآله وما أماته غير رحمته .

احترسوا من الرحمة لأنها لا تلبث حتى تعقد فوق الانسان غماماً متلبداً : وما أنا بجاهل ما تنذر به الايام .

احفظوا هذه الكلمة أيضاً : ان المحبة العظمى تتعامى عن رحمتها لأن لها هدفها الأسمى وهو خلق من تحب .

– انني أقف نفسي على حبي ، وكذلك يفعل أمثالي : هذا ما يقوله كل مبدع ، والمبدعون قساة القلوب .

هكذا تكلم زارا ...

الكهنة

وتمثل زارا مرور رهط من الكهنة أمامه فقال لاتباعه : هؤلاء هم الكهنة ، فعليكم – وان كان أعدائي – أن تمروا أمامهم صامتين وسيوفكم ساكنة في أغمادها ، فان بينهم أبطالاً ومن تحملوا شديد العذاب فهم لذلك يريدون أن يعذبوا الآخرين .

انهم لأعداء خطرون ، وما من حقد يوازي ما في اتضاعهم من ضغينة ، وقد يتعرض من يهاجمهم الى تلطيخ نفسه ، لكن بيني وبينهم صلة الدم وأنا أريد أن يبقى دمي مشرفاً حتى في دمائهم .

وعاد زارا يتمثل انهم مروا وانصرفوا ، فشعر بألم شديد قاومه لحظة حتى سكن روعه ، فقال : – انني أشفق على هؤلاء الكهنة ، وأنا لا أزال أنفر منهم ولكنني تعودت الاشفاق مرغماً نفوري منذ صحبت بني الانسان ، ومع ذلك فأنا أتألم مع الكهنة لأنهم في نظري سجناء يحملون وسم المنبوذين في العالم ، وما كبلهم بالاصفاد إلا من دعوه مخلصاً لهم ، وما أصفادهم الا الوصايا الكاذبة والكلمات الوهمية ، فليت لهؤلاء من يخلصهم من مخلصهم .

لقد لاحت لهؤلاء الناس جزيرة في البحر على حين ثارت عليهم زوبعة فنزلوا اليها فإذا هم على ظهر تنين نائم على العباب .

وهل من تنين أشد خطراً على أبناء الحياة من تنين الوصايا والكلمات الوهمية وقد كمن فيها المقدور طويــــلاً حتى حان وقت انتباه التنين ؟ وها هو يهب مفترساً جميع من بنوا مساكنهم على ظهره .

انظروا الى المساكن التي بناها هؤلاء الكهنة وقد اسموها كنائس وما هي إلا كهوف تنبعث روائح التعفن منهـا . وهل للروح أن ترتفع الى مستواها تحت لألاء هذه الأنوار الكاذبة وفي هـذا الجو الكثيف ، حيث لا يسود الا عقيدة تصم الناس بالخطيئة وتأمرهم بصعود درجات الهيكل زحفاً على الركب ؟

انني لأفضل أن انظر الى اللحظات الفاحشة من أن أرى هذه العيون اطبقت أجفانها معلنة خشوعها واستغراقها .

من ذا الذي اخترع هذه الكهوف وهذه الدرجات يرقاها النادمون زاحفين، أهي من ايجاد من استحبوا من صفاء السماء فلجأوا الى الاستتار ؟

لن أعود بقلبي لألج مساكن هذا الاله الا اذا انثلمت قبابها واخترقهـا نور السماء الصافية لتتكشف عن الشقائق الحمراء النابتة على جدرانها المتهدمة .

لقد أراد هؤلاء الكهنة أن يعيشوا كأشلاء أموات فسربلوا جثثهم بالسواد فاذا هم القوا مواعظهم انتشرت منها رائحة اللحود .

ان من يجاور هؤلاء الناس فكأنما هو ساكن على ضفة الأنهار السوداء حيث لا يسمع الا نقيق الضفادع الحزين .

ليسمعني هؤلاء الناس نشيداً غير هــذا النشيد لأمرن نفسي على الاعتقاد بمخلصهم ، اذ لا يلوح لي ان اتباع هذا المخلص قد ظفروا بالخلاص .

لكم أتمنى أن أراهم عراة ، وهل لغير الجمال أن يدعو الناس الى التوبة ؟ ولكنهم عبارة عن فجائع مستترة لا يسعها أن تجتذب الى الايمان أحداً .

والحق ، ان مخلصي هؤلاء الكهنة نفسهم لم ينحدروا من سماء الحرية وما وطئوا مسالك المعرفة قط ، فما كانت حكمتهم إلا نسيجاً ملأته الخروق رقعوه بما أوجد جنونهم من آلهة . لقد أغرقتهم حكمتهم في بحيرة الاشفاق ، فهم كلما زفروا فيها ارسلوا بجثة عظمى تطفو على سطحها .

لقد زعق هؤلاء الرعاة بقطعانهم فمضت متدافعة في فجوة واحدة وقد علا صراخها كأن التوصل الى مخارج المستقبل ممتنع من غير هذه الفجوة الضيقة . أما والحق ما هؤلاء الرعاة إلا فريق من هذه السائمة وقد ضاقت عقولهم ورحبت نفوسهم وسرعان ما تصغر العقول إذا كبرت النفوس .

لقد تركوا على كل معبر اجتازته أرجلهم آثار الدماء ، إذ كانوا يستلهمون جنونهم ليعلموا الناس ان الدماء تقوم شاهدة للحق . وقد جهلوا ان افسد شهادة تقوم للحق إنما هي شهادة الدم ، لأن الدم يقطر سماً على انقى التعاليم فيحولها الى جنون والى احقاد .

أفتقيمون للحق دليلاً من اقتحام أحد الناس للهب في سبيل تعاليمه ؟ وهل لمثل هذا التعليم ما للعقيدة التي تتولد متقدة من لهبها نفسه ؟ اذا ما تلاقى رأس بارد بقلب مضطرم نشأت من التقائهما تلك العاصفة التي يدعوها الناس مخلصاً ، ولكم وجد على الأرض من رجل أعرق منشأ وأرفع مقاماً ممن يدعوهم الشعب مخلصين، وما كان هؤلاء المخلصين إلا عاصفات كاسحات تهب متوالية على الأرض.

إذا ما كنتم تنشدون سبل الحرية ، أيها الاخوة ، فعليكم أن تنقذوا أنفسكم حتى ممن يفوقون هؤلاء المخلصين عظمة ومجداً . فإن الانسان المتفوق لم يظهر على الارض بعد . لقد حدقت بأعظم رجل وبأحقر رجل عن كثب وهما عاريان فظهرا لعياني متشابهين ، بل رأيت أعظمهما أشد توغلاً في المعائب البشرية من الآخرين .

هكذا تكلم زارا ...

لا ينبه الشعور الغافل إلا الارعاد والابراق ، وما تكلم الجمال إلا بنبرات هامسة لا تنفذ إلا الى أشد الأرواح انتباهاً .

اسمعتني عصمتي اليوم ضحكة تعالت فيهـــا قهقهة الجمال السامية . فجمالي يسجر بكم أيها الفضلاء ، إذ سمعته يقول : انهم يطلبون لفضائلهم ثمناً .

انكم تتقاضون ثمن فضيلتكم وتطـالبون بالجزاء ، أيها الفضلاء ، طامحين الى امتلاك أماكن في السماء ، بدلاً من أماكن في الأرض ، والى الظفر بالابدية بدلاً من الدهر الزائل .

انكم لتحقدون عليّ لأنني اعلم الناس ان ليس هناك لا حسيب ولا مثيب ، والحق انني امتنع عن القول بالثواب بل أذهب الى أبعد من هذا فأقول ان ليس للفضيلة ما تجزي به نفسها جميل الجزاء .

ان ما يؤلمني هو ان العقاب والثواب قـد دُسا دساً في غاية كل أمر ، بل حشرا حشراً في أعماق نفوسكم ، أيها الفضلاء . ولكن لكلمتي أن تلج هذه النفوس ذاهبة فيها كقرن الوعل وكالسكة تشق الأرض لتحرثها . فلتتكشف نفوسكم عن خفاياها أمـام النور ، لأن الحقيقة لن تنفصل عن الضلال فيكم حتى تنطرحوا عراة تحت شعاع الشمس . ذلك لأن حقيقة ذاتكم انما هي اطهر من تسمح بتدنسكم بكلمات الانتقام والعقاب والمكافـأة والمقابلة بالمثل . انكم تحبون فضيلتكم كما تحب الام طفلها ، وهل سمعتم أن أمـاً طلبت مكافأة على عطف الامومة فيها ؟

هل فضيلتكم إلا ذاتكم نفسها وهي أعز مـا لكم ؟ وما امنيتكم الا امنية الحلقة التي لا تلتوي وتستدير الا ليصبح آخرها أولاً لها .

ان كل عمل ينشأ عن فضيلتكم انما هو بمثابة كوكب يغروه الانطفاء ، فما

يزال نوره يخترق مجراه في الافلاك ، وليس من حد ينتهي سيره اليه . وهكذا لن تزال أشعة فضيلتكم سائرة في سبيلها حتى بعد انتهاء عملها وتواريه في عالم النسيان ، لأن اشعاع الفضيلة مستمر لا يعروه زوال .

لتكن فضيلتكم تعبيراً عن ذاتكم وما تلك غريبة عن هـذه فلا تحسبوا انها جلد ورداء .

هذه هي حقيقة روحكم أيهـا العقلاء . ولكن من الناس من يخيل له ان الفضيلة عبارة عن تشنج تحت السياط الجالدة ، ولطالما سمعتم صياح هؤلاء الواهمين .

ومن الناس من يرى الفضيلة في الكسل والرذيلة ، وما ينتبه عدلهم الا عندما يتثاءب حقدهم وحسدهم ، عندئذ يفركون أجفانهم وقد أثقلها النعاس .

ومن الناس من تشدهم شياطينهم الى أسفـل فكلما تدهوروا على الدركات زادت أحداقهم توهجـاً وتزايد شوقهم الى ربهم . ان صوت هؤلاء المتهورين يبلغ آذانكم أيها الفضلاء وهم يصيحون : ان كل ما هو خارج عن كياني انما هو الله وانما هو الفضيلة .

وهنالك آخرون يتقدمون مثقلين مقرقمين كأنهم عجلات تحمـل صخوراً الى الوادي ، وهؤلاء النـاس لا ينون يتكلمون عن الفضيلة ، وما الفضيلة في عرفهم الا عبارة عن كابح عجلاتهم .

وهنالك قوم أشبه بالساعات يربط زنبركها فتسمعك تكتكتها وهم يريدون أن تدعى حركتهم الالية فضيلة. انني ألهو بمشاهدة مثل هذه الساعات لأنني ما صادفتها مرة الا ربطت زنبركها بتهكمي وأكرهتها على تحريك رقاصها .

وهناك المغترون بذرة من العدل ترتفع فيهم على جبـل من الدعوى فتراهم يجدفون على كل شيء الى أن يغرقوا العالم بظلمهم ، وما تخرج كلمة الفضيلة من

أفواه هؤلاء الناس الا وتحسب انهم يتجشأونها ، واذا قال أحدهم : — لقد عدلت فكأنه يقول : — انتقمت .

هؤلاء من يريدون أن يفقأوا أعين أعدائهم بفضيلتهم وما يطلبون من الاعتلاء الا اسقاط سائر الناس .

وهنالك من يدب اليهم الفساد كأنهم ماء آسن في المستنقعات . فهؤلاء الناس يعلنون انهم لا ينهشون أحداً ويتحاشون الالتقاء بالناهشين ، فاذا عرض عليهم أي رأي أخذوا به تفادياً لكل أخذ وردّ .

وهنالك عشاق الحركات المعتقدون بأن الفضيلة نوع من الايمان فتراهم في كل حين جاثين على ركبهم وقد قبضت احدى راحتيهم على الاخرى تمجيداً للفضيلة وما يدرك قلبهم منها شيئاً .

وهنالك من يرون الفضيلة في القول بلزوم الفضيلة وهم لا يعتقدون الا بلزوم ردع الشر بالقوة .

وبعض من امتنع عليهم ادراك ما في الانسان من صفات عليا لا يذكرون الفضيلة الا عندما يحدقون بما فيه من دنايا ، وهكذا لا تنشأ فضيلة هؤلاء القوم الا من عيوب عيونهم .

من الناس من يطلب المعرفة وتقويم ما التوى فيه فيدعو هذه النزعة فضيلة ، ومنهم من يطلب قلب كيانه رأساً على عقب فيدعو هذه الرغبة فضيلة أيضاً ، وهكذا ترى الجميع يعتقدون بوجود الفضيلة في ناحية من نواحي كيانهم وتراهم يتجهون الى معرفة ما فيهم من خير وشر . غير ان زارا قد جاء الى جميع هؤلاء المخادعين والى جميع هؤلاء المجانين ليقول لهم انهم لا يعرفون عن الفضيلة شيئاً وان ليس في وسعهم أن يعرفوها .

ما أتى زارا الا ليشعركم بأنكم تعبتم من تكرار الأقوال القديمة التي علمكم اياها المخادعون والمجانين ، فينفركم من كلمات المكافأة والمقابلة بالمثل والعقاب

والانتقام والعدل لتقلعوا عن القول بصلاح الاعمال عند تجردها عن الغايات .

لتكن ذاتكم متجلية في عملكم كما تتجلى الأم في طفلها وليكن هذا التعبير ما تعرّفون الفضيلة به .

والحق انني انتزعت منكم كثيراً من أقوالكم وسلبتكم أعز ما تتلهون بمضغه عن الفضيلة ، لذلك أراكم تزوّرون كالاطفال ، وقد كنتم مثلهم تتسلون بألعابكم على الشاطىء فطفت موجة انتزعتها من بين أيديكم وحملتها إلى العباب ، فها أنتم تعولون الآن كهؤلاء الأطفال ، غير ان الامواج ستكر راجعة حاملة اليهم ألعاباً جديدة ناثرة بين أيديهم الاصداف المخططة ، وأنتم أيضاً أيها الصحاب ستسلون مثلهم حين تأتيكم التعزية ناثرة بين أيديكم الاصداف المخططة .

هكذا تكلم زارا .

الوغـــد

ما الحيـــاة إلا ينبوع مسرة ، ولكن أيان شرب الوغد فهنالك جدول مسموم . أحب كل ما هو نقي ، ولكنني احتمل رؤية الاشداق تتثاءب معلنة ظمأ الأرجاس ، وقد جاؤوا يسبرون أعمـــاق البئر بأنظارهم فانعكست في قرارتها ابتسامتهم الشنعاء توجه سخريتها إلي .

لقد دنسوا المياه المقدسة بأرجاسهم ، وما تورعوا فدعوا أحلامهم القذرة سروراً فدسوا سمومهم حتى في البيان .

إن اللهب يتعـــالى مشمئزاً عندما يعرضون قلوبهم المائعة عليه ، والروح نفسها تغلي وتتصاعد بخاراً عندمـــا يقترب الاوغاد من النار ، والأثمار نفسها يفسد طعمها وتتراخى عندما يلمسونها بأيديهم ، وإذا مـــا حدجوا بأنظارهم الاشجار المثمرة فانها لتجف على أعراقها .

لكم من معرض عن الحياة لم ينفره منها سوى الوغد الزنيم ، فعافها إذ لم يشأ أن يقاسم هذا الوغد ما عليها من مياه ولهب وأثمار .

لكم من شارد لجأ إلى الصحراء متحملاً السعار عائشاً بين الوحوش كيلا يجلس إلى بئر يدور بها حداة العيس بما عليهم من أقذار .

ولكم جـــاء الارض من مكتسح أشبه بالبرَد المتساقط من السحاب ولا أمنية له سوى ضرب قدمه في اشداق الأوغاد ليسد حناجرهم .

ما صعب عليّ الاعتقاد باحتياج الحيـــاة إلى العداء والقتل والاستشهاد كما صعب علي التسليم بضرورة وجود الوغد الزنيم فيها .

أمن ضرورة الحياة هذه الينابيع المسممة والنيران المشبوبة تفوح بالروائح الكريهة وهذه الأحلام الرجسة وهذه الديدان ترتعي في خبز الحياة ؟

ليس العداء ما قرض حياتي بـل الكراهية والاشمئزاز . ولكم استثقلت الفكر نفسه عندما رأيت شيئاً من الفكر في رأس الوغد الزنيم .

لقد وليت ظهري للحاكمين عندما ادركت معنى الحكم في هذه الأزمان وتأكدت انه متاجرة بالقوة ومساومة الأوغاد عليها .

استولى اليأس عليّ فاجتزت مراحل المـاضي والمستقبل وأنا أسد أنفي إذ انتشرت علي منهما روائح البيان السخيف .

لقد عشت طويلاً كالكسيح أصابـه الصمم والعمى والخرس كيلا اعايش أوغاد السلطة وزعانف الاقلام والمسرات .

ارتفع فكري درجة فدرجة وهو يعاني من حذره ما يعاني ولا عزاء له إلا بالغبطة ، وهكذا مرت حياة الأعمى وهو يتكأ على عصاه .

ما حدث لي يا ترى ؟ وما الذي انقذني من اشمئزازي وأعاد النور إلى عينيّ وكيف تمكنت من ارتقاء المرتفعات حيث الينبوع الذي يحيط به الاوغاد ؟

أهي الكراهة نفسها استنبتت جناحيّ وأوجدت لي القـوة للاهتداء الى مفجر الينابيع ؟ والحق انني ارتقيت الذروة ، ولو لم أبلغها لما وجدت ينبوع الغبطة والسرور .

لقد وجدته ، أيهـا الاخوة ، فرأيته يتدفق على الذروة غبطة وحبوراً ، فاهتديت إلى المكان الذي يتاح فيه للانسان أن يروي ظمأه دون أن يعكر عليه الاوغاد الادنياء .

انك لتستل بشدة أيها الينبوع المتفجر بالغبطة فتفرغ الكأس التي تملأها دهاقاً .

علي ان أتمرن على الاقتراب منك بتؤدة أيها الينبوع فان قلبي يندفع بعنف الى مسيلك . لقد إستولى اليأس مع الحبور على هذا القلب الذي تمر عليه بحرّها أيام صيفه فهو يتشوق إلى مياهك تنزل عليه برداً وسلاماً .

لقد انقضت أحزان ترددي في الربيع وأذاب الصيف ثلوج نقمتي ، فأصبحت وكل جوارحي تتوق الى الاصطياف . ان خير الراحة ما تنتجع في أعالي الجبال قرب الينابيع البـــاردة . إلي أيها الاصحاب لنحول هذه الراحة إلى غبطة وحبور فهذه ذروتنا ، وهنا موطننا حيث نعتصم بالصخور فلا يبلغها الأرجاس ولا يصل اليها عطشهم المدنس .

ارسلوا انظاركم الطاهرة على ينبوع مسرتي ، أيهـــا الاصحاب ، فانها لن تعكره بل تبقي على نقائه فيبتسم لكم .

هنا تتعالى دوحة المستقبل ، فلنبنِ لنا عشاً بين أغصانها فيجيء الينا العقبان حاملةً لنا الغذاء نحن المنفردين .

ذلك عزاء لا يستطيع الأرجاس مقاسمتنا إياه فهو النار تحرق أشداقهم . وما تعد هنا مساكن للمدنسين ، فان سعادتنا تلفح أجسادهم وأرواحهم . ونحن نريد أن نحيا فوقهم فنهب كالرياح في مسارح العقبان ومطالع الشموس .

اني سأعصف كالريح الصرصر على الارجاس فأخمد أنفاسهم بأنفاسي، ذلك هو المقدور . فما زارا إلا ريح عاصفة ترهق الأعماق ، وهو ينصح أعداءه وكل متقيء نافث بألا يبصقوا في وجه الريح .

هكذا تكلم زارا ...

العناكب

هذا هو العنكب ، فاذا كنت ترغب في مشاهدته فالمس نسيجه ليتحرك ويسرع بالظهور . أهلاً بك أيها العنكب ، إنني أرى ظهرك شعاراً أسود مثلث الزوايا ، وما يخفي عني أيضاً ما تضمره من النقمة في سريرتك .

ان للسعاتك بقعاً فاحمة على الجلود ، ولها سمها المضلل في النفوس ، أيها العنكب . انني اخاطبكم بالرموز ، أيها العناكب المضللون المبشرون بالمساواة ، فما أنتم في نظري إلا مستودعاً لعواطف الانتقام .

سأكشف عن مكانكم وأنا أواجهكم بقهقهة تسقط عليكم من الذرى التي اتسنمها . وهأنذا أمزق نسيجكم حتى اذا تملككم الغضب خرجتم من مغاور أكاذيبكم وتدفقت نقمتكم بكلمة العدل التي تتفوهون بها .

لقد وجب علي أن أنقذ الانسان من عاطفة الانتقام ، وهذا الواجب هو المعبر المؤدي الى أشرف الآمال ينتصب فوقه قوس قزح بعد هبوب العواصف الكاسحات . ولكن إرادة العناكب لا تتجه الى هذه الغاية ، فهم يتناجون فيما بينهم قائلين : لا عدل إلا في عواصف انتقامنا تهب على العالم لتلقي العار على كل من ليس منا .

وهم يقولون أيضاً : ما من فضيلة إلا في طلب المساواة ، فلنرفع عقيرتنا ضد كل سلطان .

آي كهان المساواة ! لقد تسلط عليكم جنون عجزكم ، فهتفتم بهذه المساواة وقد كمنت شهوة عتوكم واستبدادكم وراء ما تعلنون من الفضائل .

اني أرى فيكم الغرور المتمرمر والحسد المقيم ، ولعل الحسد الذي رعى قلوب أسلافكم يتعالى منكم الآن لهباً يندلع بجنون الانتقام ، وما الابناء الا مظهر ما أضمر الآباء . ولكم أفشى الابن سر أبيه !

ان لهؤلاء الناس مظهر المتحمسين ، وما تلهب حماستهم المحبة بل الانتقام . وإذا ما بدت لك منهم رصانة ومرونة ، فما مصدرهما فيهم العقل بل الحسد المهيب بهم الى التفكير . ودليل حسدهم هو انهم يندفعون دائماً الى أبعد من مراميهم فيطرحهم العياء على وساد الثلوج .

وما تسمع لهؤلاء الناس أنيناً يخلو من نبرات الانتقام ، فكل ما يصدر عنهم من مديح ينطوي على أذية ، فهم يرون منتهى السعادة في اقامة أنفسهم قضاة على العالمين . فاصغوا الى نصيحتي ، أيها الاصدقاء : احذروا من تغلبت عليهم غريزة انزال العقاب ، لأنهم متحدرون من أفسد الانواع وعلى وجوههم سيماء الجلادين .

احذروا من لا ينقطعون عن ذكر عدالتهم فان نفوسهم خالية من كل صفة حميدة ، وإذا مـــا هم ادعوا الصلاح والانصاف فلا تنسوا انهم لم يتخذوا بين الفريسيين مقامهم الا لما يشعرون به من عجز .

اني أرى بنفسي ، أيها الصحاب ، ان تنزلوها بين هؤلاء الناس فلا تميزوا بيني وبينهم ، فهنالك من يذيعون تعاليمي عن الحيـــاة وهم في الوقت نفسه ينادون بالمساواة وينتمون الى العناكب المسمومة ، هم يدافعون عن الحيـــاة ولكنهم يعرضون عنها قابعين فيمغاورهم ليتمكنوا من اجتراح الشرور والايقاع بمن يقبضون على زمام السلطة في هذا الزمان ، وقد تعودوا انذارهم بالسقوط ،

ولو ان السلطة كانت في يد العناكب لكانت تعاليمهم تتخذ شكلاً آخر ، لأنهم عرفوا فيما مضى ، أكثر مما عرف غيرهم ، كيف يوقدون المحارق ويرهقون مخالفيهم اضطهاداً وتعذيباً .

لا اريد أن احسب من هـؤلاء المنادين بالمساواة لأن العدالة علمتني : « ان لا مساواة بين الناس » وانه من الواجب ألا يتساووا ، وليس لي أن أقول بغير هذا المبدأ وإلا فان محبتي للانسان تصبح ادعاءً وميْناً ...

على الناس أن يسيروا على آلاف الطرق وآلاف المعابر مسارعين نحو آتي الزمان فتنشأ بينهم الحروب وتتسع شقة التفاوت بينهم على مر السنين ، ذلك ما الهمني اياه حبي العميم .

يجب أن يقيم الناس في أعماق سرائرهم مثلاً علياً وأشباحاً يجاهدون في سبيلها فيسير الصالح والطـالح والغني والفقير والرفيع والوضيع الى التصادم بجميع ما في الارض من نظم فتضطرم الحروب سلاحاً لسلاح ورمزاً لرمز لأن على الحياة أن تتفوق أبداً على ذاتها .

ان الحياة تتجه الى الارتقـــاء بدعائمها ودرجاتها ، فهي تتطلع الى الآفاق البعيدة ما وراء الجمال المقتعد عرش غبطته ، لتبلغ مستقرها في أعالي الذرى .

ان الحياة بحاجة الى ارتقاء المرتفعات، فلا غنى لها عن الدرجات والدركات ليعارض المنخفضون المرتفعين، انها لفي حاجة الى التفوق على ذاتها وهي متجهة الى الارتقاء .

انظروا ، ايها الصحاب ، ها هي مغارة العناكب وقد لاحت فيها خرائب هيكل قديم فأرسلوا عليه نظرات المستلهمين .

والحق ان من جمع أفكاره قديماً ليرفعها صرحاً من الصخر ينطح السحاب كان كأحكم الحكماء عارفاً بأسرار الحياة .

ان الجمال نفسه ليقوم على التفاوت والجـــالدة في القوة والتفوق ، وهذا ما يعلمنا اياه هذا الحكيم بأشد الرموز اشراقاً .

هنا تتدافع القبــاب والنوافذ في عراك جلل فتهاجم الظلمة النور ويهاجم النور الظلمة ، انهما الهان ينازل أحدهما الآخر .

اقتدوا بهذا الرمز ، أنتم أيضاً ، في مجال الجمال والثقة بالنفس . لنكن نحن أيضاً أعداء فيما بيننا أيها الصحاب .

وليحشد كل منا قواه ليحارب الآخرين .

ويلاه ! لقد أصبت أنا أيضاً بلسعة العنكبة عدوتي القديمة فقد توصلت بثقتها بنفسها وبجمالها الالهي إلى نيل بناني بلسعتها ، وها هي تقول الآن : لا بد من انزال العقاب ، لا بد من أن يأخذ العدل مجراه ، فانك تغنيت بعظمة السرائر ، فلن يذهب انشادك جزافاً .

أجل لقد انتقمت ، ويلاه ! انها ستوجه نفسي إلى عاطفة الانتقام .

تقدموا أيها الصحاب وقيدوني بهذا العمود كيلا أتحول عن مبدئي فخير لي أن أصبح تمثالاً جامداً من أن أهبّ كعاصفة منتقمة .

لن يكون زارا عاطفة واعصاراً ، فمــا هو إلا رقاص ولكنه ليس رقاص عناكب [1] .

---

(١) ما تخبط زارا بمثل تخبطه في هذا الفصل ، فهو القائل بسحق الضعفاء وتطهير الارض من الدخلاء أو الذين يدعوهم بهـذا الاسم ولكنه الآن لا يريد أن يكون عاصفة واعصاراً ، فهو يكتفي بأن يكون رقاصاً لا نتيجة لحركته عندما يقتحم مبدأه نصرة الضعفاء والمطالبة بحق الشعوب ، غير انه لا يصل إلى آخر فصله حتى ينقض بعبارة واحدة كل ما أراد اثباته .

جميعكم أيها الحكماء المتمتعون بالشهرة ، قد خدمتم الشعب وما يؤمن به من خرافات ، ولو انكم خدمتم الحقيقة لما كرمكم أحد ، ومن أجل هذا احتمل الشعب شكوكم في بيانكم المنمق لأنها كانت السبيل الملتوي الذي يقودكم اليه . وهكذا يوجد السيد لنفسه عبيداً يلهو بضلالهم الصاخب . وما الانسان الذي يكرهه الشعب كره الكلاب للذئب إلا صاحب الفكر الحر عدو القيود الذي لا يتعبّد ولا يلذ له إلا ارتياد الغاب .

ان ما حسبه الشعب في كل زمان روحاً للعدل إنما هو العدل الكامن المترصد لروح الحرية يستنبح عليه أشد كلابه افتراساً ، وقد قيل في كل زمان « لا حقيقة إلا في الشعب فويل لمن يطلبها خارجاً عنه » .

لقد أردتم أن تؤيدوا الشعب في ما يبدي من خشوع وإجلال ، فدعوتم هذه المذلة « إرادة الحق » فيا لكم من حكماء !

غير انكم كنتم تقولون في أنفسكم لقد نشأنا من الشعب وصوت الشعب هو صوت الله ، فكنتم كالحمار الصبور المراوغ تعرضون وساطتكم على الشعب ، ولكم من ذي سلطان أراد أن توافق عجلته ذوق الشعب فقطر لجرّها حماراً صغيراً ، حكيماً مشهوراً ...

فيا مشاهير الحكماء ، انني أطلب منكم أن تخلعوا عنكم ما تتلبسون به من جلود الاسود وجلود الوحوش الكاسرة المخططة وفراء المستكشفين للمجاهل والفاتحين . إذ لا يسعني أن اؤمن بالحقائق التي تنادون بها ما لم تقلعوا عن بذل التبجيل والتعظيم ، فما رجل الحق إلا الضارب في القفار ولا إله له لأنه حطم بين جنبيه التبجيل والتعظيم ، وإذا هو تلفت ورمال الصحراء تحرق قدميه إلى الواحات حيث يتدفق الماء الزلال ، ويمتد وارف الظلال ، وترتاح الحياة ملقية

عصا الترحال ، فلا يقتاده الظمأ إلى الاتجاه نحو ... با للاغتباط بين المغتبطين لأنه يعلم ان لكل واحة اصنامها ، وما يريد الاسد إلا الانفراد محرراً من عبودية الارباب ومن سعادة المستبدين ، بعيداً عن الآلهـــة والمتعبدين وعن الخوف ومنزليه في القلوب ، ذلك ما يصبو رجل الحق اليه . ومــا عاش رجال الحق إلا في القفار يسودونها بانطلاق تفكيرهم في مجالها الوسيع . وهل في المدن إلا مشاهير الحكــاء يتناولون خير الغــذاء كذوات الضرع تتغذّى لتحلب ؟ انهم يجرُّون عجلة الشعب وقد كدنوا بها كالحمير .

وما أنا بالناقم عليهم ولكن ليعلموا انهم خدمٌ مشدودون إلى عجلة ومــا يرقع من ذلهم توهج الذهب على العجلة التي يجرونها .

ولطالما أخلص هؤلاء الناس في خدمتهم فاستحقوا الثناء لأن الحكمة تقضي بأن يفتش الخادم عن سيد يستفيد من خدماته .

لقد وجب أن يتسامى عقل سيدك وتعلو فضيلته لأنك بهما تعلو أنت .

والحق انكم قد علوتم بارتقاء عقل الشعب وفضيلته ، أيها الحكماء الخادمون للشعب ، كما اعتلى هو بكم ، وما أعلن هذا لتمجيدكم ، فانكم قد بقيتم أنتم شعباً حتى في فضائلكم ، وما تزالون شعباً لا بصيرة له ولا يدرك للعقل معنى .

انما العقل حياة تمزق الحياة تمزيقاً ، وما تزداد الحياة معرفة إلا بمــا تتحمل من آلام ، فهل كنتم لهذه الحقيقة عارفين ؟

لا يسعد العقل إلا إذا مسح بالدموع وتوج بالتضحية ، فهل كنتم لهذه الحقيقة عارفين ؟

ان عماء الضرير وتلمسه لطريقه انما هو شهادة لقوة الشمس ، التي حدّق بها ، فهل كنتم لهذه الحقيقة عارفين ؟

على طالب المعرفة أن يتعلم البناء باستخدامه الجبال حجارة لاقامة صرحه ،

وما يصعب على العقل أن ينقل الجبال ، فهل كنتم لهذه الحقيقة عارفين ؟

انكم لا تلمحون من العقل إلا ما يقف به من شرر ، فلا تعرفون أي سندان هو هذا العقل ، ولا تعرفون أيضاً قساوة المطرقة التي تتهاوى عليه .

والحق انكم تجهلون كبر العقل ويصعب عليكم احتمال تواضعه لو أراد تواضع العقل أن يعلن حقيقته .

انكم ما تمكنتم في أي زمان من ارسال عقلكم إلى مهاوي الثلوج ، فما بكم الحرارة الكافية لاقتحامها ، ولذلك لا تدركون لذة من تنعشه لفحات هذه المهاوي ، غير انني أراكم بالرغم من هذا تقدمون على مداعبة التفكير ، وقد جعلتم الحكمة ملجأ ومستشفى للمتشاعرين ...

لستم عقباناً أيها الحكماء المشتهرون ، فأنتم إذاً لا تدركون ما يلذ العقل من لذة في ارتياعه ، فلا يحق لغير المجنح أن يخترق الهواء فوق الوهاد .

ما أنتم إلا فاترون أيها الحكماء ، وفي كل معرفة عميقة يهب تيارٌ من الصقيع لأن ينابيع العقل الخفية باردة كالثلج ولا تلذ ببردها غير الأيدي الملتهبة بحرارة جهادها .

انني أراكم أمامي أيها الحكماء المشتهرون ملفعين بقساوتكم جامدين على غروركم فما للريح أن تدفعكم ولا للارادة أن تهيب بكم إلى الإقدام .

أما رأيتم على مضطربات الأمواج شراعاً خفاقاً يندفع وقد عصفت في ثنياته هوجاء الرياح ؟ ان حكمتي تجتاز العمر خافقة كهذا الشراع وقد ملأتها عواصف التفكير ، تلك هي حكمتي الشاردة النفور . فهل لكم أن تجاوروني في اندفاعي أنتم يا من تخدمون الشعب ، أنتم مشاهير الحكماء ؟

هكذا تكلم زارا ...

نشيد الليل

لقد أرخى الليل سدوله فتعالى خرير المياه المتدفقة ، ولنفسي أيضاً ينبوعها المتفجر .

لقد أرخى الليل سدوله فتعالت الأناشيد من أفواه جميع المغرمين ، وما روحي إلا نشيد من هذه الأناشيد . ان في داخلي قوة ثائرة تريد اطلاق صوتها وهي شوق إلى الحب بيانه بيان المغرمين . أنا نور وليتني كنت ظلاماً ، وما قضي علي بالعزلة والانفراد إلا لأنني تلفعت بالأنوار . ولو انني كنت ظلاماً ، لكان لي أن ارسل بر كتي اليك أيتها النجوم المتألقة كصغيرات الحباحب في السماء فأتمتع بما تذرّين علي من شعاع . غير انني أحيا بأنواري فأتشرب اللهب المندلع من ذاتي وقد حرمت لذة الآخذين ، وقد خطر لي مراراً ان في السرقة من اللذة ما ليس في الأخذ .

ان يدي لا تقف عن البذل وذلك هو فقري ، فأنا أنظر أبداً إلى العيون يملأها الانتظار وإلى الليالي تلهبها الأشواق ، وذلك هو الحسد الذي يقض مضجعي .

يا لشقاء الواهبين ... يا لظلمة شمسي ويا لشوقي إلى الاشتياق ويا لشدة المجاعة في شمعي ؟

انهم يأخذون ما أهبهم ولكنني أبقى بعيداً عن أرواحهم ، فان بين الباذل والآخذ هوة عميقة ، ولعل أقرب الاغوار قعراً أصعبها ردماً .

ان نوعاً من الجوع ينشأ في احشائي فيحفزني إلى ايلام من أرسل اليهم أنواري فأتوق إلى سلب من أغدق عليهم هباتي ، وهكذا اتعطش إلى ايقاع الأذية فأرد يدي بعد أن أكون مددتها وأتردد تردد الشلال في تدفقه نحو مراميه .

ان مثل هذا الانتقام يراود عظمتي ، ومثل هذا المكر ينشأ من عزلتي .

لقد فقدت السعادة في العطاء لوفرة مـــا أعطيت وقد زهقت فضيلتي من نفسها ومن جودها . ان من يستمر على بذل الهبات مهدد بفقد الحياء . ولا بد أن تتصلب راحته ويتصلب قلبه .

لم تعد مآقي تذرف الدموع على خجـل المسترحمين وها ان يدي قست حتى امتنع عليها أن تشعر بارتعاش الايدي إذا امتلأت .

أين هي دموع عيني وأين رقة قلبي ؟ فيا لوحدة جميع الواهبين ويا لصمت كل متلفع بالسناء !

شموساً لا عداد لها تدور في قفار الاجواء مخاطبة باشعاعهــا لبدات الظلام وأنا وحدي محروم من حديث هذه الشموس وبيانها .

ويلاه ! أية علاقــة يمكن أن تربط الانوار بالاجرام المنيرة من نفسها ؟ فان الانوار تمر عليها وهي تحدجها بلفتات الجفاء وتمضي ذاهبة في سبيلها ، وهكذا تسير جموع الشموس في أجوائهــا نافرة من كل جرم منير باردة لا تحس اخواتها بحرارتها .

ان الشموس تندفع كالعاصفات في ابراجها متبعة ما اختطته ارادتها الجبارة وفي ذلك كتمان حرارتها وبرودتها .

هل غيرك أيتها الأجرام الملفعة بظلام الليــل من يخلق حرارة من اللمعان ؟ أنت وحدك ترضعين أفاويق القوة من أثداء النور .

ويلاه ! ان الصقيع يدور بي ويدي تحترق من لفحات الجليد ، فأنا مشتعل بسُعار لا يطفىء أوراه غير عطشكم . لقد سادت الظلمة فلماذا قضي علي أن أكون نوراً منفرداً متعطشاً إلى الظلام ؟

لقد سادت الظلمة فتدفقت كالجداول اشواقي وهي تريد أن تهتف بما تضمر .

لقد أرخى الليــل سدوله فتعالى خرير الميـــاه المتدفقة ، ولنفسي أيضاً ينبوعها المتفجر .

لقد أرخى الليل سدوله فتعالت الاناشيد من أفواه جميع المغرمين ، وما روحي إلا نشيد من هذه الاناشيد .

هكذا تكلم زارا ...

نشيد الرقص

ومر زارا بالغاب يوماً ومعه صحبه فاكتشف وهو يفتش عن ينبوع مرجاً منبسطاً بين الاشجار والادغال . وكان هنالك رهط من الصبايا يرقصن بعيداً عن أعين الرقبـــاء . وإذا لمحن القادم وعرفته توقفن عن الرقص ولكن زارا اقترب منهنّ وخاطبهنّ قائلاً :

– داومن على رقصكنّ ، ايتها الآنسات الجميلات ، فما القادم بمزعج للفرحين وما هو بعدو للصبايا . أنا من يدافع عن الله أمام الشيطان ، وما الشيطان إلا الروح الثقيل ، فهل يسعني أن أكون عدواً لمـا فيكنّ من بهاء ورشاقة وخفة روح ؟

لا ريب في انني غـــابة اشتبكت فيها قاتمات الاشجار وساد الحلك على أرجائها ، ولكن من يقتحم ظلماتي بلا خوف ليجدنّ تحت سرواتي الرهيبات طرقاً تحف بجانبيها الورود . وليجدن أيضاً الإله الصغير الذي تشتاقه الصبايا منطرحاً بسكون قرب الينبوع وقد أغمض عينيه .

لقد نام في وقت الظهيرة ، هذا الإله المتراخي ، ولعله سعى طويلاً ليصطاد من الفراشات عدداً كبيراً .

لا يكدّرنكن مني أيتها الراقصات الجميلات تأديبي لهذا الإله الصغير ، ولعله يصيح ويبكي ولكنه إله يجلب المسرة حتى في بـــكائه فلسوف اقتاده اليكن والدموع سائلة على خديه ليطلب اليكنّ أن تراقصنه ، وإذا ما رقص فسأرافقه

أنا بانشادي فما تجيء نغماتي إلا هزيجاً اصفع به الروح الثقيل، روح الشيطان المتعالي الذي يقول الناس انه يسود العالم .

وهذه هي الاغنية التي رفع زارا صوته بها بينما كان « كوبيدون » إله الحب يرقص مع الصبايا الفاتنات :

« لقد حدقت يوماً في عينيك ، أيتها الحياة ، فحسبتني هويتُ إلى غور بعيد القرار . غير انك سحبتني بشابك من ذهب واطلقت قهقهة ساخرة عندما قلتُ ان غدرك لا قرار له . واجبتني : هذا ما تقوله الأسماك جميعاً ، فهي إذ تعجز عن سبر الأغوار تحسبها لا قرار لها . وهل أنا إلا المتقلبة النفور ؟ وهل أنا إلا امرأة ، وامرأة لا فضيلة لها ؟ لقد تقوّل الناس كثيراً عن صفاتي ولكنهم أجمعوا على انني غير المتناهية ، المليئة بالاسرار .

أيها الناس ، انكم ترون فضائلكم فيّ ، فأنتم لا قبل لكم بادراك شيء آخر غيرها أيها الفضلاء ...

هذا ما كانت تقهقه به في سخريتها تلك الحياة ، غير انني لا اثق بها ولا اصدق ضحكها عندما تهجو نفسها .

وناجيت يوماً حكمتي النفورة فقالت لي غاضبة : — انك تطلب الحياة وتشتاقها وتحبها وذلك ما يحفز بك إلى بذل الثناء عليها .

ولولا أنني تمالكت نفسي لكنت رددت بعنف على حكمتي وأعلنت الحقيقة لها وهي تغاضبني، وهل من جواب أشد وقعاً على الحكمة من أن تهتك سرائرها ؟

ما أحب شيئاً من صميم الفؤاد إلا الحياة ، ولا يبلغ حبي لها أشده إلا حين أكرهها . وإذا ما اندفعت إلى الحكمة واغرقت في الالتجاء اليك فما ذلك إلا لأنها تبالغ بتذكيري بالحياة . فان للحكمة عيني الحياة ولها ابتسامتها ، بل لها أيضاً شابكها المذهّب ، فما حيلتي إذا تشابهتا إلى هذا الحد ؟

وعندما سألتني الحياة عن الحكمة أجبتها : هي الحكمة يشتهيها الانسان بكل قوته ولا يشبع منها . فهو يحدق فيها ليتبين وجهها من وراء القناع ويمد أصابعه بين فرجات شباكها متسائلاً عن جمالها وما يدريه ما هو هذا الجمال . ومع هذا فان أقدم الاسماك لا تنفك عن الانجـــذاب إلى طعمة شباكها فهي متقلبة شديدة المراس ، ولكم رأيتهـا تعض على شفتها وتسرح شعرها ، ولعلها شريرة ومخادعة ، بل لعل لها صفات المرأة بأجمعها فهي لا تبلغ أبعد مداها في اجتذاب القلوب إلا عندما تهجو ذاتها .

وبعد ان قلت هذا عن الحكمة للحياة ، مرت على شفتيهـا ابتسامة شريرة وغيّضت من جفنيها قائلة : — عمن تتكلم ؟... لعلك تتكلم عني أنا ... وهل للانسان أن يعلن مثـــل هذه الامور بوجه من تعنيه حتى ولو كان محقاً ؟ فما قولك الآن في حكمتك يا هذا ؟...

وفتحت الحياة المحبوبة عيناها فحسبتني عـــدت إلى التدهور في الهاوية البعيدة القرار .

هذا ما تغنى به زارا . وما انتهى الرقص وتوارت الصبايا عن أبصاره حتى تملكه حزن عميق فقال : لقد اختفت الشمس وترطب المرج وقد بـدأ الغاب يرسل لفحاته الباردات . ان شيئاً مجهولاً يدور حولي ويحدجني قائلاً : — ألم تزل على قيد الحياة يا زارا ؟ ولماذا أنت حي بعد ؟ وما هي فائدة هذه الحياة؟ ما هو مصدرك وإلى أين مصيرك ؟ أفليس من الجنون أن تبقى في الحياة ؟

ويلاه أيها الاصحاب ، ان مـــا يتناجى فيّ إنما هو الغسق فاغتفروا لي شجوني ، لقد جاء المساء فاغتفروا لي قدوم المساء ...

هكذا تكلم زارا ...

هنالك جزيرة القبور ، جزيرة الصمت والسكون ، وهنالك أيضاً أجداث شبابي فلأحملن اليها اكليلاً من الازهار الخالدات .

بهذا ناجيت نفسي ، فقررت ان اقتحم الغمر .

يا لصور الشباب وأشباح أحلامه ، يا للحظات الغرام ! يا لأويقات الحياة الالهية ! لقد ترامبت سريعـاً إلى الزوال ، فأصبحت استعرض ذكرياتك كما استعرض خيال الأحبة الراقدين في القبور .

ان نفحات الطيب تهب منك يا أعز المضيعات فترّوح عن قلبي وتستقطر مدامعي ، انها لنفحات تستنبض قلب العائم وحيداً على العباب .

أنا المنفرد أراني أغنى الناس وأجدرهم بالغبطة لأنـك كنتِ لي يوماً أيتها الذكريات ولمـــا أزل أنا لك ، فقولي لي : على مَ تساقطت ثمراتك الذهبية عن أغصانها ؟

انني لم أزل منبتاً لغرامـك الذي أورثتنيه يا أيام الشباب وبذكرك تنوّر فضائلي بعد وحشتها بعديد ألوانها الزاهية .

وا أسفـاه ! ما كان أولاك بألا تفارقيني ، أيتها الأيام الساحرات ، فقـد اقتربت إليّ وإلى شهـــواتي لا كأطيار يسودها الذعر بل كأطيار تستأنس بالواثق بنفسه .

أجل لقد كنتِ معدة مثلي للبقاء على العهد إلى الأبد ، يا أويقات الشباب ، وليس لي أن أدعوك خائنة وقد وصفتك بالأويقات الالهية . لقد مررت سراعاً أيتها الأويقات الهاربات وما هربت مني ولا أنا هربتُ منك فمـا أنا مسؤول ولا أنت أيضاً عن خيانتك وعن خيانتي .

لقد أماتوك طلباً لقتلي ، يا أطيار آمالي ، وصوّبت الشرور سهامها نحوك

لتصل مخضبة بالدماء إلى قلبي فأصابت هذه السهام مقتلا مني لأنك كنت أعز شيء لدي بل كنت كل ما أملك ، لذلك 'قضي علي بالذبول في صباك والزوال قبل أوانك .

لقد صوّبت السهام اليك وأنت أنعم من الحرير وأضعف من ابتسامة تمحوها نظرة قاسية .

فليسمع أعدائي ما أقول :

— ان القتل أخف جرماً من جنايتكم علي ، فقد سلبتموني ما لا قبل لي بالاستعاضة عنه بشيء ، ذلك ما أقوله لكم ، أيها الأعداء . أفما قتلتم أحلام شبابي وحلتم دون اتياني بمعجزاتي ؟ لقد سلبتم مني تفكيري ، وهأنذا أحمل هذا الاكليل لتذكاره حاملا معه لعنتي لكم أيها الأعداء ، لأنكم قصرتم مدى ابديتي فانقطعت كأنها صوت ينقطع في الزمهرير تحت جنح الظلام فما تسنى لي أن أنظر إلى هذه الأبدية إلا لمحاً لأنها توارت عني بطرفة عين .

وأتت ساعة تاجتني فيها طهارتي قائلة :

— يجب أن تكون جميع الكائنـات إلهية ، وأنتِ أرسلتِ إليّ الاشباح المدنسة يا أيام الشباب ، فانقضت تلك السانحة وعـادت حكمة الشباب ، تقول لي : « يجب أن تكون جميع الأيام مقدسة في نظري » وما هذه الكلمة إلا كلمة الحكمة المرحة .

وعندئذ أتيتم أيها الاعداء فحولتم ليـالي راحتي إلى أرق وهموم ، فأين توارت هذه الحكمة المرحة ؟

لقد كنت فيما مضى أتوقع السعادة فأرسلتم على طريقي بومة مروعة مشئومة فتبددت أمانيّ العذاب .

نذرت يوماً أن ارتجع عن كل كراهة ، فحولتم كل مـا حولي إلى قروح ، فأين مضت مخلصات نذوري الطاهرات ؟

لقــد مررت على سبيل السعادة كفيف البصر فرميتم على طريق الأعمى كوماً من الأقــذار فأصبحت كارهاً للطريق القديم الذي تلمسته . وعندما توصلت إلى القيام بأصعب أعمــالي ، عندما تمكنت من الاحتفال بالانتصارات التي تغلبت فيها على ذاتي أهبتم بمن يحبونني إلى الهتــاف قائلين بأنني أوقعت بهم أشد الآلام .

والحق انكم لم تنقطعوا عن تشريد خير العاملات في قفيري وتحويل جناها إلى علقم مرير ، ولكم ارسلتم إلى احساني أشد المتسولين الحاحاً ودفعتم أهل القحة ليطوفوا باشفاقي ، وهكذا نلتم من فضيلتي وهي ممنّعة بايمانها .

وكنتم كلما قدمت أقدس ما عندي محرقة للتضحية تسارعون في تقواكم إلى احراق ادسم ذبائحكم لتتصاعد أبخرة شحمها مدنسة خير ما قدست .

وطمحت يوماً إلى الرقص متعالياً بفني إلى ما وراء السبع الطباق فأفسدتم علي أعز المنشدين لدي ، فرفع عقيرته بأفظع الأناشيد وقرع اسمــاعي بنغمات الابواق الحزينة الباكية .

لقد كنت قاتلاً أيها المنشد البريء ، إذ غدوت آلة في يــد الغدر فقضت نغماتك على خشوعي بينما كنت أتهيأ للقيام بأروع رقصي .

ما أنا بالمعبر عن أسمى المعاني بالرموز إلا عندما أدور راقصاً ، لذلك عجزت اعضائي عن رسم أروع الرموز بحركاتها ، فارتج علي وامتنع علي أن أبوح بسر آمالي . لقد ماتت أحلام شبابي وفقدت معانيها المعزيات .

انني لأعجب من تحملي هذه الصدمات وأعجب لصبري على ما فتحت فيّ من جراح ، فكيف أمكن لروحي أن تُبعث من مثل هذه القبور ؟

أجل ان فيّ شيئاً لا تنال منه السهام مقتلاً ، ولا قبــل لأحد بدفنه لأنه يزحزح الصخور عنه فتتحطم ، وما هذا الشيء إلا ارادتي ، والارادة تجتــاز مراحل السنين صامتة لا يعتريها تحــول وتغير . ان ارادتي قديمة لا تني تدفع

قدمي إلى السير فهي القوة المتصلبة المتعالية عن الفناء .

ليس فيّ من عضو لا يصاب إلا قدمي السائرة إلى الامام تدفعها هذه الارادة الثابتة الصامدة المتجلدة التي تخترق المدافن دون أن تنطرح تحت لحودها .

ان فيك وحدك يا ارادتي يصمد ما لا تبدده أيام الشباب ، فأنت لا تزالين حية وفتية تملأك الآمال ، تجلسين على ركام المدافن وقد طبع الزمـــان عليها قبلاته الصفراء . انك لن تزالي أيتهـــا الارادة هدامة لجميع القبور ، فسلام عليك يا ارادتي لأنه لا بعث حيث تكون القبور .

هكذا تكلم زازا ...

الانتصار على الذات

ليست ارادة الحق في عرفكم أيهـــا الحكماء إلا تلك القـوة التي تحفزكم وتضطرم فيكم ، تلك هي ارادتكم التي اسميهـا أنا « ارادة تصور الوجود » فانكم تطمحون إلى جعل كل موجود خاضعــاً لتصوركم ، وأنتم تحاذرون بحق أن يكون هذا الوجود قـد أحاط به التصور من قبل فتريدون أن تخضعوا لإرادتكم كل كائن لتتحكوا فيه بالصقل ليصبح مرآة تنعكس عليهـا صورة العقل .

هذا ما تطمحون اليه ، يا أحكم الحكماء ، وتلك هي ارادتكم تجاه القوة والخير والشر وتقدير قيم الأشياء .

انكم تريدون خلق عالم يمكن أن تجثوا أمامه ، تلك هي نهاية نشوتكم وآخر أمنيـــة لكم . ولكن البسطاء الذين يدعون شعباً يشبهون نهراً تخوضه ابداً ماخرة تقل الشرائع ، وقـــد جلسن عليها بعظمة وأنزلن على وجوههن الحجاب .

لقد أرسلتم ارادتكم وشرعتكم على نهر الزمان ، ولكن ارادة القـــوة مثلث أمامي و كشفت لي حقيقة الخير والشر في اعتقاد الشعوب .

وهل سواكم ، أيها الحكماء ، من أنزل بارادته المتسلطة هذه الشرائع الماخرة وقد حليتموهن بالجواهر وأسبغتم عليهن أروع الأسماء ؟

لقد سار النهر يحملهن بانسيابه وسهم الماخرة يشق أمواجـه ، ومن يبالي بالموجة تقاوم عبثاً في ارغائها وازبادها ؟

ان الخطر الذي يتهدد خيركم وشركم لا يكمن في النهر ، أيهـا الحكماء ، بل الخطر كل الخطر في ارادة القوة نفسها لأنها الارادة الحية الدائمة المبدعة .

ان ما سأقوله عن الحيـــاة سيوضح لكم اعتقادي في الخير والشر عندما أتناول ببياني ما تفعل العادات في الاحياء .

لقد سايرت الكائن الحي على معابره وأشواطه لأتعرف إلى عاداته ، وعندما كانت الحياة صامتة نصبت أمامها مرآة بألف ضلع لاستنطق عينيها فكلمتني لحاظها .

في كل مكان عثرت فيه على حي ، طرقت اذني كلمات الطاعة ، فما من حي يتعالى عن الخضوع ، وعرفت أيضاً ان ليس من محكوم في الحيـــاة سوى من لا قبل له باطاعة نفسه ... تلك هي عادة كل حي ...

وهذا ما سمعت أخيراً . أن تولي الحكم أصعب من الطاعة لأن الآمر يحمل أثقال جميع الخاضعين له و كثيراً ما ترهق هذه الاثقال كواهل الآمرين .

ان في كل أمر خطراً ومجازفة ،وكل مرة يصدر الحي فيها أمراً يقتحم خطراً .

وإذا ما تحكم الحي في ذاته فـانه يؤدي جزية لسلطانه إذ يصبح قاضياً ومنفذاً وضحية للشرائع التي يستنها .

وتساءلت عن علة الامور وعن القوة التي ترغم الحي على الانقياد والتحكم

فتجعله خاضعاً حتى إذا حكم . ولعلني توصلت إلى سبر قلب الحياة إلى الصميم ، فاصغوا إلى قولي أيها الحكماء .

لقد تيقنت وجود ارادة القــوة في كل حي ورأيت الخاضعين أنفسهم يطمحون إلى السيادة لأن في ارادة الخاضع مبــدأ سيادة القوي على الضعيف ، فارادة الخاضع تطمح إلى السيادة أيضاً لتتحكم فيمن هو أضعف منها ، وتلك هي اللذة الوحيدة الباقية لها فلا تتخلى عنها .

وبما ان الاضعف يستسلم للأقوى والاقوى يتمتع بسيادته على هذا الاضعف فان الاقوى يعرض نفسه للخطر في سبيل قوتــه فهو يجازف بحياته مستهدفاً للأخطار .

ان ارادة القوة كامنة حتى في مجال التضحية والخدمة المتبادلة وبين نظرات العاشقين ، لذلك يتجه الأضعف إلى السبل الملتوية قاصداً اجتياز الحصن والتربع في قلب الأقوى مستولياً على قوته .

لقد أودعتني الحياة سرها قائلة : لقد تحتم عليّ أن أتفوق أبداً على ذاتي ، وانكم لتحسبون هـــذا الاندفاع إرادة ابداع أو غريزة تحفز بي إلى الهدف الأسمى والأبعد منالاً بعديد جهاته ، في حين انــه ليس هنالك إلا جهة واحدة وسر واحد . وانني لأفضل العدم على التحول عن هذه الوحدة .

والحق انكم حيث تشهدون انحداراً وسقوط أوراق من الأدواح ، فهنالك تشهدون تضحية الحياة من أجل القوة .

لقد وجب عليّ أن أكون أنا الجهاد والمستقبل والهدف وأن أكون في الوقت نفسه الحــائل الذي يعترضني في انطلاقي إلى هدفي ، لذلك لا يعرف الانسان الطريق المتعرجة التي عليه أن يسلكها إذا هو لم يدرك حقيقة ارادتي .

مهما كان الشيء الذي أبدعه ومهما بلغ حبي له فان عليّ ان انقلب له خصماً ، وأتحول عن حبي وحناني ، ذلك ما قضته إرادتي عليّ .

ما عثر على الحقيقة من قال بارادة الحيـاة ، لأن مثل هذه الارادة لا وجود لها ، وليس للعدم إرادة كما ان المتمتع بالحياة لا يمكنه أن يطلب الحياة .

ولا ارادة إلا حيث تتجلى حيـــاة ، ومع هذا فان ما أدعو اليه ان هو إلا إرادة القوة لا ارادة الحياة .

ان هنالك أموراً كثيرة يراها الحي أرفع من الحياة نفسها ، وما كان ليرى أشياء أفضل من الحياة ، لو لم تكن هنالك ارادة القوة .

هذا ما علمتني اياه الحياة يوماً ، وأنا بهـذا التعليم أهتك أسرار قلبكم ، أيها الحكماء ، فأقول لكم : انـه ليس هنالك من خير دائم وشر دائم ، لأن على الخير والشر كليهما أن يندفعا أبداً إلى التفوق والاعتلاء .

وأنتم أيها الواضعون للقيم أقدارها بمقاييسكم وموازينكم وبما تقولونه عن الخير والشر هل كان لكم أن تفعلوا هذا لو لم تكن لكم ارادة القـوة ؟ وما تطمحون في أعماق ضمائركم إلا إلى الشهوة والشعور بتأثركم وفيضان أرواحكم . انكم تجهلون ان في الامور التي تخضعونها لتقديركم قوة أعظم من تقديركم تنمو وتتفوق على ذاتها لتحطم غلافها وقشورها ، فمن أراد أن يكون مبدعاً سواء أكان في الخـير أم في الشر فعليه أن يبدأ بهدم مـــا سبق تقديره وبتحطيمه تحطيماً . وهكذا فإن أعظم الشر يبدو جزءاً من أعظم الخير ، ولكن هذا الخير لم يعطك ادراكه إلا للمبدعين .

لقد حق علينا القول أيها الحكماء ، مهما كلفنـا الجهر به ، فان الصعب أن وطأة علينا ، لأن كل حقيقة تكتمها إنما تتحول إلى سم زعاف فينا ، فلتحطم الحقائق التي نجهر بها ما يمكنهـا ان تحطم فإن هنالك أبنية عديدة يجب علينا أن نرفعها .

هكذا تكلم زارا ...

إن فيّ بحراً هدأت أعماقه ، فمن يظن انه يخفي مسوخاً دأبها المزاح ؟ ان اغواري صامدة لا تتزعزع، غير أنها تماوج بالمعميات وتتجاوب فيها من الضحك نبرات وأصداء .

رأيت اليوم رجلاً من العظماء الاجلاء الذين يكفرون من أجل الروح فاستغرقت روحي في ضحكها هازئة بقبحه . غير ان هذا العظيم لم يبد ، ولم يعد ، بل انتفخ صدره كمن يتنفس الصعداء ، فلاح لي بحقائقه المروعة وبأثوابه الممزقة غصناً كله أشواك وليس فيه ورود .

ما تعلم هذا القناص الضحك ولا عرف الحال ، فإنه راجع من غاب المعرفة أغبر الوجه بعد أن صارع فيها الوحوش فانطبعت صورهم على سيمائه. فهو كالنمر يتحفز للوثوب ، وما أحب مثل هذه الارواح المنقبضة على ما تضمر .

تقولون ، أيها الصحاب ، انه لا جدال في الذوق وفي الألوان فكأنكم تجهلون ان الحياة بأسرها نضال من أجل الاذواق والالوان .

ما الذوق إلا الموزون والميزان والوازن .. فويل لكل حي يريد أن يعيش دون نضال من أجل الموزونات والموازين والوازنين .

ليت هذا الرجل العظيم يتعب من عظمته ليظهر الجمال فيه ، فإنه في ملاله من هذه العظمة يستحق أن أتذوقه فأجد له طعماً .

إذا لم يتحول العظيم عن نفسه فلا يمكنه أن يقفز فوق خياله لتغمره أشعة شمسه . لقد تفيأ الظل طويلاً ، هذا المكفر من أجل الروح ، فشحب وجهه وكاد في انتظاره أن يموت جوعاً، وهذه عينان تشعان بالاحتقار وشفتاه تتبرمان بالاشمئزاز ، انه يلتمس الراحة الآن ولكنه لم ينطرح تحت الشمس بعد .

ليت هذا الرجل يتمثل بالثور فيفوح من سعادته عبق الارض لا احتقار

الارض . ليته كالثور الابيض يعج أمام الحراث فيرتفع عجيجه تسبيحاً للارض وما عليها .

لقد اكفهر وجه هـــذا العظيم إذ تلاعبت على خديه أظلال يده فاختفت عيناه وأعماله لم تزل كالخيال تلوح ولا تبدو عليه . فإن اليد ترسم ظلاً قاتماً على العامل إذا هو لم يتفوق على عمله .

إنني أقدر احتمال هذا الرجـــل لنير الثور ولكنني اتمنى أن تشع نظرات الملاك في عينيه ، ولن تشع هذه النظرات ما لم ينس ما فيه من ارادة الابطال ، لأن ما أريد له هو أن يصير رجـلاً سامياً لا أن يبقى في مرتبة الرجل العظيم حيث يفقد الإنسان إرادته فتتلاعب به أضعف النسمات .

لقد تغلب هذا العظيم على الجبابرة وتوصل إلى حل الرموز ولكن عليه الآن أن ينقذ هؤلاء الجبابرة وهذه الرموز ليحولها إلى طفولة الالوهية .

ان معرفة هذا الرجل لم تتعـلم الابتسام ولا الترفع عن الحسد كما أن موجة شهواته لم تسكن في خضم الجمال . وما عليه أن يدفع بهذه الشهوات إلى سكون الشبع بل عليه أن يغرقها في الجمال لأن اللطف لا ينفصل عن مكارم من بلغوا الأوج بتفكيرهم .

على البطل ألا يستسلم للراحة ما لم يضع يده على رأسه ليتفوق على راحته . وما يصعب على البطل شيء كادراكه الجمال ، لأن الجمال لا يستسلم لأبناء العنف.

ان بين الافراط والتفريط قيد انملة ، فلا تحتقروا هذا المدى لأنه بعيد وأن قصر وفيه الاهميـــة الكبرى ، ولكن عضلات العظماء لا تلجأ إلى السكون وإرادتهم لا تنضب . وما من جمـال إلا في تنازل القوة إلى الرحمة وحلولها في المنظور .

انني لا اطالب بالرحمة سواك . أيها المقتدر ، فلتكن الرحمـة آخر مرحلة تقطعها في انتصارك على ذاتك . وما كنت لأفرض الخير عليك لولا إنني أراك

قادراً على ارتكاب كل الشرور . ولكم أضحكني أو ـــك الصعاليك يعدون أنفسهم ، حماء وقد شلت يدهم ولا حول لهم ولا طول .

عليك أن تتمثل في فضيلتك بفضيلة الأعمدة التي تزداد بهـاء ودقة وصلابة في لبابها كلما ازداد ارتفاعها .

أجل أيها الرجل العظيم انك ستبلغ الجمـــال يوماً فترفع المرآة إلى وجهك لتتمتع برؤية جمالك وعندئذ تختلج روحك بالشهوات وعندئذ تتجلى العبادة في غرورك .

لا يقترب البطل في أحلامه إلى مرتبة البطل الكامل مـــا لم يغفل الروح ويتحول عنها .

هكذا تكلم زارا ...

في بلاد المدنية

ذهبت بعيداً طائراً في اجواء المستقبل فارتعشت وذعرت عندمـا نظرت ما حولي فما وجدت من معاصرٍ لي غير الزمـان ، ولّيت الادبار مسرعاً حتى وصلت اليكم ، يا رجـال اليوم ، ونزلت بينكم في بلاد المدنية ، فألقيت عليكم أولى نظراتي بصفاء نية لأنني جئتكم بقلب مصدوع ، ولا أعلم ما أهاب بي إلى الضحك بالرغم من ارتياعي ، فإن عيني مـا رأت من قبل مثل هذه الخطوط والالوان .

ذهبت في ضحكي وقـــد ارتعش قلبي واصطكت رجلاي فقلت في نفسي « لعل هذه مضانع الآنية الملونة » .

لقد برزتم أمامي يا رجال اليوم ، وعلى وجوهـــكم واعطائكم من الالوان عشرات الانواع ، وحولكم عشرات المرايا تعكس تموجـات الوانكم ، والحق

انكم لا تستطيعون أن تجدوا ما تتقنعون بـه أشد غرابة من وجوهكم نفسها ، فمن له أن يعرف من أنتم ؟

لقد حفر الماضي في وجوهكم آثاره فألقيتم فوقها آثاراً جديدة ، لذلك خفيت حقيقتكم عن كل معبّر وأعجزت كل بيان .

ولو كان لأحد أن يفحص الأحشاء فهل بوسعكم أن تثبتوا ان لكم أحشاء وما أنتم إلا جبلة هباب وقطع أوراق الصقت الصاقاً ؟ وهـذه جميع الأزمنة وجميع الشعوب تتزاحم مرسلة نظراتهـا من وراء قناعكم كما تفصح جميع حركاتكم عن تراكم كل العادات والمعتقدات فيكم . فاذا ما نُزعت أقنعتكم والقيت أحمالكم ومسحت ألوانكم ووقفت حركاتكم فـلا يبقى منكم إلا شبح ينصب مفزعة للطيور .

والحق ، مـا أنا إلا طائر مروع ، لأنني رأيتكم يوماً عراة لا تسترکم ألوانكم فاستولى الذعر علي إذ انتصبتم أمامي هياكل عظام تومىء إلي باشارات العاشقين .

انني افضل أن أكون من عمّال الجحيم وخدام الاشباح ، لأن لسكان الجحيم ما ليس لكم من شخصية معينة ، وأمرّ مـا القـاه هو أن أنظر اليكم سواء استترتم أم تعريتم ، يا رجال اليوم ...

ان جميع ما يدعو إلى القلق في آتي الزمان وجميع ما ارتاعت له في الماضي تائهات الطير ، انما هو أدعى إلى الاطمئنان والارتياح من حقيقتكم ، لأنكم أنتم القائلون : « انمـا نحن الحقيقة المجردة عن كل خرافة واعتقاد » وبهذا تتبجحون وتنتفخون دون أن يكون لكم صدور .

وهل من عقيدة لكم وأنتم المبرشقون بجميع ما عرف الزمان من ألوان حتى اليوم ؟ وهل أنتم إلا دحض صريح للايمان نفسه وتفكيك للأفكار جميعها ؟ فأنتم كائنات أوهام يا من تدعون انكم رجال الحقائق .

لقد قامت العصور كلها تتمارك في تفكيركم ، ومـا كانت هذه العصور في أحلامها وهذيانها إلا أقرب إلى الحقيقة من تفكيركم ، وأنتم منتبهون .

ابتليتم بالعقم ففقدتم الايمان وقـد كانت للمبدع أحلامه وكواكبه قبلكم فوثق من ايمانه .

ما أنتم إلا أبواب فتحت مصاريعها لحفار القبور ، وما حقيقتكم إلا القول بأن كل شيء يستحق الزوال .

انكم تنتصبون أمامي كهياكل عظام متحركة ، أيها المبتلون بالعقم ، ولا ريب في أن أكثركم لم يخف عليه أمر عندما تساءل : « هـل اختطف إله مني شيئاً وأنا نائم ؟ والحق ان مـا سلب مني يكفي لإيجاد امرأة ، فـما أضعف اضلاعي » هكذا يتكلم العدد الوفير من رجال هذا الزمان .

ان حالكم ليضحكني أيهـا الرجال ، ويزيد في ضحكي انكم لأنفسكم مستغربون. ولشد ما يكون ويلي لو امتنع علي أن اضحك من استغرابكم ولو اضطررت إلى ازدراد ما في أوعيتكم من كريه الطعام .

انني استخف بكم لما على عاتقي من ثقيل الاحمال فما يهمني لو نزل عليها بعض الذباب فانه لن يزيدها ثقـلا ومـا أنتم من يحملني أشد الأتعاب أيها المعاصرون .

وا أسفاه ! إلى أية ذروة يجب علي أن أرتقي باشواقي ؟ فانني ادير ألحاظي من أعالي الذرى مفتشاً عبثاً عن مسقط رأسي وأوطاني ، فأنا لا أزال في أول مرحلتي تائهاً في المدن انتقل أمام أبوابها .

لقد اندفعت بعواطفي نحو رجال هذه الأيام ، ولكنني ما لبست ان تبينت فيهم قومـاً غرباء عني لا يستحقون إلا سخريتي ، وهكذا أصبحت طريداً يتشوق إلى مسقط رأسه وأوطانه . ولا وطن لي بعد الآن إلا وطن ابنائي في

الأرض المجهولة وسط البحار السحيقة ، لذلك وجب علي أن اندفع بشراعي على صفحات المياه لأفتش عن هذا الوطن .

علي أن اكفـّر عن ذنبي أمـام أبنائي لأنني كنت ابناً لآبائي . علي أن اكفـّر عن حالي العتيد بكل جهودي في آتي الزمان .

هكذا تكلم زارا ...

المعرفة الطاهرة

عندما أطل القمر علي ليلة أمس خيل إليّ انه انثى أثقلها الحبل وكأن في أحشائها كوكب النهار . وقد جاءها المخاض وأنا أميل إلى تذكير القمر مني إلى تأنيثه وان خلا من صفات الرجولة فإنه رائد ليل يمر على السطوح وقد ساءت نواياه ، فهو كالراهب المتدفق شهوة وحسداً يتمنى لو يتمتع بملذات جميع العاشقين .

لا ، انني لا أحب هذا الهر المتجول على مزاريب السطوح ، لأنني أكره كل متلصص أمام النوافذ التي يحكم إقفالها .

ان القمر ليمر خاشعاً متعبداً على بساط النجوم وأنا أكره كل من ينساب في مشيته فلا تسمع وقعاً لأقدامه . فان خطوات الرجل الصريح تستنطق الأرض، وما يمشي الهر إلا متجسساً ، وهذا القمر لا يتقدم إلا بخطوات الغدر كالهر .

ما أوردت هذا المثل إلا لكم وعنكم يا أبناء الخبث وقد أرهقكم احساسكم لطلب المعرفة الصافية ، وما أنتم في نظري إلا عبيد الملذات لأنكم أنتم أيضاً تحبون الارض وما عليها ومنها . لقد عرفت طويتكم فإذا في حبكم ما يخجل وما يفسد الاخلاق ، فما أشد شبهكم بكوكب الليل .

لقد أقنعوكم بأن تحتقروا كل ما ينشأ من التراب ، ولكن هذا الاقناع لم

ينفذ إلى أحشائكم ، وأحشاؤكم هي أقوى مـا فيكم ، وهكذا أصبح عقلكم خجلاً من سيطرة أحشائكم عليه ، فهـو يتبع الطرق الخفية المضللة فزعاً من خجله . انصتوا إلى مناجاة عقلكم لنفسه فهـو يقول : ليت لي أن أرتقي إلى حيث انظر إلى الحياة محرراً من الشهوة فلا ألهث أمـامها كـكلب يدلي لسانه وقد شفه السغب من شهوته .

لَيت لي أن أسعد بالتأمل متفوقاً على إرادتي متحرراً من خساسة الانانيـة ومطامحها فيسود علي السلام ولا يبقى لعيني سوى لحظات القمر الثملة .

ان عقلكم يطلب التملص من ذاته لأنه طريد يشتهي أن يتعشق الارض كما يتعشقها القمر فلا تتمتع إلا عيونكم بجمالها .

ان المعرفة الطاهرة لا تحتل عقلكم ما لم ينبسط أمام الاشياء دون امتلاكها مكتفياً بانعكاس أشباحها عليه كما تنعكس الأشباح على مرآة لها مئات العيون.

أيها الخبثاء المتحرقون بالشهوات ، لقد خلت شهوتكم من الطهارة فلذلك تجدفون على الشهوة ، فأنتم لا تحبون الارض كما يحبها المبدعون والمجددون الذين يسرون بما يبدعون وبما يجدونَ . فلا طهارة لا حيث تتجلي إرادة الابداع ، فمن اتجه إلى خلق من يتفوق عليه فذلك عندي صاحب أطهر ارادة وأنقاها .

طلبت الجمال فمـــا وجدته إلا حيث تنصبّ الارادة بأكلها إلى المراد ، وحيث يرتضي الانسان بالزوال لتجديد الصور وتبديلها ، فالمحبة والموت صنوان متلازمان منذ الأزل فمن أراد المحبة فقد رضي بالموت . هذا مـا أقوله لكم أيها الجبناء .

ولكن نظراتكم المنحرفة المؤنثة تحت الاستغراق في التـأمل فتريدون أن يدعى جمالاً ما تحدجونه انتم بعين الحـذر والجبن ، انكم لتدنسون أشرف الاسماء .

ان اللعنة التي تحل بكم ، أيها السائرون وراء المعرفة الطاهرة ، انمـا هي

عجزكم عن التوليد في حين انكم تلوحون كالحبالى المثقلات على الآفاق .

انكم تحشون أفواهكم بأنبل الكلمات لايهامنا بأن قلبكم يتدفق عطفاً وما أنتم إلا منافقون .

لقد أخشنت القول لكم فكلماتي مشوهة زرية ، غير انني اتناولها من الفتات المتساقط من موائد ولائمكم فاستعملها حين أعلن الحقيقة للخبثاء ، وهذا ما بيدي من حسك وأصداف يخدش آنافكم أيها الخبثاء .

ان الهواء الفاسد يهب بلا انقطاع حولكم وحول مآدبكم لأنه مشبع من أفكاركم الدنسة وأكاذيبكم وخداعكم .

عليكم أن تبدأوا باطراح خوركم لتتوصلوا إلى الوثوق بأنفسكم ، فما ينقطع عن الكذب من لا ثقة له بنفسه .

لقد اخفيتم وجوهكم بأقنعة الآلهة أيها الرجال الاتقياء ، فأنتم ديدان قبيحة تتشح برداء الأرباب .

انكم لجد متبججين يا رجال التأمل ، حتى ان زارا نفسه أخذ بمظاهر جلودكم الالهية فخفيت عنه الأفاعي الكامنة وراءها .

لقد كنت أرى في عيونكم روح إله أيها الطالبون المعرفة الطاهرة ، قبل أن تكشّف لي تصنعكم انكم أمر المتصنعين .

لقد بعد المجال بيني وبينكم فما تميزت فيكم الثعبان القبيح ، ولا وصلت إلي رائحته الكريهة ، وما خطر لي أن أمامي حرباء تتلون بشهواتها . ولكنني عندما اقتربت منكم تبددت الظلمة حولي . وها ان الفجر يغمركم بأنواره فلكل قمر جنوح إلى الغياب في شهوته . انظروا إلى هذا القمر فهو في أفقه شاحب مذعور وقد باغته الفجر بأنواره المرسلة ، فكل شمس يتجلى حبها الطاهر في تشوقها إلى الابداع .

أما ترون الفجر ينسحب على البحر وقـــد اهتاجه الشوق والحنين ؟ انما تشعرون بظمأه في حبه وحر أنفاسه ، فكأنه يريد ارتشاف اللجج ، وها هي ذي تتعالى نحـــوه بآلاف نهودها ، واللجة نفسها متشوقة إلى وصال كوكب النهار ليرتشفها ارتشافاً فتتحول إلى سحب ومسالك أنوار ، بل هي نفسها تفنى في النور متحولة إلى نور .

وأنا كوكب النهار أحب الحياة وكل لجة بعيدة الأغوار ، تلك هي معرفتي . اني اجتذب كل غور ليتعالى إلي ...

هكذا تكلم زارا ...

العلمـــاء

وكنت نائماً فاذا نعجة تتقدم فتتقضم الغار المعقود إكليلاً على رأسي ، فكانت تعمل أنيابها فيه وتقول : لم يعد زارا من العلماء .

وذهبت بعد ذلك مزدرية متفاخرة . ذلك ما اخبرنيه أحد الأولاد .

أحب أن استلقي على الأرض حيث يلعب الاطفال تحت الجدار المتهدم وقد نبت في شقوقه العوسج والشقائق الحمراء . فانني لم أزل عالماً في عيون الصغار وفي عيون العوسج والشقائق الحمراء ، لأنها طاهرة حتى في أذيتها .

أنا لم أعد عالماً في نظر النعاج. تبارك حظي فهذا ما قضى به عليّ . والحقيقة هي انني هجرت مسكن العلماء فخرجت منه جاذباً بابه بعنف ورائي .

لقد جلست روحي الجائعة طويلاً إلى الخوان ، وما أنا كالعلماء متطبع على المعرفة كمن اتخذ كسر القشور مهنة له، فأنا عاشق الحرية والسير في الهواء الطلق على الارض الباردة كما أفضل أن اتوسد جلود الثيران على افتراش أمجاد العلماء وألقابهم .

ان بي من الحماس ومن لهب الفكر مـا يقطع عليّ أنفـاسي فلا يسعني إلا الاندفاع إلى رحب الفضاء هارباً من الغرف المكسوة بالغبار .

ولكن هؤلاء العلماء يتفيأون الظلال فـلا يقتحمون السير على المسالك التي تلهبها حرارة الشمس ، بل يكتفون بالاستكشاف كالمتفرجين يفتحون أشداقهم وينظرون إلى المارة في الشارع . هكذا يفتح العلماء أشداقهم وينتظرون اتقاد شرارة الفكر في أدمغـة المفكرين . وإذا ما لمستهم بيدك تتطاير الغبـار ما حولها كأنهم أكيـاس من الحنطة ، ولكن لا يظنن أحد ان هذا الغبار المتطاير منهم هو دقيق السنابل الصفراء التي يتشح بها الصيف في زهوه .

إذا ما تظاهر العلماء بالحكمة ، فان حقائقهم وأحكامهم تهزني برعشة البرداء إذ تنتشر منها روائح المستنقعات ، ولكم اسمعتني حكمتهم نقيق الضفادع .

إن لهؤلاء العلماء مهارتهم ولأناملهم لباقتهـا ، فليس من نسبة بين صراحتي وتعقيدهم ، فأناملهم لا تني تغزل وتحوك ناسجة للعقل ما يستره ، فهم كالساعات إذا ما احكم ربط رقاصها دلت بضبط على سير الزمان واسمعتك طقطقة خافتة . انهم يعملون كحجر الرحى فيطحنون كل ما تلقي اليهم من حبوب ، وكل منهم يراقب حركة أنامل الآخرين ، وجميعهم يلتهون بالنكايات ويترصدون من يتعارج بعلومـه ، فهم أشبه بالعناكب في تلصصهم . ولكم رأيتهم يستقطرون سمومهم بكل حذر ساترين أيديهم بقفازات من زجاج . ولهم مهارة خاصة بلعب النرد المزور ولكم انحنوا فوقه والعرق يتصبب من وجوههم .

لا صلة بيني وبين هؤلاء الناس فان فضائلهم تبعد عن فضائلي بأكثر مما تبعد عنها أكاذيبهم ونردهم المزور .

وما وجدت مرة بينهم إلا وكنت فوقهم ، لذلك أبغضني هؤلاء العلماء ، فانهم لا يطيقون أن يسمحوا بمرور أي كان فوق رؤوسهم ، ولذلك وضعوا الاخشاب فوق رؤوسهم ، وأهالوا فوقها التراب والاقذار ليخنقوا وقع أقدامي

ولم يزل حتى اليوم أكثرهم علماً أقلهم ادراكاً لأقوالي .

لقد نصبوا بيني وبينهم حائلاً كل ما في الانسانِ من ضعف وضلال ، وهم يدعون هذا الحصن لمسكنهم بالسقف المستعار .

ولكنني بالرغم من كل هذا لا أزال أمشي فوق رؤوسهم وأنا أنشر أفكاري ولو انني مشيت على عيوبي فلن أزال ماشياً فوق جباههم، ذلك لأنه لا مساواة بين البشر ، وهذا ما يهتف به العدل ، فما أريده أنا لا حق لهم بأن يتناولوه بإرادتهم .

هكذا تكلم زارا ...

الشعراء

وقال زارا لأحد أتباعه : منذ بدأت أعرف حقيقة الجسد لم تعد الروح روح في نظري إلا على أضيق مقياس ، وهكذا صرت أرى «كل ما لا يفنى رمزاً من الرموز .

فأجاب التابع قائلاً : لقد قلت هذا من قبل يا زارا ولكنك اضفت اليه قولك « و كثيراً ما يكذب الشعراء » فلما قلت هذا ؟

فقال زارا : انت تسأل لماذا ، ومـا أنا ممن يحق عليهم أن يُسألوا . مـا ابن الأمس وقد مر زمان طويل على ادراكي أسباب مـا ارتأيه ، وهل أنا خزانة تذكارات لأحفظ الاسباب التي بنيت عليها آرائي ؟ إنما يكفيني عناء أن احفظ هذه الآراء نفسها ، أفليس في العـالم عصافير تشرد من أماكنها ؟ ولكم وجدت في قفصي من طير غريب يرتجف إذا ما أمررت عليه يدي ، ومع ذلك فماذا قال لك زارا يوماً ؟ لقد قال ان الشعراء كثيراً ما يكذبون ، وهل كان زارا نفسه إلا واحداً من هؤلاء الشعراء ؟ افتحسب انـه بهذه الصفة قد اعلن الحق ؟ وما الذي يكرهك على تصديقه ؟

قال التابع : انني مؤمن بزارا .

أما زارا فهز رأسه وابتسم قائلاً : ليس الايمان مما يرضيني حتى ولو كان هذا الايمان معقوداً عليّ، ولكن إذا قال الإنسان بكل جد : ان الشعراء يكذبون، فانه ليقول حقاً لأننا نحن الشعراء نكذب كثيراً ، ولا بد لنا من الكذب ما دام ما نجده من العلم قليلاً . ومَن من الشعراء بيننا لم يغش شرابه في سراديبنا تستقطر السوائل المسمومة ؟ ولكم فيها من أمور يقصر عن وصفها البيان . ان افتقارنا في المعرفة يهيب بنا إلى محبة مساكين العقول وبخاصة إلى محبة مسكينات العقول الفتيات ... فنحن نعود بشهواتنا إلى الأمور التي تتحدث عنها العجائز في السمر ونقول ان ما نبحث فيه إنما هو قضية المرأة الأبدية .

يخيل لنا انأمامنا طريقاً سوياً يؤدي إلىالمعرفة وانهذا الطريق لاينكشف لمن يدركون الامور بالعلم ، لا نؤمن إلا بالشعب وبحكمته . فالشعراء جميعهم يعتقدون ان الجالس على منحدر جبل مقفر يتنصت إلى السكون يتوصل إلى معرفة ما يحدث بين الارض والسماء . وإذا هم هزهم الشعور المرهف خيل لهم ان الطبيعة نفسها أصبحت مغرمة بهم فيرونها تنحني على آذانهم لتلهمهم البيان الساحر والاسرار ، فيقفون مباهين بالهامهم وأمام كل كائن يزول .

وا أسفاه! ان بين الأرض والسماء أموراً كثيرة لا يحلم بها إلا الشعراء،وهنالك أمور اخرى كثيرة فوق السماء ، فما جميع الآلهة إلا رموز ابدعها الشعراء .

والحق اننا منجذبون أبداً إلى العلياء ، إلى مسارح الغيوم فنرسل اليها اكراً منفوخة ملونة ندعوها آلهة وبشراً متفوقين . والحق انهم من الخفة على ما يجعلهم أهلاً لاقتعاد مثل هذه العروش .

ويلاه ! لكم تعبت من كل قاصر يطمح إلى جعل نفسه شيئاً معدوداً ، ولكم اتعبني الشعراء .

وما نطق زارا بهذا الكلام حتى ثارت نفس تابعه ، ولكنه كظم غيظه

فسكت وسكت زارا أيضاً وغيض نظره كأنه يسبر أقاصي نفسه ، ثم تنفس الصعداء وقال : أنا من الأمس ومن الزمن القديم ولكن فيّ شيئاً من الغد وبعده ومن الآتي البعيد . فقد اتعبني الشعراء الأقدمون منهم والمجددون فما هم في نظري إلا رغوة لا صريح تحتها ، بل هم أسرّة بحار جفت مياهها . ان افكارهم لم تنفذ إلى الاغوار ، وقد وقف شعورهم عند أول جرفها . وخير ما ترى في تأملاتهم قليل من الشهوة وقليل من الضجر ، فليست بجورهم إلا مجالات تنزلق على تفاعيلها الاشباح فهم لم يدركوا شيئاً بعد من القوى الكامنة في النبرات . لم يبلغ الشعراء درجة النقاء فهم يعكرون جداولهم ليخدعوا الناس ويوهموهم انها بعيدة الغور . انهم يريدون أن يقيموا أنفسهم موفقين بين مختلف المعتقدات غير انهم لا يزالون رجال العمل الناقص السائرين على السبل المتوسطة الحائرة ، فهم يعكرون المياه بأقذارهم .

وا أسفاه ! لقد القيت شباكي في بحارهم آملا اصطياد خير الاسماك ولكنني ما سحبت هذه الشباك مرة إلا وقد علق فيها رأس إله قديم . وهكذا كان يجود البحر بحجر على الجائع . ولعل الشعراء أنفسهم خرجوا هم أيضاً من البحر وفيهم ولا ريب بعض اللآلىء ، فهم أشبه بنوع من المحار الممنّع بأصدافه ، ولكم وجدت في داخلهم بدل الروح شيئاً من الرغوة المالحة . ان الشعراء يقتبسون من البحر غروره ، وهل البحر لا أشد الطواويس غروراً ؟ فهو حتى أمام أقبح الجواميس يدحرج أمواجه ويبسط أطالس مراوحه وأطراف وشاحه المفضض فيحدجه الجاموس بنظرات الغيظ لأن روحه المقتربة من الشاطىء لا تزال ملتصقة بمعلفه ومرعاه فما يبالي بالجمال وبالبحر وببهاء الطواويس . هذا هو المثل الذي أضربه للشعراء . والحق ان فكرهم لطاووس مغرور بل هو بحر من الغرور ، ففكر الشاعر يطلب من يشاهده حتى ولو كان المشاهد جاموساً .

لقد أتعبني هذا الفكر وسوف يأتي زمان — وهو قريب — يتعب فيه هذا الفكر من ذاته .

رأيت بعض الشعراء يتحولون عن الشعر ويوجهون النقمة إلى ما كانوا عليه، ورأيت من يقدّمون كفارة للفكر ، ومـا نشأ هؤلاء المفكرون عن الضلال إلا بين الشعراء .

هكذا تكلم زارا ...

الحـادثات الجسام

على مقربـة من جزر زارا السعيدة ، تقوم في البحر جزيرة فوقهـا بركان يقذف حممه عليها بلا انقطاع ، ويقول الشعب وبخاصة العجائز فيه : إن هذه الجزيرة منتصبة صخراً يسد باب الجحيم ، غير ان هنالك منفذاً ضيقـاً يخترق البركان وينتهي إلى هذا الباب .

في ذلك الزمان، حين كان زارا يسكن جزره السعيدة القى مركب مرساته أمام الجزيرة التي يعلوها الجبل المشتعل . ونزل بحارته إلى البر ليقتنصوا بعض الأرانب ، وما حان وقت الظهيرة واجتمع القبطان برجاله بعد ان لموا شعثهم حتى رأى هؤلاء الناس رجلاً يخترق الفضاء بغتة اليهم ثم اقترب منهم وصاح بهم بصوت جلي قائلاً : لقد حان الزمان ، لقد اقترب كثيراً ...

ومر بهم الشبح مسرعاً وهو يتجه إلى البركان، فتميزوا به شخص زارا لأنهم كانوا رأوه من قبل جميعهم ما عدا القبطان وأحبوه كما يحب الشعب من يخشى .

فقال شيخ البحارة : هذا زارا يسير الى الجحيم .

وفي الزمن الذي نزل فيه البحارة إلى جزيرة اللهب ، كان قد شاع اختفاء زارا بين الناس وقال صحبه لمن سألوا عنه : انـه أبحر على مركب تحت جنح الظلام ولم يعرف أحد الوجهة التي يقصدها .

هكذا ساد القلق من اختفاء زارا ، وبعد ثلاثة أيام زاد هذا القلق بعد أن

اخبر البحارة بما رأوا ، وشاع بين الشعب أن ابليس قد اختطف زارا ، ولكن صحب زارا لم يأبهوا لهذه الاشاعة بل ضحكوا منها وقالوا : ان ما نعتقده هو ان زارا قد اختطف الشيطان .

غير ان اختفاء زارا كان يشغل بال صحبه ، ومـا مضت خمسة أيام حتى عاد اليهم ، فكان سرورهم عظيما .

وهذا ما نقله زارا لهم عن حديثه مع كلب النار . قـال : ان للأرض جلداً ولهذا الجـلد أمراضه ، وأحد هـذه الأمراض الإنسان ، وهنالك مرض آخر يدعى كلب النار ، وقد كان هـذا الكلب السبب في تناقل النـاس الأكاذيب وتصديقهم لها . وما اجتزت البحار إلا لأكتشف هذا السر فرأيت الحقيقة عارية من أخمص قدميها حتى عنقها ، فما تخفى عني الآن حقيقة كلب النار ، وحقيقة جميـع أبالسة التمرد والأقذار التي لا تنفرد العجائز بالذعر منها .

لقد هتفت قائلاً : اخرج من أغوارك أيهـا الكلب الناري وقل لي كم هي عميقة أغوارك ومن أين تأتي بما تنفثه علينا . انك تكرع من البحر بشراهة ، وذلك مـا تنم عليه مرارة الملح في ثرثرتك ، والحق انك وأنت كلب الأغوار لا تستمد غذاءك إلا من الأماكن السطحية ، فـما أنت إلا كالمتكلم من بطنه لأنني في كل مرة سمعت فيها أقوال أبالسة التمرد والأقذار تبينتهم أشبه بك في دناءتك وأكاذيبك . لقد اتفقت أنت معهم على النبـاح واتفقتم جميعكم على ذر الرماد ونشر الظلام ، فأنتم أعظم المتفاخرين وتعرفون كيف تدفعون بالأوحال إلى الفوران وحيث تكونون لا بـد أن تحيط بكم الوحول وكل ما هو اسفنجي مضغوط ضيق المسام ، ومـا يطلب الانطلاق إلا من اتصف بهذه الصفات . والحرية هي الصرخة التي تفضلونهـا غير انني فقدت ايماني بالحادثات الجسام منذ رأيت الصراخ والدخان يتماليان حولها .

صدقني يا إبليس ان الثورات الصاخبـة الجهنمية ليست أعظم الحادثات في أكثر ساعاتنا ضجيجاً بل هي في أعمقها صمتاً. وما يدور حول موجدي الشعب

الجديد بل هو يدور على محور موجدي النظم الجديدة .

لا بد لك أيها الشيطان من الاقرار بسخافة ما كانت تنقشع عنه قرقعتك وضباب دخانك . وهل من جسام الأمور أن تتحول مدينة إلى مومياء وأن يتداعى عمود إلى الأحوال ؟ وهذه كذبة أخرى أوجهها إلى هدامي الأعمدة : ان أقصى الجنون هو في القاء الملح إلى البحر وفي إسقاط الأعمدة إلى الوحول ، لأن هذه الأعمدة كانت مطروحة على أوحال احتقاركم وها هي ذي تنهض بسيماء الآلهة وقد انطبع عليها الألم الساحر . فهي والحق تدين لكم بالشكر لأنكم اسقطموها أيها الهادمون .

وهأنذا الآن أسدي النصح للملوك والكنائس ولكل من أضعفته الفضيلة ان اهرمه الزمان فأقول : دع القوة تسقطك لتعود إلى الحياة فترجع الفضيلة اليك.

هكذا تكلم أمام كلب النار ، فقاطعني بهريرة قائلاً : « الكنيسة ، وما هي هذه الكنيسة ؟ » فقلت : إن الكنيسة شيء أشبه بالدولة ، بل هي من أكذب أنواع الدول ، ولكن صه أيها الكلب ، فانك أخبر بنوعك من أي كان . إنما الدولة حيوان خبيث على شاكلتك ، فهي تحب أن تتكلم فترسل بيانها دخاناً وهريراً لتخدع الناس وتجعلهم يعتقدون بأن أقوالها مستمدة من غور الأمور . فهي تريد أن تكون أعظم حيوان على وجه الأرض والعالم يراها على ما تريد[1].

ظهرت على وجه الكلب أفظع معاني الحسد فصاح : ماذا تقول وهل يعتقد أحد أن الدولة هي أعظم حيوان على الأرض ؟

قال هذا وخرج من بين شدقيه إعصار من الدخان وازداد هريره حتى حسبته مقتولاً بغيظه . ولكنه ما لبث حتى استعاد السكون فقلت له : — لقد تملكك الغيظ ، يا كلب النار ، وذلك دليل على انني أقول الحق عنك . وهأنذا

---

(١) لا ريب في ان زارا لا يقصد بهذا الوصف إلا الدول القابضة على عنق الشعب بالحكم المطلق .

استمر في إعلان الحقائق فأحدثك عن كلب آخر من اتباع النار وهذا الكلب يتكلم حقيقة من قلب الأرض ، فلهاثه من ذهب ، ومـا يحسب حساباً للرماد والدخان والزبد الحار فان حوله ترتفع قهقهة تنتشر كأنها سحاب يزهو بعديد ألوانه . وهو عدو هريرك وزبد شدقيك وما في أحشائك من الاختلال . ان هذا الكلب يأخذ الذهب والضحك من قلب الأرض لأن قلب الأرض من ذهب ، فاعلم هذا أنت .

وغلب الكلب على أمره عند سماعه هذه الكلمات فأرخى ذيله خجلاً وبدأ يعوي وهو يزحف زحفاً إلى مغارته .

هذا ما سرده زارا لأتباعه ولكن أتباعه ما كانوا يبالون بما يقول وقد اشتد شوقهم إلى أخباره عما حدث للبحارة والرجل الطائر في الهواء .

ولما سمع زارا ما قصوه عليه قال : ماذا عساني أظن بما قلتم ؟ أفأكون شبحاً من الأشباح ؟ ولعل ما رأوه لم يكن سوى خياله ، ولعلكم سمعتم حكاية المسافر وخياله ، غير انه من الواجب علي أن أشدد النكير على خيالي فلا يذهب كما يشاء نائلاً من شهرتي .

وهز زارا رأسه بتعجب متسائلاً عما يقوله في هذا الحادث وهو لا يدري لماذا هتف الخيال قائلاً : لقد اقترب الزمان .

هكذا تكلم زارا ...

العراف

« ... ورأيت الناس يستولي عليهم حزن عميق ، وقد وهنت قوى خيارهم فيما يعملون . فانتشر تعليم يؤدي إلى الايمان بأن كل شيء باطل ومتشابه وقيد الزوال . فتجاوبت الأصداء في الهضبات مرددة : كل شيء باطل ومتشابه وقيد الزوال .

لقد حصدنا ولكن غلالنا أكمدّ لونهـا وتهرأت ، فأي شيء تساقط تحت جنح الظلام من وراء كوكبه اللئيم ؟

لقد ذهبت جهودنا سدى وفسد خمرنا فاستحال سمـاً زعافاً فكأن عيناً حاسدة أصابت حقولنا وقلوبنا فأذوتها .

جففنا جميعنا فإذا نزلت بنا حارقة فلا يتطاير منـا غير الرماد . لقد تعب منا كل شيء حتى لسان اللهيب .

غاضت الينابيع أمامنا وتراجع البحر عنا وقد زلزلت الأرض تحت أقدامنا ولكنها لم تفغر فاها لتوارينا . فمن لنـا ببحر نغرق فيه ؟ اننا نصرخ طالبين البحر فيذهب صوتنا بدداً على سطوح المستنقعات .

والحق اننـا بذلنا أقصى جهودنا طلباً للموت ولما نزل جثثاً تحيا وعيونها جاحظة طي اللحود » .

هذا ما قاله أحد العرافين فذهب قوله نافذاً قلب زارا فبدله تبديلاً ، وأصبح زارا حزيناً متعباً يضرب في الارض شبيهاً بمن ذكرهم العراف في نبوءته .

وقال زارا لأتباعه : لن يمضي زمن طويل حتى ينسدل هذا الغسق القائم على وجه الارض ، وأنا أحاذر ألا أجد وسيلة للعبور بنوري إلى مـا وراءه فأنقذه من الانطفاء . هل من حافظ له بين هذه الاحزان وأنا قد أعددته ليضيء في العوالم البعيدة ويشع في طيات الظلام السحيق ؟

وسار زارا شارداً يحمـل همه في قلبه ، فأمضى ثلاثة أيام لا يذوق فيها طعاماً ولا شراباً ولا يعرف الراحة حتى وقف لسانه عن الكلام فاستغرق في نوم عميق وجلس صحبه حوله يسودهم القلق طوال الليـالي متوقعين أن يفيق ليردوه عن أحزانه .

وأفاق أخيراً فخاطبهم بصوت كأنه ترديد صدى بعيد قائلاً :

« اصغوا إلي ، أيها الصحاب ، لأقص عليكم ما رأيت في حلمي وساعدوني على تعبيره ، فان حلمي قد أغمض علي ولم يزل معناه كامناً فيه .

رأيتني هجرت الحياة واخترت مهنة حارس للقبور على الجبل المقفر حيث يرتفع قصر الموت، فكنت أحرس النعوش وهي اسلاب النصر تغص بها الدهاليز المظلمة فكنت أرى الساقطين في معترك الحيـاة المسجين في التوابيت المغطاة بالزجـــاج يحدجونني بنظراتهم المروعة . وهنالك نشقت عرف الابدية غباراً يتطاير على روحي فيرهقها ولا استطيع أن أنقض عنها هذا الغبار الثقيل .

وكانت أصداء الليل تدور بي ومعها شبح العزلة والانفراد ، فكان رفيقي سكون الموت تتعالى فيه من حين إلى حين حشرجة المدنفين .

وكنت أحمل المفاتيح وقد علاها الصدأ أعالج بها أصلب الابواب فتصرف مصاريعها بصراخ أبح لئيم يذهب مدوياً في الدهاليز كأن الدرفـــات أجنحة أطيار تنكش وتنعق متململة ممن يريد تنبيهها من رقادها .

وعندما كان يخيم السكوت بعد هــذا الدوي كان يبلغ رعبي أشده فأبقى وحدي محاطاً بهذا الصمت الرهيب .

ومر الزمان متمهلاً ، لو صح ان في مثل هذه الرؤى زماناً ، إلى أن وقـــع ما أفقت له مذعوراً .

قرع الباب ثلاث مرات بدوي كأنه الرعد القاصف ، فهتفت الدهاليز ثلاث مرات بصدى كأنه الزئير ، وتقدمت إلى القفل أعالجه فلم يتزحزح قيد انملة ، وهبت العاصفة بشدة فدفعت بالمصراعين ورمت إلي بنعش أسود وقـد تصدع الهواء بالصفير والولولة وسقط النعش فانحطم وخرجت منه آلاف من القهقهات فرأيت آلافاً من الاطفال والملائكة وطيور البوم والجانين والفراشات الضخمة يطفرون حولي ساخرين .

واستولى الخوف عليّ فـــاذا أنا مطروح على الأرض أصرخ صراخاً مريعاً فانتبهت لصوتي مذعوراً » .

وسلخ زارا لحظة وهو حائر فاذا بأحب أتباعه اليه ينهض ويقبض على يده قائلاً : « ان تعبير رؤياك إنما هو في حياتك نفسها يا زارا . أفلست أنت النعش وقد حشدت الحياة فيه سيئاتها وعبوس ملائكتها ؟ أفليس زارا يجتاح اللحود مقهقهاً كالأطفال ساخراً بالساهرين على القبور الخافرين لها . مستهزئاً بكل من تقرقع المفاتيح في أيديهم ؟

ولسوف يذعر هـؤلاء منك فيطرحهم ضحكك أرضاً فيغمى عليهم ثم ينتبهون وبذلك يثبت عليهم سلطانك .

لقد اطلعت لنا كواكب جديدة في الآفاق ونشرت من الليل ما كنا نجهله من البهاء . والحق انك مددت ضحكك فوق رؤوسنا فأظلنا بعديد ألوانه . فمنذ الآن ستتعالى قهقهة الأطفال من النعوش وستعصف من الجهود القاتلة الريح التي نتوقعها .

لقد مثلت نفسك اعداءك فأزعجتك رؤياك ، ولكنك انتبهت منسلخاً عنهم وعدت إلى روعك ، وهم أيضاً سينتبهون فيرجعون اليك .

هكذا تكلم التابع ، فدار سائر الاتباع بزارا يشدون على يديه محاولين اقناعه بالنهوض من فراشه والانسلاخ عن احزانه ليعود اليهم ، غير ان زارا بقي جالساً على فراشه وعيناه جاحظتان كأنه عائد من سفر بعيد لا يعرف بمن حوله أحداً ، ولكن أتباعه رفعوه وأوقفوه فانتبه فجأة وتغيرت سحنته فمد يده يداعب شعر لحيته ورفع عقيرته قائلاً :

– كل هذا سيكون عندما يحين زمانه . فأعدوا لنا غذاء طيباً الآن لأكفر عن الرؤيا التي رأيت ، غير ان العراف سيجلس إلى جنبي ليأكل ويشرب معي وسأريه بحراً يغرق فيه نفسه .

ولكنه حدق في وجه تابعه الذي عبّر له حلمه ، حدق به طويلاً وهو يهز رأسه .

هكذا تكلم زارا ...

وسار زارا يوماً على الجسر فأحاط به رهط من أهــل العاهات والمتسولين وتقدم اليه أحدب يقول له :

– التفت إلى الشعب يا زارا فهو أيضاً يستفيد من تعاليمك وقــد بدأ يؤمن بسنتك . ولكن الشعب بحاجة إلى أمر واحد ليتوطد إيمانه بك : عليك يا زارا أن تتوصل إلى اقناعنا نحن أهل العاهات . وأمامك الآن نخبة منهم وما لك بعد مثل هذه الفرصة تنتهزها لتقوم باختيارك على مثل هذا العدد من الرؤوس. بوسعك الآن أن تشفي العميان والمقعدين فتخفف الأثقــال ، وتريح المتعبين . تلك هي الطريقة المثلى لهداية هؤلاء القوم إلى الايمان بزارا .

فأجاب زارا :

من يرفع عن ظهر الاحدب حدبته فقد نزع منه ذكاءه . هــذه هي تعاليم الشعب . وإذا أعيـــد النور إلى عيني الأعمى فانه ليرى على الارض كثيراً من قبيح الاشياء فيلعن من سبب شفاءه . ومن يطلق رجلَ الأعرج من قيدها فانه يورثه اذية كبرى إذ لا يكاد يسير ركضاً حتى تتحكم فيه رذائــله فتدفعه إلى غايتها . هذه هي التعاليم التي ينشرها الشعب . وهل على زارا إلا أن يأخذ عن الشعب ما أخذه الشعب عنه ؟

غير انني منذ نزلت بين النــاس سهل عليّ أن أرى منهم من تنقصه عين ، ومن تنقصه أذن ، وآخر فقد رجليه ، وهنالك من فقدوا لسانهم أو أنفهم أو رأسهم وهكذا رأيت أقبح الأمور ، وهنالك أشياء أشد قبحــاً ان اعرضت عن ذكرها فلا يسعني السكوت عن أكثرها .

رأيت رجالاً فقدوا كل شيء ، غير انهم يملكون شيئاً يسوده الافراط،فهم رجال كأنهم عين عظيمة أو فم واسع أو بطن كبير أو عضو آخر كبير لا غير، وما هؤلاء الناس إلا أهل العاهات المعكوسة .

وعندما عدت من عزلتي لاجتاز هذا الجسر للمرة الأولى وقفت مندهشاً لا اصدق ما أرى فقلت : هذه أُذن ، أُذن وسيعة كأنها قامة رجل ، وتقدمت اليها فلاح لي وراءها شيء صغير لم يزل يتحرك وهـــو ناحل ضعيف يستدعي الاشفاق ، فان الأذن الكبرى كانت قائمـة على ساق دقيقة . وما كانت هذه الساق إلا انساناً ، ولو انك تفرست في هذا الشيء بنظارة لرأيت فوقه وجهاً يتقطب بالحسد وينم عن روح صغيرة تريد الانتفاخ وترتجف على قاعدتها .

وقال لي الشعب : ان هذه الأذن ليست رجلاً فحسب ، بل هي أيضاً رجل عظيم بل عبقري من عباقرة الزمان . غير انني ما صدقت الشعب يوماً إذا هو تكلم عن عظماء الرجال ، فاحتفظت بعقيدتي وهي ان هـذا الرجل ذو عاهة معكوسة إذ ليس له إلا القليل من كل شيء والكثير من شيء واحد .

وبعد ان وجه زارا هذا الخطاب إلى الأحدب ومن تكلم بالوكالة عنهم اتجه نحو اتباعه وقد تحكم الكدر فيه فقال :

– والحق انني اسير بين الناس كأنني أمشي بين أنقاض وأعضاء مبتورة عن أجسادها . وذلك أفظع ما تقع عليه عيناي ، فانني أرى أشلاء مقطعة كأنها بقايا مجزرة هائلة. وإذا ما لجأت عيني إلى الماضي هاربة من الحاضر فانها لتصدم بالمشهد نفسه . فهنالك أيضاً أنقاض وأعضاء أشلاء وحادثات مروعة ، ولكنني لا أرى رجالاً ...

ان أشد ما يقع عليّ أيها الصحاب إنمـا هو الحاضر والماضي ، وما كنت لأطيق الحياة لو لم أكن مستكشفاً ما لا بد من وقوعه في آتي الزمان ، ومـا زارا إلا باصرة تخترق الغيب ، فهو رجل العزم وهو المبدع ، هـــو المستقبل والمعبر المؤدي إلى المستقبل ، واأسفاه ذو عاهة ينتصب على هذا المعبر .

وأنتم أيضاً تتساءلون مراراً : من هو زارا ؟ وبماذا نسميه ؟ فلا تتلقون غير السؤال جواباً كما أتلقاه أنا .

أهو من يُعد أم ينفـّذ الوعد ؟ أهو فـــاتح أم وريث ؟ اهو الطبيب ام هو الناقه ؟

اشاعر هو ام رجل حقيقة ؟ أمحرر ام متسلط ؟ اصالح ام شرير ؟

ما أنا إلا سائر بين الناس شطرة من المستقبل الذي يتراءى لبصيرتي وجميع أفكاري تتجه إلى جمع وتوحيد كل ماتفرّق على أسرار وتبدد على الصدف العمياء.

ومـــا كنت لأحتمل أن أكون انساناً لو ان الانسان لم يكن شاعراً محللاً للأسرار ومفتدياً لاخوانه من ظلم ما تسمونه صدفة ودهراً . وما الفداء إلا في انقاذ من ذهبوا ، وتحويل كل ما كان إلى ما اريد لو انه كان ...

ما المخلص والمبشر بالغبطة إلا الارادة نفسها ، وهـــذا ما اعلمكم اياه يا أصحابي ، ولكن اعلموا أيضاً ان هذه الارادة لم تزل سجينة مقيدة .

ان الارادة تنقذ ، ولكن ما القوة التي تقيد المنقذ نفسه ؟

ان داء الارادة الوحيد انما هو كلمة « قد كان » تقف الارادة أمامها تحرق الأرم عاجزة عن النيل من كل ما كان ، فالارادة تنظر بعين الشر إلى كل مـا فات وليس لها أن تدفع بقوتها إلى الوراء ، فهي أضعف من أن تحطم الزمان وما يريده الزمان ، وهذا داء الارادة الدفين .

ان الارادة تنقذ ، ولكن ما هو تصور الارادة في عملها للتخلص من دائها وهدم جدران سجنها .

واأسفاه ! ان كل سجين يصبح مجنوناً ، ومـا تنقذ الارادة السجينة نفسها إلا بالجنون .

ان الزمان لا يعود أدراجه . ذلك ما يثير غضب الارادة وكيدها ، فهنالك صخر لا طاقة للارادة برفعه ، وهذا الصخر إنما هو الأمر الواقع .

لذلك تهبّ الارادة وقـد تملكها الغيظ مقتلعة الاشجار منتقمة من كل من

لا يجاريها في كيدها وثورتها ، وهكذا تصبح الارادة المنقذة قوة شريرة تصب جام غضبها على كل قانع بعجزها عن الرجوع إلى ما فات . وهــل انتقام الارادة إلا عبارة عن كرهها للزمان لأنه أوقع ما لا قبل لها برده ؟

والحق ان ارادتنا مصابة بالجنون وقــد نزلت لعنة على البشرية منذ تعلّم الجنون أن يتفكر . ان خير مــا طرأ على الانسان حتى اليوم إنما هو فكرة الانتقام ، وهكذا سيبقى العقاب ملازماً للألم في كل زمان وفي كل مكان. وهل فكرة الانتقام بذاته ؟ فما كلمة الانتقام إلا كلمة مكذوبة يقصد بهــا التعبير عن الضمير .

إن كل مريد يتألم لأنه لا قبل له بالرجوع إلى الماضي لرد مــا فات ، ولهذا لزم أن تكون الارادة بل كل حياة على الاطلاق كفارة وعقاباً .

بمثل هذه الاعتقادات تلفع العقل بالغيوم فانبثق منه الجنون هــاتفاً : كل شيء يزول ، فكل شيء يستحق الزوال

ان العدل نفسه يقضي بأن يفترس الزمان ابناءه ، هذا مــا اعلنه الجنون . لقد وضع الناموس الأدبي وفقاً للحقوق وللعقاب ، فأين المفر من نهر الحيــاة الجارف وما الحياة إلا عبارة من عقاب ؟ وهذا أيضاً ما اعلنه الجنون .

ليس من حادث واحد يمكننا أن نزيله من الوجود . فهل للعقاب أن يمحو الحادثات ؟ وهل من خلود لغير الأعمال في وجود لا ينفك يحوّل العمــل عقاباً والعقاب عملاً ؟ ولا مناص من هذه الحلقة المفرغة مــا لم تتوصل الارادة إلى الفرار من ذاتها فتصبح حينذاك ارادة منفية .

انكم تعرفون ، أيها الاخوة ، هذه الاغاني التي يتشدق بها الجنون . وقد اقصيتكم من سماعها عندما علمتكم ان الارادة مبدعــة . كل ما فات يبقى مبدداً منثوراً كأنه اسرار ومصادفات رائعــة إلى ان تقول الارادة : انني أنا اردت هذا ثم تقول : وهذا ما اريده الآن وسأريده غداً .

هل نطقت الارادة بمثل هذا حتى اليوم ؟ وأي متى ستنطق به ؟ هل هي تملصت من قيود جنونها فأصبحت تفتدي الحادثات بعزمها وتبشر بالحبور ؟ هل هي أطرحت فكرة الانتقام وتوقفت عن حرق الأرم من كيدها ؟ من ترى تمكن من تعليمها مسالمة الزمان بل ما يفوق هذه المسالمة ؟

يجب على الارادة ولا أعني سوى ارادة الاقتدار أن توجه مشيئتها إلى ما هو أعظم من المسالمة . ولكن أنى لها ذلك ومن سيعلمها أن توجه هذه المشيئة إلى ما فات ؟

وتوقف زارا عن الكلام فجأة كأن رعباً شديداً حل به فاتسعت حدقتاه وشخص باتباعه سابراً أفكارهم غير انه ما لبث ان عاد إلى الضحك فقال بكل هدوء :

— ما تهون الحياة بين الناس لأن الصمت صعب على المرء وخاصة إذا كان ثرثاراً .

هكذا تكلم زارا ...

ولكن الاحدب الذي كان يصغي إلى الحديث وهو يستر وجهه بيديه سمع قهقهة زارا ففتح عينيه مستغرباً وقال : لماذا يخاطبنا زارا بغير ما يخاطب به اتباعه ؟

فقال زارا : وهل من عجب في هذا ؟ أفما يصح من أن يخاطب الأحدب بأقوال لها حدبات .

فقال الأحدب : — ولا عجب أيضاً في أن يخاطب زارا تلاميذه كمعلم أولاد ، ولكن لماذا يخاطب اتباعه بغير ما يخاطب به نفسه ؟

ليست الأعالي ما يخيف بل الاعماق ، فعلى الجرف تحدق العين في الهاوية وتمتد اليه نحو الذرى فيقبض الدوار بالارادتين على القلب .

أفتعلمون أيها الصحاب ما هي ارادة قلبي المزدوجة؟ ان الخطر المحدق بي على منحدري انما هو اتجاه نظري إلىالذروة بينما تتلمس يدي مستنداً فيالغضاء ، وما أعلق ارادتي إلا على الانسان فتشدني اليه مرهقات القيود لأنني منجذب منه إلى الانسان المتفوق فإليه تندفع ارادتي الثانية . انما أنا أحيا بين الناس كالضرير لا يعرف من حوله ، كيلا تفقد يدي ثقتها من الوقوع على مستند مكين .

أنا لا اعرفكم ، أيها الناس ، تلك هي ظلمتي أتلفع بها وتعزيتي الجأ اليها .

فأنا جالس أمام الباب متوجه إلى الأوغاد صائح بهم : إلي يا من يريـــد ان يخدعني .

أن اول حكمة بشرية اعمل بها هي أن استسلم لخداع الناس فلا اضطر الى الوقوف أبداً موقف الحذر لأن في الناس من يخدعون .

لو إنني وقفت هذا الموقف في العالم أكان يتسنى للانسان أن يثقل منطادي فيمنعه من الانفلات والانطلاق إلى أبعد الآفاق ؟

ان اغفالي للحذر إنما هو عناية تسهر علي لإيصالي الى ما هو مقدور .

إذا أنت امتنعت عن الشرب من كل كأس فانك هالك ظمأ ، فإذا أردت ان تبقى طاهراً بين الناس فعليك ان تتعود الاغتسال بالماء القذر .

لكم ناجيت قلبي لأعزيه ، فقلت له صبراً أيها القلب الهرم ، انك لم تفلح بهذه النقمة فتنعم بها كأنها نعمه .

وهذه حكمتي البشرية الثانية : إنني أداري المغرور بأكثر مما أداري الفخور

لأن الغرور الجريح مبعث كل النائبات ، في حين أن العزة الجريحة نستنبت جرحها ما هو خير منها .

إذ لم يحسن الممثلون لرواية الحياة أدوارهم فيهـا فخير لك ألا تشهدها ، وليس أمهر من أهـل الغرور في التمثيل لانهم يقومون بأدوارهم وكل ارادتهم متجهة الى اكتساب رضى المشاهدين واعجابهم ، وهم لا يدخرون وسعـاً في سبيل خلق شخصيتهم وتمثيلها ، لذلك يلذ لي ان أنظر من خلالهم الى الحيـاة فهم خير دواء للسوداء . انني اداري أهل الغرور لأنهم أساة أحزاني المقيمون الانسان ممثلاً أمام عياني .

وفوق ذلك فمن له ان يسبر الاعماق في تواضع المغرور ؟ فأنا أريد الخـير لمثله واشفق عليه بسبب اتضاعه، فهو يريد ان يقتبس منكم ثقته بنفسه متغذياً بن نظراتـكم ، متسولاً الثناء من تصدية أكفكم. ان المغرور ليصدق أكاذيبكم اذا ما أحسنتم ايرادها عنه ، فما هو إلا حائر يشك باعماق نفسه في قيمة نفسه.

اذا كانت الفضيلة الحقيقية تجهل ذاتها فالمغرور كذلك يعرف شيئاً عن تواضعه.

أما حكمتي البشرية الثالثة فقائمـة على أنني لا أدع لاستحيائكم سبيلاً الى تنفيري من مشاهدة الاشرار ، فأنا أسر بالنظر الى ما تخلق حرارة الشمس من عجائب المخلوقات كالنمور واشجار النخل والافاعي ذوات الاجراس . ولكم بين الناس من أمثال لهذه المخلوقات العجيبة افقستها حرارة الشمس أيضاً ، وفي الاشرار من البدائع الشيء الكثير . .

أن أوفركم عقلاً لا يبلغ في نظري منتهى الحكمة ، كذلك لا أرى الشر إلا مبالغاً في وصفه . ولكم تساءلت مشككاً : لمـاذا لا تزال الافاعي تطن باجراسها ؟ أن لكل شيء مستقبله حتى الشرور ، فالظهيرة البالغة التناهي في إشراقها لم تنكشف للانسان حتى اليوم . لكم من امور تعتبر شروراً في هذا الزمان وهي لا تتجاوز الثلاث عشرة قدماً حجماً ، ولا الثلاثة أشهر بقـاء ، وغداً سيولد ما هو اعظم منها . ولا بد من أن تخلق الحياة التنين المتفوق خليقاً

بالانسان المتفوق ، فإن شموساً محرقة ستدخل حرارة الابداع في الغابات الغضة الرطبة التي لم تمسّها يد بعد .

لا بد من ان تصبح وحوشكم نموراً وعقاربكم تماسيح ، فيجد القناص في الغاب ما يرضيه .

والحق ان فيكم كثيراً من المضحكات يا رجال العدل والصلاح . ولشدّ ما يضحكني خوفكم ممن دعوتموه إبليساً. لقد بعد المجال بين روحكم وكل عظيم ، فإذا ما لاح لكم الانسان المتفوق بصلاحه أورثكم خوفاً ورعباً . فإنكم ، أيها الحكماء والعلماء ، ستولون الادبار اذا ما لفحتكم الحكمة المشعة على الانسان المتفوق في غبطته وعريه .

لقد وقعت عيني عليكم ، أيها العظماء ، فأدركت هذا السر ، وهأنذا أعلنه لكم ، انكم ستصفون الانسان المتفوق الذي انبئكم به بأنه شيطان الشياطين .

اتعبني هؤلاء العظماء ، وأشدهم إرهـــاقاً لي أوفرهم عظمة ، فأنا أتوق إلى اجتياز مرتبتهم فأفوتها وأنا اتجه إلى الانسان المتفوق .

لقد عرتني هزة عندما شاهدت خيار العظماء في عريهم فشعرت بجناحين استنبتها ساعداي لأحلـّق بعيداً عنهم في آفاق الدهور الآتية : انني أتوجـه الى الدهور البعيدة، الى الظهيرات الغارقة بانوار لم يحلم بها الفن من قبل، فهنالك تتجلى الآلهة خجولة من كل ما يقع من حادثات على الارض .

ليتني أراكم متنكرين ، أيها الاخوة والأقرباء ، أهـــل الصلاح والعدل ، فتبدون بحللكم وقد نفخها الغرور ، وليتني أجلس بينكم متنكراً أنا ايضاً كيلا اعرف من أنا ، لأن هذه آخر حكمة لي على حكم البشر .

هكذا تكلم زارا...

اعمق الساعات صمتاً

ماذا جرى لي يا صحابي ؟ لقد سادني الاضطراب فأضعت هـداي وأراني مندفعاً بالرغم مني الى الرحيل والابتعاد عنكم وا أسفاه !

أجل ، على زارا ان يعود الى عزلته ، غير ان الدب يرجـــع الى مغارته كئيباً حزيناً ، ماذا جرى لي ومن ترى يضطرني الى الرحيل ؟

انها « هي » مولاتي الغاضبة ، لقد كلمتني فأعلنت لي إرادتها وما كنت ذكرت لكم اسمها حتى اليوم ، هي أعمق ساعـــاتي صمتاً وهي نفسيا مولاتي القاهرة كلمتني أمس .

وسأقص عليكم ما جرى فلا أخفي عنكم شيئاً كيلا يقسو قلبكم عليّ وأنا افاجئكم برحيلي عنكم .

أتعلمون ما هي خشية من يستسلم للكرى ؟ انه الذعر يستولي على الانسان من رأسه الى أخمص قدميه ، لأن أحلامه لا تبتديء ما لم تنسحب الارض من تحته .

انني أضرب لكم أمثالاً ، فأصغوا إلي :

أمس عند أعمق الساعات صمتاً خلت الارض من تحتي وبدأت احلامي .

وكان العقرب يدب على ساعة حياتي في خفقانها ، ومـا كنت سمعت من قبل مثل هذا السكوت يسود حولي ويروّع قلبي .

وسمعتها «هي» تقول لي ، ولا صوت لها : انك تعرف هذا يا زارا .

فصحت مذعوراً عند سماعي هذه النجوى وتصاعد الدم الى رأسي .

فعادت هي تقول ، ولا صوت لها : انت تعرف هذا يا زارا ولكنك لا تعلنه .

فانتفضت وأجبت بلهجة المتحدي : — أجل إنني أعرف هذا ولكنني لا أريد ان اعلن ما أعرف .

فقالت «هي» ولا صوت لها : أصحيح انك لا تريد ؟ لا تخف نفسك وراء هذا التحدي يا زارا .

فأخذت أبكي وارتعش كالطفل قائلاً : ويلاه ! أريد ان أصرح ، ولكن هل ذلك بامكاني ؟ أعفيني من هذه المهمة لأنها تفوق طاقتي .

فقالت ، ولا صوت لها : وما أهميتك انت يا زارا ؟ قل كلمتك وتحطم .

فقالت أهي كلمتي ما يهم، فمن أكون أنا ؟ انني انتظر من هو أجدر مني باعلانها وما أنا اهل لاصطدم بالمنتظر فأتحطم عليه .

فقالت ، ولا صوت لها : وما أهميتك انت ما دمت لم تصل بعد الى مـــا اريده من الاتضاع ؟ وما أقسى ما يتشح الاتضاع به ، وما اصلب جلده !

فقلت : لقد تحمل جلد اتضاعي كثيراً، فأنا ساكن عند قاعدة ارتفاعي ولم يدلني احد بعد على ذراه العاليات، ولكنني تمكنت من سبر اغواري ومعرفتها .

فقالت ، ولا صوت لها : أي زارا ، أنت المعدّ لنقل الجبال من مكان إلى مكان ، أفما بوسعك أن تنقل أغوارك ومهاويك أيضاً ؟

فقلت : لم تنقل كلمتي الجبال بعد ، فان ما قلته لم يبلغ حتى آذان الناس ، لقد أتيت إلى العالم غير انني لم اتصل به بعد .

فقالت ، ولا صوت لها : وما يدريك ؟... ان الندى يتساقط على العشب في أشد أوقات الليل سكوتاً .

فأجبت : لقد هزأ النـــاس بي عندما اكتشفت طريقي ومشيت عليها ، والحق ان رجلي كانتا ترتجفان إذ ذاك ، فقال لي الناس : لقد ضللت سبيلك يا زارا ، بل أصبحت لا تعرف أن تنقل خطاك .

فقالت ، ولا صوت لها : وأية أهمية لسخريتهم ؟ لقد تخلصت من الطاعة

يا زارا فوجب عليك أن تأمر الآن . أفلا تعلم ان من يحتاج الجميع اليه بأكثر من احتياجهم إلى أي شيء إنما هو يقضي في عظائم الأمور ؟

ان القيام بالكبائر صعب ، وأصعب من هذا أن يأمر الانسان بها . ان ذنبك الذي يغتفر هو انك ذو سلطان ولا تريد أن تتحكم .

قلت : ليس لي صوت الأسد لأصدر أوامري .

فقالت – كأنها تهمس همساً – : لا يثير العاصفة إلا الكلمات التي لا صوت لها . ان من يدير العالم انمـــا هي الافكار التي تنتشر كأنها محمولة على أجنحة الحمام . عليك أن تسير يا زارا كأنك شبح لما سيكون يوماً في آتي الزمان ، هكذا تندفع في سبيلك إلى الامام وأنت تتولى الحكم .

فقلت : ان الخجل يتولاني .

فعادت تقول ، ولا صوت لها : عليك أن تعود طفلاً فيذهب خجلك عنك ، ان غرور الشباب لم يزل مستولياً عليك لأنك بلغت الشباب متأخراً ، ولكن على من يريد الرجوع إلى طفولته أن يتغلب على شبيبته .

واستغرقت في تفكيري وأنا ارتجف، ثم عدت إلى تكرار كلمتي الأولى قائلاً: لا اريد . وعندئذ ارتفع حولي صوت قهقهة مزقت قلبي وصدعت احشائي .

وقالت « هي » للمرة الأخيرة : زارا ، ان ثمارك ، ناضجـة ، غير انك لم تنضج أنت لا ثمارك ، فعليك اذن أن تعود إلى العزلة لتزيد في قساوتك ليناً .

وعاد الضحك يتعالى ، فشعرت انها انصرفت عني « هي » . وعاد الصمت يسود باعمق مما كان حولي ، أما أنا فبقيت منطرحاً على الأرض سابحاً في عرقي .

والآن ، وقد اعلنت لكم كل شيء أيها الصحاب ، فها أنذا أعود إلى عزلتي وما اخفيت عنكم شيئاً . أرحل عنكم بعد ان علمتكم أن تعرفـوا من هو أشد الناس تكتماً ومن يريد أن يكون كتوماً .

وا أسفاه ، أيها الصحاب ، ان لدي ما أقوله لكم أيضاً ، ولدي ما أبذله ، فلماذا لا أبذله الآن ؟ ألعلني أصبحت شحيحاً ؟

وما نطق زارا بهذا حتى أرهقه سلطان حزنه لاضطراره إلى الرحيـــل ، فبكى منتحباً وما تمكن أحد من تعزيته ، ومع هـذا ما أرخى الليل سدوله حتى ذهب زارا وحده تحت جنح الظلام متخلياً عن صحبه .

* * *

الجزء الثالث

« انكم تنظرون إلى ما فوقكم عندما
« تتشوقون إلى الاعتلاء ، أما أنا فقد
« علوت حتى أصبحت أتطلع إلى ما تحت
« قدمي . فهل فيكم من يمكنه أن
« يضحك وهو واقف على الذرى ؟

« من يحوم فوق أعالي الجبال
« يستهزىء بجميع مآسي الحياة
« ويستهزىء بمسارحها بل بالحياة نفسها »

زرادشت

القراءة والكتابة . الجزء الاول صفحة ٥٥

وكان قد انتصف الليل عندما توجه زارا إلى أكمة الجزيرة وهو يجـد في السير ليبلغ الشاطىء الآخر عند بزوغ الفجر إذ كان يقصد الابحار من هذه الجهة حيث ترسو بعض المراكب لتقل طلاب المهاجرة من الجزر السعيدة .

وتذكر زارا الرحلات التي قـام بها منفرداً منذ صباه فمرت بمخيلته رسوم الجبال والتلال والذرى التي تسلقها في حياته فقال : ما أنا إلا رحالة ومتسلق مرتفعات وما تستهويني منبسطات الأرض ولا يستقر بي مقام . ومهما قدر علي ومهما وقع لي فلا تعدو الحوادث أن تكون في نظري رحلة واعتلاء . فما لي ان أرى من الآفاق إلا ما انطبع منها في نفسي . ولقد مضى الزمن الذي كان لي فيه أن أتوقع الحوادث من خطرات الحظ ، وهـل لي أن انال من الدهر شيئاً لم يستقر في نفسي من قبل .

ان كل ما يطرأ عليّ بعد الآن انما هو ذاتي العائدة تكراراً بعـد انفراطها وتمازجها في الاشياء وتصاريف الزمان غير انني اصبحت الآن على مدرج آخر الذرى أمام اصعب مسلك مـا اقتحمت مثله في حياتي ، فأنا أبدأ الآن اشد رحلاتي عناء وأروعها وحشة .

وأنى لمثلي أن يتجنب مثل هذه الساعة التي تهتف قائلة: انك على مبدأ طريق المجد حيث تتداخل الذرى في المهاوي . انت تسير على هذه الطريق وكنت تراها قبلاً آخر ما تقتحم من اخطار فأصبحت لديك آخر ملجأ تهرع اليه .

انك تسير على طريق المجد فعليك أن تتذرع بالحزم الأوفى لتقطع بنفسك خط الرجوع على نفسك .

انك تسير على طريق المجد ، فأنت منفرد عليها لا يزحمك أحد من ورائك ، وقد محت أقدامك آثار خطاك على مـــا وراءك من المسالك ، ولاحت كلمة المستحيل مخطوطة على آفاق الطريق .

لا بد لك إذا ما خلت المدارج تحت قدميك أن تتسلق قمـة رأسك إذ لا سبيل لك للاعتلاء إلا إذا اتجهت اليه والى ما وراءه وأنت تدوس على قلبك ، وهكذا سيُشقيك ما كان يحلو لديك .

ان مَن افرط في ادخار جهوده لا يلبث حتى يبتلى بالخمول . تبارك كل جهد يشد العزم ، فلا خير في أرض تدر اللبن والعسل ، ومن يطمح إلى الاحاطة بامور كثيرة فليتدرب على ارسال ابصاره إلى ما وراء حدود ذاته . وعلى كل متسلق للذرى أن يتعزز بمثل هذا الحزم إذ لا يسع من يتحرى الامور متجسساً بفضوله إلا الوقوف عند اسهل الأفكار منالاً . وأنت يا زارا تطمح إلى الاحاطة بالعلل والى نفوذ خفـايا الامور ، فعليك أن تحلق فوق ذاتك فتجتازها متعالياً حتى ترى ما فيك من كواكب وهي تتصاغر في كل افق دون افقك الرفيع .

أجل ان ذروتي إنما هي حيث أقف ناظراً إلى الأعماق فأرى فيهـا ذاتي وكواكبها ، تلك هي آخر هضبة اطمح إلى بلوغ قمتها .

بهذا كان زارا يناجي نفسه وهو يصعد المرتفع معللاً بالتعاليم الصارمة ما في قلبه من جراح .

وعندما بلغ الذروة انبسط البحر أمام ناظريه فوقف مبهوتاً واستغرق في صمت طويل ، وكانت السماء لا تزال تتألق بالنجوم والهواء يهب بارداً على الاكمة .

وهتف زارا حزيناً: « لقد تبينت ما قدّر علي ، وها أنا ذا مستعد للاقدام فهذه آخر عزلة اقتحمها .

سأنحدر اليك أيها البحر المظلم المنبسط عند قدميّ ، أنت الليالي المفعمة بالأحزان ، أنت القضاء والقدر أيها الخصم البعيد .

انني أقصد ارفع جبالي مقتحماً ابعد اسفاري فعلي إذاً ان أهبط إلى مهاو أبعد من اصغرها من كل ذروة رقيتها حتى الآن .

علي أن اذهب من الأسى إلى اغوار ما رسبت في مثلها من قبل فأصل إلى قرارة ما في الاحزان من ظلمات . ذلك ما قدّر علي فأنا على أهبة اقتحامه .

لقد تساءلت فيما مضى عن منشأ الجبال فعرفت أخيراً انها نهدت من البحار كما تشهد صخورها وجروف ذرواتها ، فما يبلغ الأعلى مقامه إلا لانطلاقه من المقام الأدنى » .

هكذا تكلم زارا وهو ماثل على قمة الجبـــل تدور به لفحات الصقيع ، ولكنه مـــا بلغ الشاطىء ووقف بين نتوءات صخوره حتى حـــل عليه التعب وتزايدت أشواقه فقال :

« ان البحر هاجع أيضاً فعينه الوسنى تحدجني بلفتات غريبة وانفاسه الحرى تهب علي . انه مستغرق في أحـــلامه يتقلب مضطرباً على جافيات مسانده . إنني استمع لهديره كأنه يئن بتذكارات مفجعات ، وقد يكون هذا الهدير نذيراً بالشؤم في آتي الزمان .

انني اشاطرك الأسى أيها المدى المظلم الوسيع ، فأنا بسببك ناقم على نفسي أتمنى لو طالت يدي فأنقذك من أصفاد احلامك » .

وانتبه زارا فاذا هو يضحك ساخراً من ذاته فتمرمر وتساءل عما إذا كان سيبلغ بـــه حماسه إلى اطلاق انشاده لتعزية البحار ، وعما إذا كان سيستمر مضعضعاً في سكرة غرامه واستسلامه فقال :

« لقد عرفتك في كل زمـــان يا زارا تقتحم الامور الخطيرة بلا كلفة وبلا مبالاة ، وقد رأيتك طـــوال حياتك تدغرغ الوحوش المفترسة فكان يكفيك منها أن تهتاج حبك بأنفاسها الحرى وبنعومة مخالبها لتجذبك اليها .

ليس من خطر أعظم من الحب يحدق بالمستغرق في عزلته ، فان المنفرد يحب

كل شيء يتنسم فيه الحياة ، وما أعجب جنوني بالحب وتساهلي فيه ! »

هكذا تكلم زارا وقد عاد إلى الهزء بنفسه ، غير انه تذكر من هجر من خلانه فخيل اليه انـه يسيء اليهم بتفكيره فيهم فنقم على نفسه وانقلب من ضحكه إلى البكاء فسالت دموعه مريرة يتمازج فيها الغضب والشوق .

الرؤى والالغـــاز

١

وعند تناقل البحارة خـبر وجود زارا بينهم وكان بلغهم ذلك من رجـل دخل السفينة معه قادمـاً من الجزر السعيدة ساد الجميع شيء من القلق وباتوا يتوقعون حدثاً في وجوده ، غير ان زارا بقي يومين جامداً تساوره أحزانه ، تحدق فيه الانظار فلا يلتفت ، وتوجه اليه الاسئلة فلا يجيب . وأخيراً اصغى لما يقال حوله متوقعاً سماع أبحاث لها خطورتها تدور على هذه السفينة القادمة من بعيد والمتجهة إلى أماكن سحيقة . وما كان زارا لينفر من الاسفار البعيدة ومن الاخطار . وبعد ان اصغى طويلاً حلت عقدة لسانه فانطلق يقول :

– اليكم أيها الشذاذ الجريئون أياً كنتم ، أيهـا المستسلمون للشراع الغدار على هائجات الامواج .

اليكم أيها الثملون بخمرة الاسرار ، المنجذبون بين خيوط الظلمات والانوار إلى نغمات كل شبابة تنوح في المجاهل الخفية ، انكم تنفرون من تلمس طريقكم بيد مرتجفة على ما نصب من دليلات الحبـال إذ تفضلون الادراك بالحس على الادراك بالاستقراء .

اليكم دون سواكم أوجه الخطاب الأخير بما تجلى من ألغاز وبما خطر من رؤى لأشد الناس استغراقاً في عزلته .

لقد اجتزت الفسق في أشد فتراته وجوماً . اقتحمته وقد تقلصت شفتاي وعلا وجهي الاغبرار و كنت شاهدت من قبل شموساً كثيرة تجنح إلى الغروب .

رأيت أمامي طريقاً يتسلل على جروف المرتفعات ، طريقـاً وعراً تعرى جانباه من كل نبات فدفعت عليه أقدامي اتحداه فأسمع صريف حصاة تحتها .

مشيت صامتاً احاول تثبيت الحصى المتطايرة بخطواتي لأنجو من الانزلاق.

واعتليت فاذا بروح الكثافة وهـو عدوي الألد يشد بي إلى الأعمـــاق ، واعتليت أيضاً فاذا بهذا الروح المطبق علي كالقزم من الناس والخلد من سكان الأوجار يسكب في اذني ودماغي كلمات ثقيـــلة كالرصاص فسمعته يقول لي متمهلاً هازئاً :

اي زارا أيها الحجر الحكيم المنقذف الى العلا ليزعزع الكواكب فيمدارها، ما أنت إلا القاذف والمقذوف معاً فلا بد لك من السقوط ككل حجر يرشق إلى ما فوق . لقد حكمت بالرجم فكان حكمك بـه على نفسك ، وهذا الحجر الذي فوقته سيرجع ساقطاً عليك .

وسكت القزم طويلاً حتى ضاقت من سكوته انفاسي ؛ فالرفيق الصامت يشعرك بوحشة الانفراد اكثر مما تشعر بها وأنت وحدك لا رفيق لك .

وارتقيت أيضاً وأنا تائه في تفكيري وأحلامي شاعر بتزايـد الضيق في صدري كأنني عليل نبهته اضغاث احلامه فاستفاق ليشعر بأوجاعه .

غير انني اعهد بنفسي قوة اسميها شجاعة وهي القوة التي ارغمت بها كل وهن في نفسي ، بهذه الشجاعة تذرعت فصحت بالقزم قائلاً :

إن واحداً منا يجب عليه أن يتوارى .

ما من قاتل كالشجاعة التي تهاجم ، وما من فيلق يتقدم إلا وفي طليعته الانغام الحاديات .

ان اوفر الحيوانات شجاعة إنمـــا هو الانسان الذي قهر بشجاعته سائر الحيوانات وتغلب على جميع الاوجاع ماشياً وراء حاديات الانغام بالرغم من ان أوجاع الانسان أشد ما في الكون من أوجاع .

وللشجاعة أيضاً فضيـلة ردع الدوار المستولي على الرؤوس حين تحـدق في الأعماق ، وما من موقف للانسان لا هاوية تحته ومـا عليه إلا ان يحدق ليرى المهاوي من أي موقف في مواقفه .

ان الشجاعة خير ما يقتل فانهـا تقتل الاشفاق أيضاً ، وما من هاوية أبعد قراراً من الاشفاق لأن نظر الانسان ليذهب وهو يسبر الآلام إلى أقصى مدى يبلغه عند سبرة الحياة نفسها .

ان خير ما يقتل انما هي الشجاعة إذا هاجمت ، لأنها ستتوصل أخيراً إلى قتل الموت نفسه لأنها تقول في ذاتها : « يا للعجب ! أهذا ما كانت الحيـاة ؟ اذن لأرجعن اليها مرة أخرى » ان في مثل هذه العقيدة أشد حداء يدفع إلى الاقدام ، من له اذنان سامعتان فليسمع .

٢

واستوقفت القزم قائلاً : يجب ان يبقى أحدنا ويفنى الآخر . انني أنـا الأقوى لأنك لا تدرك اعمق افكاري ، ومـا اعمقها إلا فكرة لا قبـل لك باحتمالها . فارتمى القزم عن كتفي فخف حملي ، فاذا بهذا القزم يجلس القرفصاء على حجر امامي ، وإذا تجاه باب كأنه وجد صدفة هناك فقلت لرفيقي :

انظر إلى هذا الباب فان له واجهتين ، وهنا ملتقى مسلكين لم يبلغ انسان اقصاهما ، احدهما منحدر يمتد إلى ابدية ، والآخر مرتفع يمتد إلى ابدية اخرى ، المسلكان يتعارضان متقاطعين عند هذا الباب وقد كتب اسمه على رتاج واحد « الحين » .

فقلت : أتعتقد أيها القزم ان من يتوغل في أحد هذين المسلكين يبقى معتقداً بأن اتجاه أحدهما معارض لاتجاه الآخر ؟

فقال القزم بازدراء : ان كل اتجاه على خط مستقيم انما هو اتجاه مكذوب فالحقيقة منحرفة لأن الزمان نفسه خط مستدير أوله وآخره .

فأجبته قائلاً : لا تستخف بالأمر أيها الروح الكثيف وإلا غادرتك فتعطب رجلك حيث أنت ، ولا تنس انني أنا حملتك إلى الأعالي . تفكر في « الحين » الذي نحن فيه الآن، فان من بابه يمتد سلك أبدي لا نهاية له متراجعاً إلى الوراء ، فإن وراءنا أبدية يا هذا .

أفما كان لزاماً على كل شيء معزز بمعرفة السير أن يجتاز هذا المسلك فيما مضى؟

أفما تحتم على كل شيء له طـاقة الوصول أن يكون قد وصل فيما مضى فأتم سيره وعبر ؟

وإذا كان كل موجود الآن قد وجد من قبل فما هو اعتقادك في هذا الحين ؟ أفما كان لهذا الباب وجود سابق ؟

أفما ترى الاشياء كلها متداخلة ، وان هـذا « الحين » يجر وراءه كل مـــا سيكون ، بل يجر نفسه أيضاً ؟

أفما يتحتم والحالة هذه على كل معزز بقوة السير أن يندفع مرة أخرى على هذا المسلك المتجه إلى ما فوق ؟

انظر إلى هذه العنكبة التي تدب على مهل تحت شعاع القمر ! انظر إلى شعاع القمر نفسه والى ذاتي وذاتك مجتمعين تحت هذا الباب تتهامسان باسرار الأبد ! أفما تعتقد انه لا بد أن نكون وقفنا جميعاً من قبل في هذا المكان ؟

أفليس علينا أن نعـود لنندفع تكراراً على المسلك الآخر الذاهب أمامنا متصاعداً مستطيلاً مروعاً ؟ أفما لزم علينا أن نعود تكراراً وأبداً ؟

هكذا كنت اتكلم بصوت يتزايد انخفاضه وقد أرعبتني أفكاري وما كمن وراء أفكاري فإذا بي اسمع فجأة نباح كلب على مقربة منا .

خيل إلي انني سمعت مثل هذا النباح من قبل ، ورجعت بتذكاري إلى الماضي فإذا هو يسمعني هذا النباح في أبعد أيام طفولتي ويمثـــل لي مثل هذا الكلب الذي أراه الآن وقد وقف شعره ومد رقبته مرتجفاً في أشد الليـالي سكوناً حيث يتراءى للكلاب أيضاً ان في العالم أشباحاً .

ونبه نباح الكلب اشفاقي إذ تذكرت انه عندما عوى منذ هنيهة كان القمر يطل من وراء البيت صامتاً كالموت ، ومنذ هنيهة كان هـذا القمر يستقر فوق السطح كقرص ملتهب يراود ما ليس له ، وذلك ما أثار غضب الكلب لأن الكلاب تؤمن بالسارقين والاشباح .

عندما سمعت هذا النباح للمرة الثانية عاودني الاشفاق تكراراً .

أين توارى القزم الآن ومعه الباب والعنكبة وأحاديث المنـاجاة ؟ أكنت في حلم فاستفقت ؟ فـأنا الآن وحيد بين جرداء الصخور لا سمير لي غير شعاع القمر المنفرد في السماء .

لكنني رأيت رجلاً مسجّى على الأرض وكان الكلب يقفز وقد اقشعرّ جلده وهو يهدر هديراً ، وإذ رآني قادماً نحوه بدأ بالنباح فتساءلت عمـا إذا كنت سمعت من قبل كلباً ينبح بمثل هذا الصراخ المستغيث .

والحق ان ما رأيت في ذلك المكان ما كنت رأيت مثله ، لأنني شاهدت أمامي راعياً فتياً ينتفض محتضراً ، وقـد ارتسم الروع على وجهه وتدلت من فمه أفعى حالكة السواد ، فتساءلت عما إذا كنت رأيت قبل الآن مثـل هذا الاشمئزاز والشحوب على وجه من الوجوه . لعـــل هذا الراعي كان يغط في رقاده عندما انسلت الأفعى إلى حلقه وانشبكت فيه .

وبدأت أسحب الأفعى بيدي ، ولكنني شددت عبثاً ، فسمعت من داخلي

صوتاً يهيب بالراعي قائـــلا عض عليها بأسنانك ولا تني حتى تقطع رأسها . وهكذا سمعت بهذا الهتاف أصوات رعبي واشمئزازي وضغينتي وإشفاقي كأنها صوت واحد يتعالى مني .

فيا أيها الشجعان المحيطون بي ، أيهـا الشذاذ المكتشفون ، يا من تقتحمون مجاهل البحار مستسلمين للشراع الغدّار وأنتم تسرون بالمعميات والألغاز ، عبروا رؤى المنفرد وحلوا ما رأى من معميات وقد كمن فيها ما كان وما سيكون .

أي هذه الرموز يدل على ما فات وأيها يدل على ما هو آت ؟

من هو الراعي الذي اندست الافعى في فمـه ، ومن هو الانسان الذي سيصاب بمثل هذه الداهية الدهماء ؟

على ان الراعي بدأ يشد بأسنانه منفذاً ما أشرت به ، وما لبث ان تفل دافعاً برأس الأفعى إلى بعيد ، ثم انتفض ووقف على قدميه .

وتبدلت هيئة الراعي فلم يعـــد راعياً حتى ولا انساناً ، إذ جلله الاشعاع وضحك ضحكة ما سمعت حياتي مثلها .

لقد سمعت يا اخواني ضحكة ليست من عـــالم الانسان ولم أزل منذ ذلك الحين احترق بشهوة لا أجد ما يطفئها . ان شهوة هذه الضحكة تنهش احشائي فكيف أرضى الموت بعد الآن ؟

هكذا تكلم زارا ...

الغبطة القـاسرة

وسار زارا يقطع أبعاد البحر تساوره مثل هذه الهموم ، وتدور به مثل هذه الاسرار ، حتى إذا تخطى مجال أربعـة أيام عن الجزر السعيدة وما ترك عليها من صحبه ، اشتدت عزيمته فتغلب على آلامه ، وثبت قدميـه في موقفه

متجهاً إلى مقدراته مناجياً سريرته وقد عاد اليها مرحها وسرورها قائلاً :

لقد فزعت إلى عزلتي لأنني تقت اليها ، فـأنا الآن منفرد أمام صفاء السماء ومدى البحار ، وقد خطا النهار إلى عصره وما التقيت بأصحابي للمرة الأولى إلا في وقت العصر ، وفي مثـل هذا اليوم اجتمعت بهم للمرة الثانية . والعصر هو الساعة التي يهدأ فيهـــا اضطراب الانوار جميعها لأن السعادة الذاهبة بدداً منشورة على مسالكها بين السماء والأرض تتجه إلى الاستقرار في روح الضياء . وها ان السعادة تحوّل اضطراب النور إلى سكون .

فيا لعصر حياتي ! ان سعادتي هي أيضاً قد انحدرت يوماً إلى الوادي تطلب مستقراً فلقيت هذه الأرواح النيرة تفتح لها الملجأ الأمين .

يا لعصر حياتي ! لكم تخليت عن أشياء في الحياة توصلاً إلى مغارس أفكاري الحية وإلى انوار الصباح تدور في ذراتها أسمى أمانيّ وآمالي .

لقد طلب المبدع يوماً رفاقاً له وفتش عن أبناء آماله فأدرك انه لن يجدهم اذا هو لم يخلقهم خلقاً .

لقد أتممت نصف مهمتي باتجاهي نحو أبنائي وبعودتي اليهم ، وقد وجب على زارا أن يُبلغ نفسه الكمال من أجل هؤلاء الأبناء . وما يحب الانسان من صميم قلبه إلا ابنه ونتيجة جهوده ، وحيث يتجلى الحب الأشد فهنالك تكمن القوة المولدة ، ذلك ما أدركته بتفكيري .

إن أزهـــار أبنائي لا تزال تتفتق في الربيع والريح تهب على صفوفهم فتهزها ، فأبنائي أشجار حديقتي ونبت خير أراضيّ .

ان هذه الاشجار متراصة في منابتها على الجزر السعيدة ، ولسوف أقتلعها واحدة فواحدة لأغرسها متفرقة فتتعلم احتمال العزلة وتنشأ فيها الانفة والحزم لتنتصب كل منها تجاه البحر وقد تصلبت جذوعها وتعقدت أغصانها كمنائر حية للبقاء القاهر .

على كل شجرة أن تشخص في مهب العواصف المترامية إلى البحر حيث يتدافع الغمر إلى قاعدة الجبل فلا تغفل ليلاً ونهاراً عن تفحص سرائرها. عليها أن تتحمل التجارب ليُعلم انها من سلالتي وانها تحدرت من أصلي تعززها الارادة الجالدة فتبدو صامتة حتى عندما تتكلم ، وإذا ما استدلمت تبدو معطية وهي آخذة . وهكذا يتحول من يمشي على أثر زارا باضرابه وبابداعه إلى شخصية تحفز شريعتي على ألواحي فيكتمل بذلك كل شيء .

وهأنذا من أجل هذه الشخصية وأمثالها أسعى إلى تكوين شخصيتي فأمتنع عن ورود السعادة مقتحماً كل شقاء في آخر تجربة أتحملها لأدرك سريرتي .

لقد آن الأوان لرحيلي وقد نبهني إلى وجوب الرحيل خيال المسافر وأطول الأزمان وأعمق الساعات صمتاً إذ نفخت الريح في فتحة القفل فتراجفت درفة الباب قائلة : هيا .

ولكنني كنت مقيداً بحبي لأبنائي يأسرني تشوقي إلى هـذا الحب لأصبح فريسة لهؤلاء الابناء فأضحي من أجلهم نفسي ، وما الشوق عندي إلا صورة ظاهرة لحقيقة فنائي . ان ابنائي لي وفي هـذا التملك يجب أن يضمحل كل شوق مستحيلاً إلى عقيدة مكينة .

وكان رأسي يلتهب بشمس محبتي فأحترق بحرارة دمي فرأيت اشبـاح الشكوك تدور بي من كل جهـة فتمنيت أن يلفحني قرّ الشتاء حتى تصطك اسناني من رعشة الصقيع ، ومـا عتم ان اكتسح نفسي ضباب الجليد ، فشق الماضي لحوده وبعثت منه الآلام التي دُفنت وهي حية فيها ، وما تناولها الفناء لأنها كانت نائمة على أكفانها .

وكان كل شيء يشير إلي بأن قد حان زمن الرحيل ولكنني كنت لا اتنبه الى هذه الدعوة حتى تحركت أعمـاقي ولسعتني ثائرات أفكاري . ويا ليت لي القوة للتغلب على ارتعاشي عندما أشعر بقوة التفكير في اغواري تحاول أن

تخترق لهـــا منفذاً . فانني لا أزال احس باختلاج قلبي عندما اتنصت لدبيب افكاري وهي تحـاول الانجلاء لي . ان صمتك نفسه أيتها الفكرة ما يشد على عنقي وأنت أشد صمتاً من أغواري . ولكم حاولت أن استخرجك من الاعماق أيتها الفكرة فخانني العزم واكتفيت باضمـاري اياك في ذاتي . انني لم أصل بعد الى جرأة الاسد والى منتهى اقدامه .

انك لجد ثقيلة في أغواري أيتها الفكرة ولسوف أجد يوماً قوة الاسد واتخذ لصوتي زئيره فارفعك من الغور إلى المنبسط ، حتى إذا مـا تغلبت بذلك على نفسي تدرجت إلى انتصار اعظم اختتم بـه أعمالي . وإلى أن أبلغ هـذا الظفر سأبقى تائهاً على بحار لا أعرف لها ساحلاً تداعبني خطرات الاحداث فأتلفت إلى ما ورائي وإلى ما أمامي ولا أعلم أين المنتهى .

ألم تحن بعد ساعة جهادي الأخير أم هي مائلة أمامي الآن ؟ والحـق ان البحر والحياة يحيطان بي بجمالها الفتان ويعلقان أبصارهما عليّ .

فيا لعصر حياتي، يا للسعادة تتقدم ساعة المساء، يا للمرسى في وسط العباب، يا للسكون في قلب الارتياب ، انني احاذركن ولا أثق بكن جميعاً .

أما والحق انني أخشى جمالكن الغدار كما يخشى العـاشق ابتسامة تجاوزت حد التلطف في افترارهــا . انني ادفع عني ساعة السعادة كالغيور يصدّ عن محبوبته ولما كان العطف يتجلى في قسوته وجفائه .

بعداً لك أيتها الساعة السعيدة ! فقد اجتاحتني بحلولك غبطةٌ قاسرة وأنا أتوقع أعمق الأحزان . لقد جئتني في غير الاوان .

بعداً لك أيتها الساعة السعيدة ! اذهبي واطلبي لك ملجأ هنالك في مقرّ أبنائي ، سارعي اليهم وباركيهم قبل حلول المساء وأنيليهم سعادتي .

لقد اقترب الغسق وجنحت الشمس إلى الغروب فتوارت عني سعادتي .

هكذا تكلم زارا ...

وبات يتوقع نزول شقائه به طوال ليله ، غير أنه انتظر عبثاً إذ بقي الليل منيراً ساكناً واستمرت السعادة تخطو مع الساعات مقتربة اليه . وما لاح الفجر حتى بدأ زارا يتضاحك قائلا :

ان السعادة تتأثرني لأنني لا أتأثر النساء . وهل السعادة إلا امرأة ؟

قبل بزوغ الشمس

أيتها السماء الرافعة قبابها فوق رأسي نقية صافية ، أيتها السحيقة وقد غادرتُ في أبعادك الانوار ، انني اشخص اليك فتتملكني رعشة الاشواق الالهية .

أنا لا أسبر اغواري إلا إذا سموت إلى عليائك ، ولا أشعر بطهارتي إلا حين يجلاني صفاؤك .

انك تحجبين نجومك كما يتلفع الإله بسنائه . أنت صامتة وبصمتك تذيعين لي حكمتك

لقد تجليت لي اليوم في سكونك على زبد الآفاق فأعلنتِ لروحي المزبدة ما فيك من حب وعفاف جئت إليّ جميلة مقنعة بجمالك تخاطبينني بلا كلام وتعلنين حكمتك وما كنت أعلم ما في روحك من عفاف . أتيت إلي قبل بزوغ الشمس أنا المنفرد في عزلتي .

أنا وأنت صديقان منذ الأزل ، فأحزاننا واحدة كارتياعنا ، وعمق أغوارنا وشمسنا واحدة أيضاً . وما نتناجى إلا لوفرة ما نعلم ثم يسودنا الصمت فنتبادل ما أعرف وما تعرفين بلغة البسمات . أفما بُعثت انوارك من مكمن أنواري ؟ أفليست فكرتك اختاً لفكرتي ؟

لقد تعلمنا كل شيء سوية وتدربنا سوية على الاعتلاء فوق ذاتنا متجهين إلى صميمها مبتسمين بافترار لا تعكره الغيوم وبلفتات صافية نغرقها في سحيق الابعاد

في حين تتدافع كالأمطار تحتنا النزعات المكبوتة وأهداف الخطيئة .

إلى مَ كانت تتوق نفسي عندمــا كنت اذهب في الليل شارداً على مسالك الضلال وماذا كنت أطلب في تسلقي الجبال نحو قممها ؟ أفما كنت انت مقصدي أيتها السماء وهل كانت أسفاري جميعها إلا ذهاباً مع حافز التدرب ؟ وهل كان لارادتي من هدف غير التحليق في الأجــواء ؟ وهل ابغضت شيئاً بغضي الغمام وكل نقاب يلفع الضيــاء ؟ لقد كرهت بغضي نفسه لأنــه يعكر صفاءك أيتها السماء .

إنني أنفر من هذه الغيوم تمر كأنها قطط برية تزحف زحفاً لأنها تختلس مني ومنك أيتها السماء الحقيقة الايجابية الثابتة في كل شيء ، فأنا وأنت ننفر من هذه الدخيلات المعكرات من هذه الغيوم الكاسحات ، فما هي إلا كائنات مختلطة في نوعها يسودها التردد فلا تمرن ان تعلن باخلاص ولا أن تبارك باخلاص وخير لي أن الجأ إلى مغارة أو أسقط في هــاوية من أن أقف أمامك باسمــاء الضياء وقد عكرت صفاءك الغيوم الكاسحات ، ولكم رددت أن اسمّر ارادتهــا على آفاقك بسهام البروق الذهبية ثم انزل عليها الرعود تهوي قاصفة على مراجل أحشائها ، انني اود قرعها بعصا الغيظ لأنها تحجب عني حقائقك أيتها السماء الممتدة بأغوار أنوارها فوق رأسي كما تحجب حقيقتي عنك .

لخير لي ان اسمع هزيم الرعود وولولة العــواصف من أن أتنصت إلى مواء هذه الهررة الزحافة المترددة . ففي المجتمع أمثال لهذه الغيوم يسيرون مترددين بخطوات الذئاب وقد وقفت أشد بغضي عليهم .

« على من لا يعرف أن يمنح البركة أن يتعلم إنزال اللعنات » ذلك ما الهمتنيه السماء الصافية مبدأ ينير سمائي كالكواكب في أشد الليالي قتاماً .

ما دمتِ فوقي أيتها السماء الصافية المتألقة بالانوار فانني لا انقطع عن منح البركة وإيراد بياني ايجاباً وتأكيداً لأنير بعقيدتي جميع الاغوار المظلمة .

لقد جاهدت طويلا حتى أصبحت مباركاً ومؤكداً. وما ناضلت إلا لأحرر ذراعيّ فأبسطهما للبركة ، وتقوم بركتي على الاعتلاء فوق كل شيء كما تعتلي السماء والسقوف المكورة وقباب الأجراس والغبطة الدائمة . فطوبى لمن يبارك هكذا ، لأن كل الأشياء قد تعمدت من ينبوع الأبدية وما وراء الخير والشر ، وما الخير والشر إلا خيالات عابرة وأحزان بليلة وغيوم متراكضة إلى الفناء .

والحق أن من البركة لا من اللعنة أن نعلم بأن فوق كل شيء تمتد سماء الصدفة وسماء البراءة وسماء الاضطراب .

ان كلمة الصدفة لأقدم ما في العالم من نسب للاشياء ، وقد أرجعت كل الأشياء إلى هذا النسب النبيل فانقذتها من عبودية المقصد والهدف . وهكذا رفعت الحرية والغبطة السماوية عالياً ونصبتها كالقباب فوق جميع الأشياء إذ علمت ان ليس من ارادة أبدية تعلو بها لتبسط مقاصدها فوقها .

لقد وضعت حداً لهذه الارادة بل لهذا الجنون وهذا الاضطراب عندما علمت ان الوقوف عند الحقيقة كان مستحيلاً وسيبقى مستحيلاً . فما هناك إلا قليل من التعقل وذرات من الحكمة تتلقفها الكواكب كخميرة امتزجت بالاشياء جميعها ولولا الجنون لما امتزجت بها .

ليس للانسان أن يعطي من الحكمة إلا قليلاً . غير انني وجدت في كل مكان عقيدة لها سعادتها وهي تفضيل الرقص على أرجل الصدفة العمياء .

فيا أيتها السماء الممتدة فوق رأسي ، أيتها السماء الصافية المتعالية ، لقد أصبح كل صفاء فيك قائماً على اعتقادي بأن ليس في الكون عنكبة خالدة ، وليس فيه من الحكمة ما تنسجه العناكب . فلتكن مجالاتك ايتها السماء مسرحاً لخطرات الصدف الالهية ، أو فلتكن خواناً يدحرج عليه الالهة نردهم ، فلماذا يعلو أديم وجهك الاحمرار ؟ أترى جاء بياني مبهماً أم وردت بركتي لك لعنة عليك ؟ أم أخجلك أن انفرد بك فأردت أن اتوارى وأكف عن الكلام لأن الفجر قد لاح على الآفاق ؟

ان في العالم من الاغوار ما لا يدركه النهار ، ومن الاشياء ما يجب كتمانه أمامه ، وقد باغتنا النهار ، فلنفترق .

أيتها السماء الممتدة فوق رأسي بطهرها واضطرامها ، أيتها الغبطة المتجلية قبل بزوغ الشمس ، لقد باغتنا النهار ، فلنفترق .

هكذا تكلم زارا ...

الفضيلة المصغرة

١

ولما وطىء زارا اليابسه ، لم يتجه تواً إلى جبله وغاره بل ذهب يضرب في الآفاق مستفسراً عن كل ما يرى فكان يقول عن نفسه : ما أنا إلا الجدول يتلوى على منعطفاته متجهاً إلى مصدره لا إلى مصبه. وما قصد زارا من تجواله إلا معرفة ما آلت اليه حالة الناس اثناء غيابه ، وهو لا يدري أتعاظم الانسان أم تصاغر . وسار زارا حتى ادى بـه المطاف إلى مسلسل الابنية الحديثة فوقف أمامها وهو يعلن دهشته بقوله :

– إلى مَ ترمز هذه المساكن ؟ والحق انهـا ليست من صنع روح جبارة تعلن ذاتها بما تصنع ، ولعلها أخرجت من حقيبة طفل ، فيرجعها طفل آخر إلى مستودع الألاعيب .

أبوسع الرجال أن يدخلوا هذه الحجر ويخرجوا منها كأنها معدة لصغيرات الدمى الرافلات بالحرير أو لصغار الهررة النهمة التي تحشر ذاتها لتفترس فتصبح فريسة ؟

وشخص زارا ملياً ثم قال والحزن يهدج صوته : لقـد أصبح كل شيء صغيراً ، فانني حيثما اوجه أنظاري لا أرى غير أبواب خفضت ارتاجها فإذا

شاء أمثالي أن يجتازوها تحتم عليهم أن ينحنوا .

أيطول بي الزمان حتى أعود إلى وطني حيث لا أرغم عن الانحناء أمام كل صغير ؟

قال هذا وأرسل نظراتة تخترق الآفاق البعيدة وهو يدفع بزفرة الشوق العميق وتمالك زارا نفسه فوقف يلقي خطابه عن الفضيلة المصغرة .

٢

أمرّ بهذا الشعب مفتحاً عيني منتبهاً إلى نفسي فان رجاله لا يغتفرون لي إغضائي عن فضائلهم وترفعي عن حسدهم عليها .

انهم يلحقون بي نابحين إذ اقول لهم لا يليق بصغار الناس إلا صغيرات الفضائل . انهم ينبحون إذ يقصر بي فهمي عن ادراك الفائدة من وجودهم في الحياة . وما أشبهني بديك غريب تثور الدجاجات عليه بمناقيرها ، فلا أحقد عليها لأنني تعودت على احتمال التافه من المزعجات وما فوقت قط سهامي نحو أي صغير حقير ، فما ينتفش بريشه لأية حركة إلا القنافذ .

ان صغار النـــاس يتحدثون عني في سمرهم دون أن يفتكر أحدهم بي ، فتذهب ضجتهم تحرك دثاراً لتفكيري فأتمتع بنوع من السكون ما كنت أعرفه من قبل .

ان واحدهم يقول لرفيقه ما له ولنا ، انه الغمامة الربداء وقد تحمل بأهدابها وباء كاسحاً فلنحذرها .

وقد رأيت أمس امرأة تجتذب طفلها اليها لترده عن الاقتراب مني ، شدّت به وهي تصيح : ابعدوا الاولاد فان هاتين العينين تحرقان روحهم الغضة .

انهم يتكلفون السعال إذا ما تكلمت حاسبين ان سعالهم يقف بوجه العاصفات فيردها ، وقد خشيت آذانهم فامتنع عليها أن تحس بنبرات السعادة في صوتي .

يقولون لا وقت نقفه على زارا ، ولكن ما أهمية جيل لا يتسع وقته لزارا ؟

وهب ان هؤلاء الناس جاءوا إليّ لتمجيدي فهــل يسمني أن أستنيم إلى أمجادهم وليس ثنــاؤهم علي إلا منطقة أشواك لو لمست حقويّ لما تخلصت من آثارها حتى بعد طرحها عني ؟

لقد تعلمت بين هؤلاء الناس حقيقة اخرى وهي ان من يسدي الثناء يتظاهر باعادة ما ُبذل له وهــو لا يرمي في الواقع إلا الى الاستزادة لنفسه من المـديح والاطراء .

سلوا قدميّ هل غرهما مثل هــذا التزلف ؟ ان قدميّ تمتنعان عن الأخذ بأي وزن مقيـــد حين يحلو لهما الرقص كما تشتهين . انهم يصورون فضائلهم الصغيرة بأروع بيان لاجتذابي اليها كما ينقرون على دف سعادتهم الحقيرة استفزازاً لرجليّ إلى الرقص . وأنا أمر بهؤلاء الناس مفتحاً عيني منتبهاً إلى نفسي لأنهم صغروا ولا يزالون يتصاغرون وما أوردهم هذا الصغير إلا مــا اتخذوه قاعدة لسعادتهم وفضيلتهم لأنهم طلبوا الراحة في الفضيلة فحشدوهم تواضعاً ، وهكذا تمرنوا على الاقدام كما يحـلوا لهم فمشوا متعارجين متماهنين وأقاموا من زرافاتهم عقبة في سبيل من يقدمون على الاسراع في سيرهم .

ان من هؤلاء من يتجه إلى الامام ولكنه لا يفتأ يتطلع الى الوراء متلماً عنقه معرقلاً سير التابعين .

على الاعين وعلى الأرجل ألا تكذب ذاتها وما أكثر الكذابين بين الوضعاء !

ولقد يكون بين هؤلاء النــاس من يريد ولكن أكثرهم منقاد تعمل ارادة غيره فيه ، ولقد ترى بينهم مخلصاً غير ان أكثرهم من حثالة الممثلين ، فمنهم من يمثل دون أن يدري ومنهم من يمثل دون أن يريد ، وما أقل المخلصين من هؤلاء القوم خاصة بين فئة الممثلين منهم .

هنا تسترجل النساء لقلة ما يتصف بالرجولة الرجال ، وما يحرر المرأة من

خلالها ليخلق فيها المرأة الحقيقية إلا من تكاملت الرجولة فيه .

وأخبث ما رأيت بين هؤلاء الناس تظاهر حاكمهم بفضيلة محكومهم فلا يزال أولو الأمر فيهم يترنمون بتصريف مصدر الحكمة .

« خدمَ ، خدما ، خدموا ، نحن نخدم » وويل للسيد الأول بينهم إذا لم يقل انه أول الخادمين .

لقد ذهب نظري المتجسس ، وا أسفاه ! برود مكامن خبثهم فما خفيت عني سعادتهم فاذا هي سعادة ذباب يترامى بطنينه إلى زجاج النوافذ تتكسر عليه أشعة الشمس ، وما رأيت بين هؤلاء القوم اشفاقاً إلا وتبينت ازاءه ما يوازيه ضعفاً ، فتراهم يتعاملون بالانصاف والعطف كحبوب الرمال تعطف واحدتها على الأخرى .

وما رأيت رجلاً فيهم الا وهو يدعي القناعة فيما أصاب من نزر السعادة غير انه لا يني في قناعته يحدج بعين الشهوة قليلاً من السعادة يضيفها إلى ما يملك ، وما يطمع هؤلاء الناس إلا بأن يتقي بعضهم شر البعض الآخر فهم لذلك يلجأون إلى التعامل بالحسنى . أما أنا فلا أرى إلا الخور والجبن في هذه الطريقة وان كانوا يعرفونها بالفضيلة فيما بينهم .

وإذا صادف وتخاطب هؤلاء الناس بشيء من الخشونة فإنني لا أتميز في نبرات صوتهم إلا أثر التهاب الحلق ، فان أقل لفحة تصيب هذه الاعناق تبحّ اصواتهم ، وما أشد هؤلاء القوم حين يحتالون ويمكرون ، ففي أناملهم كل الرشاقة ولكن في قبضة يدهم شللاً وليس لأصابعهم أن تنطوي على راحتها .

وما الفضيلة في عرفهم إلا ما يولد الضعة والتآلف ، وبهذا المبدأ توصلوا إلى جعل الذئب كلباً بل حتى إلى جعل الانسان خير الدواجن الخاضعة لتسلط الانسان .

انهم لمغتبطون ، انهم يضحكون قائلين: لقد اتخذنا مقامنا على الحالة الوسطى

بين مصارعي الثيران يردون المهالك وبين الخنازير سارحة لا تبالي .

وما هذه الحالة التي يدعونها اعتدالاً إلا حالة انحطاط وخمول .

٣

لقد القيت إلى هذا الشعب بكلمات كثيرة فما وسعه إدراك كنهها ولا حفظها ، وكل ما بدا منه هو استغرابه ألا أكون اتيت اليه بالمواعظ لمكافحة الفحشاء والرذائل ، والحق انني ما جئت نذيراً يدعو القوم الى الاحتراس ممن ينشلون الأموال من الجيوب .

لقد استغربوا ألا اكون مستعداً لتنبيه الغافلين عن الحكمة وتسديد التفكير في الحكماء فكأنهم لا يزالون بحاجة إلى مهرة المعلمين تخدّش اصواتهم الآذان كأنها صريف أقلام الحبر على اللوحات السوداء .

فإذا صرختِ بهم قائلاً : انزلوا لعناتكم على ما فيكم من جبناء الابالسة الذين لا يحلو لهم غير الانين وضم السواعد إلى الصدور للعبادة ، هبّوا منادين بكفر زارا وإلحاده، وأرتفعت فوق أصواتهم أصوات من يعلمونهم الاستكانة والصبر ، فلا املك نفسي من أن اهمس في آذان هؤلاء المعلمين لأقول لهم : أنا هو زارا الكافر الملحد ، ولولا شعوري بالاشمئزاز منهم لكنت اسحقهم سحقاً لأنهم أشبه بالقمل لا يدبون إلا حيث تبدو الحقارة وينتشر الجرب .

أجل لقد همست في آذان هؤلاء المعلمين قولي انني أنا زارا الكافر القائل : ارشدوني إلى مَنْ هو أشد كفراً مني لأتمتع بتعاليمه وأسرّ بها .

أنا هو زارا الكافر فأين أشباهي ؟ وما أشباهي إلا من يهبون من ذاتهم لذاتهم ارادة مطرحين الصبر كارهين الاستسلام .

أنا هو زارا الكافر ، أنا الطاهر في مرجلي كل ما يُدعى صدفة فلا أزال به حتى ينضج ليصلح لي غذاءً ، ولكم رأيت الصدف تتقدم إليّ كأنها السيد

المطاع فترغمها إرادتي على الركوع أمامي خاشعة مسترحمة طالبة إلي أن اجد لها مأوى عندي قائلة : ما يلجأ الصديق إلا الى صديق .

ولكن لمن اوجه الخطاب إذا كانت كلماتي لا تطرق اسماعاً تشبه أسماعي ؟ غير انني سأرسل صوتي في الفضاء لتهبّ به الرياح قائلاً :

أيها القوم الوضيع ، انك لتزيـــد حقارة من يوم إلى يوم . إنك سائر إلى الذوبان فالإضمحلال ، وما يوردك الفناء إلا صغيرات فضائلك وتساهلك وصبرك .

إنكم تدارون كثيراً ، أيها الناس ، وتتخلون عن الكثير ، وما الأرض التي تنمون عليها إلا من تراب المدارة والضعف ، وهــل يشتد جذع الدرجة فتتعالى إذا هي لم تنشب أصولها في الأرض القاسية ملتفة حول صلب الصخور ؟

إنكم تنسجون باهمالكم كفناً لمستقبل الانسانية ، فـأنتم العناكب العاملة فيما لا يجدي وهي تتغذى من دم الانسال المقبلة . فيا لكم من لصوص بما تأخذون ! أيها المباهون بحقيرات الفضائل ، انكم تسلبون وتهدمون في حين أن للسارقين أنفسهم بقيةً من الشرف تقف بهم عند حـــد السلب إذا لم يكن من موجب للهدم والتحطيم .

انكم تأخذون بمبادىء صبركم فتقولون ان ما تستولون عليه هو ممـا يعطى وأنا أقول لكم انه مما يؤخذ ويسلب وما أنتم إلا سالبوا أنفسكم لو تعلمون .

فعلى مَ لا تقلعون عن هذا التذبذب في ارادتكم ولماذا لا تختارون الذهاب الى صميم الكسل أو إلى صميم العمل ؟

ليتكم تفهمون ما أقوله لكم : افعلوا ما تريدون ولكن تعلموا أولاً أن تريدوا . وهل بينكم من يحب نفسه بالحب الاعظم والاحتقار الاعظم ؟

وهل يجدي القول وليس لكم الاذن التي اسمع بهـا أنا ؟ ان ساعتي لم تحن بعد ، وقد جئت بينكم بشيراً لذاتي فأنا الصبح وأنا الديك الصائح ولمـا يزل الظلام منتشراً على السبل .

ان ساعتكم تقترب باقتراب ساعتي ، فانكم تتصاغرون مع مرور الزمن فيزداد فقركم وتزدادون عقماً فما أنتم إلا أعشاب مسكينة على أرض أشد مسكنة من أعشابها .

لسوف لا يطول الزمان حتى تتعب هذه الاعشاب من نفسها فتحترق وهي عطشى إلى النار لا الى الماء .

انها لأسعد ساعة تلك الساعة التي تنقض الصاعقة فيها ، ويا لها من سر يستبق الظهيرة ، فاني سأرسل من هذا السر ومن تلك الصاعقة جداول من نار ، سأرسل انبياء يتكلمون بألسنة اللهيب منذرين بالظهيرة العظمى .

هكذا تكلم زارا ...

على جبل الزيتون

لقد نزل الشتاء ضيفاً ماكراً علي ، فمددت يديّ يلوحها الازرقاق لمصافحته ، ولكم أود أن أفلت من هذا الضيف بالرغم من محبتي له ولا سبيل لي للانعتاق منه إلا بالجري على قدميّ فتدب الحرارة فيهما وفي أفكاري ، فأنا اتجه هارباً من الصقيع إلى حيث ينقطع هبوب الريح فأصل إلى جبل الزيتون ، إلى مطرح شعاع الشمس ، وهنالك استقر ضاحكاً من ضيفي القاسي الرابض في مسكن يتلهى بالفرقعة وقتل الذباب ، وضيفي ينفر من طنين ذبابة واحدة أو ذبابتين ، فهو يطمح الى جعل كل مكان مقفراً حتى يرى اشعة القمر نفسها ترتاع من ظلمات السبيل .

انه لشديد الوطأة هذا الضيف ، ولكنني احترمه ولا أفزع منه الى اله النار كما يفعل المخنثون ، لأنه خير للانسان ان تصطك أسنانه برداً من أن يلجأ إلى الاصنام ، ذلك ما تقول به غرائزي فأنا عدو كل صنم ناري يضطرم في وجومه .

اذا ما أحببت احداً فان حبي له في الشتاء لأشد منه في الصيف ، وفي الشتاء أراني أقوى على الاستهزاء بأعدائي ، فأشعر بالشجاعة عندما التف بدثاري على فراشي لأن سعادتي المولية تأخذ بالترنم ضاحكة فتضحك معها كاذبات احلامي.

أي شيء يكرهني على الزحف ، وما زحفت يوماً سعياً إلى الاقدام الاقوياء؟

وإذا كنت لجأت أحياناً إلى الكذب فما كان كذبي إلا وليد محبتي. وذلك ما يجعلني مرتاحاً الى نفسي حتى وأنا على فراشي والسماء معتكرة بالغيوم .

انني لأدفأ على الفراش الوضيع البسيط بأكثر مما أدفأ على الفراش المزين الوثير ، فأنا حريص على فقري ومـا يخلص الفقر لي في أي فصل اخلاصه لي في الشتاء . افيق كل صباح للمشاكسة فأبـدأ بالاستحمام بالماء البارد لأهزأ بالشتاء فيزمجر بوجهي هذا الصديق القاسي . وعندئذ يلذ لي أن اداعب ظلامه بأنوار شمعة ضئيلة لأهيب به إلى ارسال شرر النور من رماد آفاقه .

ان روح الأذية لا تنتبه بي في أية ساعة انتباهها عنـد الفجر عندما تحتك الآنية بالانية أمام سبيل الماء وتصهل الخيـــل وهي تضرب بحوافرها أرض الشوارع الدكناء .

عندئذ أقف شاخصاً إلى السماء متوقعاً انبثاق أنوارها فتبدو كالشيخ نماذج السواد والبياض في لحيته ونصعت بالشيب قمة رأسه .

فيا لسماء الشتاء من آفاق صامتة تتغلب أحياناً على الشمس فتدعها ملفعة بصمتها ، فهل اقتبست من هذه السماء الانقباض على النور في السكون الطويل أم هي تعلمت ذلك مني ؟ ولعل كلاً منا أوجد هذا الوجوم الصامت لنفسه .

ان للاشياء الحسنة مصادرها المتعددة لأنها تطفر مرحة في الوجود فلا يمكن أن تلوح وشيكاً وتتوارى .

وما الصمت الطويل إلا في عداد هذه الاشياء الحسنة المرحة ، لذلك صفا أديم وجهي كأديم السماء بعد امطارها واستقرت اللحظات الهادئة في عيني .

فأنا أحجب شمسي كما تحجب سماء الشتاء شمسها فأخفي ارادتي وقد تعلمت هذا المكر من الشتاء فبلغت من فني مرتبة منعت بهـــا صمتي أن يفضح بالصمت نفسه فأصبحت ألهو بمخادعة المتعظمين وإشغال انتباهم الصارم بالتكلم وباللعب وبالنرد ، وهكذا لن يتمكن أحـــد من سبر أعماق حكمتي وأقصى ارادتي . وذلك ما رميت اليه عندما أوجدت السكون الطويل .

ولكم رأيت من رجل ماكر يضع نقاباً على وجهه ويعكر المياه في أعماقه كيلا يتمكن أحد من نفوذ أقصى سريرته فالتفت حوله كبار الماكرين رواد المصاعب فاصطادوا جميع ما أخفى من أسماك في قعر مياهه .

ان من لا يفضحهم الصمت إنما هم من نقت نفوسهم وشفّت قلوبهم غير ان أقصى سرائرهم لا تنكشف للنظر وهي السحيقة الاغوار تحت أطبـــاق المياه الشفافة الصافية .

إنك رمز لنفسي يا سماء بأديمك الأبيض وعيونك البرّاقة الصافية ووراءك مثل ما تضمر هذه النفس من ثورة واضطراب ، ولقد حق عليّ ان احتجب كمن ابتلع الذهب كيلا أعرض روحي لمبـاضع المتجسسين ، ولقد وجب عليّ أن انتعل القباقيب المرتفعة لأخفي طول قامتي عن أعين من يدورون بي من اللؤماء الحاسدين . انها لن تحتمل النظر إلى سعادتي هذه النفوس الجافة العتيقة المهترئة المفسخة .

من أجل هذا لا أظهر لهم غير شقــائي والثلوج المكللة لذرواتي مخفياً عنهم ان جبلي تمنطقه الشمس بجميع أنوارها ، وإذا هم سمعوا من مرتعي شيئاً فـــلا يسمعون إلا ولولة الزوابع أدفع بها اليهم فلا يخطر لهم ببـال انني أمر أيضاً على الأمواج الحارة فأحمل منها لفحات ريح الجنوب .

ان هؤلاء الناس يشفقون علي لما يطرأ لي من الحادثات ومن تصاريف الزمان في حين انني أهتف قائلاً دعوا الصدفة تأتي إلي فانها طاهرة كالاطفال .

أكان لهؤلاء النـــاس أن يطيقوا تمتعي بالسعادة لولا انني لم احط سعادتي بحادثات الشتاء ومصائبه ولم أتدثر بالفراء وعباءة الشتاء ؟

انني ان اشفقت لاشفاق هؤلاء المتألمين في كيدهم وان ارتجفت من البرد أمامهم ورضيت بأن تدور رحمتهم بي فما ذلك إلا لحكمة مرحـــة في نفسي لا تخفي ما يدور بها من عاصفات الشتاء ولا تستر ما ألمّ بها من قروح الصقيع .

ان بعض النـــاس يطلب العزلة بالهرب من المريض والبعض الآخر يطلبها بالوقوف أمامه .

لأدعهم يصغون إلى أنيني وشكايتي لصقيع الشتـاء ، انني بمثل هذا الأنين أفزع من غرفهم الدافئة فليشفقوا عليّ وليقـولوا انني سأقضي بالصقيع في برد معرفتي . أما أنا فأركض برجـــليّ الدافئتين على جبل الزيتون وأطلق صوتي بالانشاد في مطارح شعاع الشمس هازئاً بكل إشفاق [1] .

هكذا تكلم زارا ...

على الطريق

وكان زارا وهـــو يقصد كهفه وجباله يمر بشعوب عديدة ومدن كثيرة متمهلاً في رحلاته حتى وصل فجأة إلى مدينة عظيمة وإذ دخلها انتصب بوجهه مجنون فاتحاً ذراعيه ليصده عن التقدم والزبد يرغي على شدقيه ، وما كان هذا المعترض إلا من لقبه أهل المدينة بسعدان زارا لأنه كان يقـلد حركاته ولهجته ويستعير شيئاً من كنوز حكمته .

---

(١) قد تكون هذه المبالغات في الوصف وهذه المغالاة في الاستعارات المبهمة من محاسن البيان في اللغة الالمانية . غير انها ليست على ما نرى من روح الأدب العام على بلاغة يستسيغها كل بيان ، عدا ان اللغة العربية خير ما تختبر به عبقرية الكاتبين بكل لسان .

وخاطب المجنون زارا قائلاً :

ان هنا المدينة العظمى وما لك أن تظفر منها بشيء بــل عليك أن تفقد فيها كثيراً .

ما الذي يضطرك الى الانغماس في هذه الأحوال ، فاشفق على قدميك وقف عند بابها تافلا عليه وعُد أدراجك .

هنا جحيم كل فكرة فريدة ، هنــا تصهر الافكار السامية حتى تصبح مزيجاً مائعاً .

هنا تتهرأ كل عاطفة شريفة ولا يسمح إلا للعواطف الجافة بأن تعلن نفسها بخشيش اصطدامها .

أفما بلغت أنفك رائحة المجازر حيث تنحر الافكار ومطاعم السوقة حيث تباع بأبخس الأثمان ؟ أفما ترى أبخرة العقول المضحاة تتصاعد منتشرة كالدخان فوق هذه المدينة ؟

أفما تلوح لك الأرواح معلقة معروضة كأنهــا خرق قذرة بالية فاذا هي تنقلب صحفاً تنشر بين الناس ؟

أفما تسمع البيان الطلي يستحيل هنا إلى تلاعب الفاظ وسخائف تغص بها جداول الصحف فإذا هي مصارف أقذار ؟

ان بعضهم يتحــدى البعض الآخر ولا يعلمون على مَ يختلفون ، يأخذ بهم الغيظ كل مأخذ وقــد غاب عنهم سببه ، فلا يسمعونك إلا طقطقة فلوسهم ورنين دنانيرهم .

لقد استولى عليهم البرد فلا يدفأون إلا بكرع الخمور، وإذا ما دبت الحرارة فيهم لجأوا إلى مهبّ الأفكار الباردة، فهم ابداً مسوقون بالرأي العام مأخوذون بدرجة غليانه .

هنا مقام جميع الرذائل والشهوات ، وهنا أيضاً فضائل عديدة لها مهارتها ولها مشاغلها ، ولتلك الفضائل الجمـــة أنامل للكتـابة وأرداف من رصاص للمتحلين بها وسادات من الجلد علقت عليها الانواط ، ولهم أيضاً بنات هزلت أردافهن فاصطنعن لهن من القش أردافاً .

وانك لتجد هنا كثيراً من الاشفاق والاحتشام وكثيراً من الاتضاع أمـام رب الجيوش ، لأن من مقامه الأعلى تتهاوى الكواكب ومعهـا النفثات ، وكل صدر عاطل عن الكواكب يرسل نحو هذا المقام زفرات شوقه .

ان للقمر جوّه وفي هذا الجو تدور أتباعه ، والشعب المتسول لا يفتر مـع الفضائل المتسولة يرفع الصلاة إلى كل ما يلتمع في مدار القمر ، وما الصلاة إلا كلمات : تخدَمَ ، خدما ، خدموا ، نحن نخدم ، يترنم بها أهل الفضائل وهم يتجهون إلى الحـــاكم الأعلى متوقعين سقوط الانوار المتوهجة على صدورهم الضيقة ، غير ان القمر نفسه يدور حول الأرض ومـا عليها من نتاج التراب ، والحاكم أيضاً يدور حول كل مـا هو أرضي وما من شيء أعرق في الأرض من ذهب بائعي السلع . ان رب الجيوش ليس رباً للسبائك ، فاذا ما الحاكم دبّر ، جاء بائع السلع فقرر .

زارا ، استحلفك بكل ما فيك من نور وقوة وصلاح أن تنقل على هـذه المدينة ، مدينة بائعي السلع ، وتكر راجعـاً إلى الوراء . ان الذي يجري في عروق سكانها إنما هو دم مفسود ، فاتقل على المدينة الكبرى لأنهـا المزبلة التي تتراكم فيها الاقذار .

اتفل على مدينة النفوس الضعيفة والصدور الضيقة ، مدينة العيون الحاسدة والأنامـل اللزجة ، مدينة الوقحين والفجـار والمعربدين والطامعين اليائسين ، المدينة التي يتكدس فيها من تأكلهم سوس الفساد من أهل الشهوات المضروبين بالقروح المتآمرين .

ابصق على هذه المدينة وعد أدراجك .

ومدّ زارا يده مطبقاً فم المجنون المزبد في حدته قـائلا له - أما آن لك أن تصمت ؟ لقد تحملت طويلا حركاتك وأقوالك . مـا الذي دعا بك إلى الاقامة على ضفاف هذا المستنقع حتى أصبحت أنت أيضاً ضفدعاً وعقرباً ؟

أفما تسيل في عروقك أنت أيضاً دمـاء المستنقعات الفاسدة ، فها أنت تحسن الرقيق وتجيد اللعن .

لماذا لم تطفر إلى الغاب ، لماذا لم تذهب لحرث الارض ؟ افليس في كل جهة من الغاب جزيرة خضراء ؟

اني احتقر احتقارك وقد كان عليك أن تبذل نصحك لنفسك قبل أن تجود به عليّ. فان احتقاري وهو الطائر النذير لن يتعالى من أقذار المستنقعات بل يهب من مواطن الحب والاشوك .

لقد لقبوك بسمدان زار ، ايها المجنون المزبد ، أما أنا فأدعوك خنزيري ، الا تنقطع عن هذا الحوار وإلا دفعت بي الى استنكار ما مدحت به سكرات الجنون .

فما الذي يهيب بك إلى رفع هذه الاصوات المنكرة ؟ ان الناس لم يوجهوا اليك ما كنت تتوقع من ثنـاء : لذلك جلست إلى اكوام الاقذار مزمجراً صاخباً ، مفتشاً فيها عما تسلّح به انتقامك . أتظن أن امرك قد خفي عليّ ؟ وهل هذا الازباد إلا من ارغاء الضغينة في قلبك ؟

اصمت فإن كلمـاتك تلحق الضرر بي حتى ولو كمنت الحقيقة فيها ولو انطوت ألف حقيقة في ما أقول ، لأنك تسيء إليّ بأقوالي نفسها .

هكذا تكلم زارا ، وهـو يتلفت إلى المدينة متنهداً ، ثم صرخ بعد صمت طويل :

ـ لقد كرهت هذه المدينة العظمى أنا أيضاً وليس هذا المجنون مَنْ يثير كراهتي فحسب ، فهي مثله وهو مثلها وليس فيها مـا يقبل اصلاحاً أو زيادة فساد .

ويلٌ لهذه المدينة العظمى ، وليت تجتاحها أعاصير النار فتذريها رماداً ، إذ لا بد من انطلاق مثل هـــذه الاعاصير منذرة بالظهيرة العظمى ، ولكن انطلاقها مرهون بزمانها ومقدراتها .

أما أنت أيها المجنون فانني استودعك بهذا التعليم :ـ إذا امتنع على الانسان أن يبذل حبه فعليه أن يذهب في سبيله !

هكذا تكلم زارا ، وسار في سبيله متجاوزاً المجنون والمدينة العظمى .

الآبقـــون

١

واأسفاه ! كل ما كان مخضلاً وزاهياً بعديد ألوانه على هذه المروج أصبح الآن باهتاً وقـــد عراه الذبول . ولكم جنيت هنا فيما مضى من عسل الامال فحملته الى قفيري .

لقد سطا الهرم على جميع القلوب الفتية ، ومـا آن للهرم أن يتحكم بهؤلاء الفتيان فما هم إلا متعبون يستسلمون للكسل وهم يبررون حالهم بقولهم ـ لقد عدنا إلى ممارسة التقوى .

ولكم نظرت اليهم عندمـا كانوا يندفعون إلى السير باقدامهم الجريئة ، أما الآن فقد تراخت معرفتهم مع أقدامهم فأمسوا وهم يهزأون بمـا كانوا عليه من الشجاعة في صبيحتهم .

لقد كان أكثرهم يختالون كالراقصين معلنين بضحكهم انهم من اتباع حكمتي فإذا هم يستغرقون فجأة بالتفكير ، وهـا هم الآن أمامي وقد انحنت ظهورهم يزحفون على ركابهم نحو الصليب .

لقد كانوا فيما مضى يحومون حـول النور والحرية كالفراشات والشعراء ، ولكنهم ما شعروا بشيء يسير من وقر الايام ومن صقيعها حتى هرعوا إلى الموقد يصطلون كأصحاب القلانس وادعياء الحكمة .

أفقد هؤلاء الشجعان إقدامهم لأنني تواريت عنهم في عزلتي فباتوا يتنصتون لدويّ أبواقي وصيحات انذاري ؟

وا أسفاه! ما أقل القلوب التي تصمد بوجه الزمان وليس في سواها ما يعزز الروح في حين يسطو الخور على سائر القلوب ، ومـا أكثر الجبناء فهم السوقة الدخلاء على الحياة .

لا بد لمن كان على مثالي أن يصادف في طريقه ما صادفت ولا مناص له من أن يكون رفاقه الاولون أشلاء اموات ومتمرني العاب .

وإذا ما مرّ بهـؤلاء أتته الفئة الثانية من رهط المؤمنين يسودهم كثير من الحب وكثير من الجنون وإجـلال الطفولة وخشوعها . فليحترس من كان على مثالي وأن يولي هذه الفئة عواطفه لأن العارف بضعف الانسانية وتقلبها لا يثق بدوام زهو المروج أيام الربيـع .

ولو كان هؤلاء المؤمنون على غير مـا هم عليه من غريزة لتبدلت ارادتهم ، وليس للنقص أن يجاري الكمال ، فعلى مَ نشكو إذا صارت ناضرات الأوراق إلى الذبول ؟

دع الاوراق تنتثر ، دعهـا تذهب مع الريح ، اي زارا ، وكفّ عن الشكوى ، فخير لك أن تساعد بزفيرك الرياح الهابة على أغصانها .

انفخ على هذه الأوراق ، يا زارا ، ليتبدد من حولك كل شيء عراه الذبول.

٢

يقول الآبقون انهم إلى التـُقـَى راجعون وأكثرهم جبان لا يجسر حتى على التعلل بتقواه في خروجه ، ولكنني أنظر إلى هؤلاء الخائفين وأعلن لهم بوجههم أنهم قد عادوا إلى الركوع والصلاة . فأقول لكل منهم : إذا لم تكن اقـامة الصلاة عاراً على الناس فهي عار على أمثالك وأمثالي ممن تنبه شعورهم في تفكيرهم. ان صلاتك تُعدّ منكراً عليك لأنك تعلم أن الشيطان الكامن فيك الذي يحلو له كتف ذراعيه تائقاً إلى حياة الرخاء يوسوس في روعك قـائلاً لك أن الله موجود . فأنت آبق يهرب من النور يشغل تفكيره ، فاذهب الآن في ضلالك سادراً ، وتوغل كل يوم في لبدات الظلام .

والحق انك أحسنت اختيار الحين للانطلاق وقد بسطت طيور الليـل اجنحتها فهذه ساعة أبنـاء الظلام المضربين عن الاعمال . لقد حانت ساعة الاصطياد وما هذا الصيد الذي تقدم عليه مهاجمةً وعراكاً بـل هو انزواء في كمين وتراخ وصمت لا يسمع فيه غير همسات الصلاة ، ذلك هـو صيد ادعياء الحكمة ينصبون فيه شراكاً للقلوب فكلما هتكت ستراً رأيت وطواطاً صغيراً ينطلق من ورائه ولعله كان مختفياً مع وطواط صغير آخر لأنني في كل جهة أرى جماعات تستتر وما ينبعث عنها من رائحة التقى يستجلب اليها رهطاً جديداً من المثقفين . فهم يجتمعون لاحياء الليالي قائلين فلنعد إلى حالة الطفولة ولننـاج الاله الصالح ، يقولون هذا بعد أن تكون معدهم قد امتلأت بالحـلوى من صنع أهل التقى . وهم يجتمعون أحياناً في أوقات السمر ليشهدوا حركات عنكب محتال يقف وراء الكمين ملقياً على رفاقه العناكب مواعظ الحكمة قائلاً لهم : ان خير ما ترتاح العناكب اليه انما هو حبك نسيجها في ظلال الصليب .

اتراهم يقضون أياماً طويلة يلقون الشباك في المستنقعات معتقدين انهم يسبرون الاغوار ولا يعلمون أن من يمضي الوقت بالصيد حيث لا أسماك لا يصح أن يدعو عمله حتى محاولة سطحية .

وتراهم أحياناً يمزجون تقـواهم بالسرور فيتلقون دروساً للعزف على القيثارة عند موسيقي يتلمس الطرق الموصلة إلى قلوب الصبايا وقد اتعبه ثناء العجائز .

او يذهبون إلى حكيم لم يستكمل جنونه ليتمرنوا على الرهبة والخوف فيقف معهم في غرفة مظلمة منتظرين ظهور الارواح وقد طارت أرواحهم شعاعاً .

أو هم يتنصتون إلى دجال هرم يتجول منشداً بنبرات لقنتها الريح الانين فهو يقلد الريح داعياً الى الحزن بصوته الحزين .

ولقد اتخذ بعضهم مهنة الحراسة في الليل فتعلموا النفخ في الابواق ليذهبوا في الظلمة ويبعثوا كل قديم طواه الزمان .

مررت أمس قرب جدران الحديقة وقد أخلقها الدهر فسمعت من حارسين خمس كلمات تدور على القديم البالي .

قال أحدهما – ان هذا الآله لا يعتني برعاية أبنائه ، فالآباء من البشر أشد عناية منه بأبنائهم .

فأجاب الآخر – لقد أدركه الهرم فهو لا يهتم لهم .

وهل لهذا الأب من أولاد ؟ من سيثبت هذا إذا هو لم يثبته بنفسه؟ ولطالما تقت أن أراه آتياً ببرهانه عن جد .

أهو يأتي بالبرهان ، وفي أي زمان أقام شيئاً من الأدلة ؟ انه ليستصعب الاثبات ولكنه يتمسك بأن يؤمن الناس به .

أجل ! ان الايمان ينقذ هـــذا الأب ، وإذا قلت الايمان فانما يعني ايمانه هو بنفسه وتلك شيمة من بلغوا من العمر عتياً . أفما نحن شيوخ وكلنا أشباه ؟

بهذا كان يتحدث حارسا الليل ، وحراس الليل أعداء للنور . ونفخ كل منهما في بوقه بالنغم الحزين .

هذا ما شهدت أمس في الليل وأنا سائر قرب الجدار القديم ، فكنت أحس

بقلبي يتفجر ضحكاً ويهز أحشائي هزاً ، والحق انني سأموت مختنقا بضحكي من النظر إلى الحمير الشاملين ومن سماعي أمثال حراس الليل يرتابون بالله .

أفما انقضى منذ زمان طويل عهد الوقوف عند مثل هذه الشكوك؟ومن يحق له يا ترى أن يتقدم إلى هذه الاشياء المظلمة الثاوية ليبعثها من لحودها ؟

لقد انقضى عهد قدماء الآلهة فطوتهم الاحقاب وقد كان لهم الفنـاء بالمرح الالهي الذي يليق بهم، لأنهم لم يمروا بالغسق ليترامو إلى ظلمة الموت وقد كذب من يدعي عكس ما أقول ، فقدماء الآلهـة انتحروا انتحاراً وهم بضحكهم يختنقون ، انتحروا عندما تلفظ أحدهم بآية الجحود الكبرى قـائلا : أنا هو الرب إلهك لا يكن لك آلهة أخرى أمامي ، فكأن هذا الاله قد أخذ بغضبه وغيرته في شيخوخته فذهل هذا الذهول حتى أضحك جميع الآلهة فتمايلوا على عروشهم هاتفين — أفليس في هذا النهي اعتراف بان هنالك ألوهية لعدة أرباب، وليس هنالك رب واحد ؟

من له أذنان صاغيتان فليسمع [1] .

هكذا تكلم زارا في مدينة — البقرة العديدة الالوان — التي يحبها وكأن لم

---

(١) ورد في الاصحاح العشرين من سفر الخروج : « انا الرب الهك الذي اخرجك من أرض مصر من بيت العبودية ، لا يكن لك آلهة اخري امامي ، لا تصنع لك تمثالاً منحوتاً ولا صورة مـا مما في السماء من فوق وما في الارض من تحت ومـا في الماء من تحت الارض ، لا تسجد لهن ولا تعبدهن » .

فيا لامانة نيتشه في وضعه أساس برهانه !

ان هذا الفيلسوف لم يتـورع من بتر الكلام لتحويـل معناه إلى مـا يريد ، فما أشبه بمـا ينادي المؤمنين الى الامتناع عن الصلاة بآية « لا تقربوا الصلاة — وانتم سكارى — واقفاً عن النهي اطلاقاً .

أفليس من الغريب أن يعمد الى اثبات تعدد الآلهة من نهي الناس عن الضلال وعن اقامة المعلول مقام العلة واتخاذ الفاني معبوداً أمام مبدأ الآزال والآباد ؟

يكن أمامه سوى مسافة يومين سيراً ليصل إلى مغارته ويلتقي نسره وأفعوانه، فامتلأت روحه مسرة وحبوراً .

العـــودة

أنتِ وطني ، أيتها العزلة ، لقد طال اغترابي في بلاد المتوحشين فها أنذا أعود اليك أيها الوطن وعيناي تذرفان الدموع .

إرفعي شاهدك وهدديني ، أيتها العزلة ، تهديد الأم وانظري إليّ مبتسمة بابتسامها ، وسليني عن حال من هرب منك الى بعيد كأنه العاصفة الجامحة ، من أفلت منك وهو يصيح : لقد طال انفرادي فنسيت الصمت ، سليني هل تعلمت الصمت الآن وقولي لي :

— أي زارا لم تخف عني خافية ؟ فقد كنت تشعر انك وحيد بين الجميع فيسودك من الوحشة ما لم تعرفه وأنت في احضاني .

ـ ان الفرق بين الوحدة والوحشة لبعيد ، هـذه هي الحكمة التي تعلمتها الآن فأدركت انك ستبقى أبـداً الغريب المستوحش بين النـاس ، حتى ولو بذلوا حبهم لك لأنهم يطمعون منك بداراتهم قبل كل شيء .

انك هنا تأوي الى مسكنك فيمكنك أن تقول مـا تريد ، ففي العزلة لا يخجل الانسان من خطرات سريرته المتصلبة .

كل شيء هنا ينقاد إلى بيانك متحبباً طائعاً لأن الأشياء كلها تقصدك لتعليتك وتعلو أنت رموزها كمطايا تذهب بك مطلوقة العنان نحو الحقائق جميعها .

ههنا لك أن توجه خطابك الى كل الأشياء لأن كل كلمة اخلاص تقال لها تتلقاها حمداً لها وثناء عليها .

ان العزلة شيء والوحشة شيء آخر ، وهـلا ذكرت يا زارا صرخة طيرك

فوق رأسك عندما كنت مضعضعاً أمام جثة ميت في الغاب ولا تدري إلى أين المصير ، فتتمنى أن يأتي نسرك وافعوانك لهدايتك بعد أن لاقيت بين الناس اخطاراً لم تشهد بين الحيوان مثلها . تلك كانت الوحشة بعينها !

أفما تذكر يا زارا زمنا توسطت فيه جزيرتك كأنك ينبوع خمر يتدفق بين الدنان الفارغة فيملأها موزعاً خمره على العطاش بلا حساب ، حتى امسيت وحدك الظامىء بين المرتوين ، فرفعت صوتك بالشكوى تحت جنح الليل متسائلاً عما إذا لم يكن في الأخذ سعادة أوفر من سعادة العطاء وإذا لم يكن من السعادة في السرقة ما ليس في الأخذ . تلك كانت الوحشة بعينها .

أفما تذكر الزمن الذي طردتك فيه من نفسك أعمق الساعات صمتاً وهي تقول لك همساً : تكلم واهدم ، فدفعت بك إلى كره صبرك وسكوتك فقضت على ما فيك من شجاعة متواضعة . تلك كانت الوحشة بعينها .

أيتها العزلة لكم في صوتك من نبرات السعادة في عطفه وحنانه ! ليس بيني وبينك من شكوى ولا عتاب ، فكلانا نمر صريحين من الابواب المشرعة ، لأن كل شيء لديك مضيء والساعات تمر فيك عجلى خفيفة ، وما تتثاقل الساعات في النور تثاقلها في الظلام .

انني أشعر ههنا بأن لكل شيء روحه ومعناه ، فكل كائن يريد أن يعبر عن سريرته وكل ما سيكون يطمح الى تعلم البيان مني أما هنالك فكل قول عبث وهراء وخير حكمة للناس هي النسيان والفناء ، وهذا ما تعلمته منهم . واذا ما أراد أحدهم ان يفهم كل شيء وجب عليه أن يستولي على كل شيء ، وما تمتد إلى الأخذ يداي الطاهرتان . لقد تولاني الاشمئزاز من رائحة أنفاسهم فوا أسفاه على زمن طويل قضيته حيث يضجون ويتنفسون

يا للعزلة السعيدة أتمتع بها ، ويا للعرف الزكي يتضوّع حولي ! انني انشق بملء رئتيّ هذا الهواء النقي في هذا السكون المتنصت . أما هنالك فكل شيء

يتكلم ولا سميع ، فإذا ما أذاع أحدٌ فضائله بقرع الاجراس خنق الدويّ في الساحات رنين الفلوس الكبيرة تقبلها أيدي البائعين . وهنـالك يتكلم الكل وليس من أحد يفهم مـا يقال . فكل شيء يقع في الميـاه الجارية ولا يتسرب شيء إلى أعماق منابعها. هنالك كل شيء يتكلم ولا شيء يبلغ نجاحاً أو تكاملاً. كل يصيح وليس من يرضى باحتضان البيوض في الاعشاش ، كل يتكلم وكل كلام متراحٍ مديد ، وما كان يقسو من البيان على أفـــواه أبناء الأمس أصبح ليناً تلوكه الاشداق في هذا الزمان .

هنالك كل يتكلم ولم يبقَ من مستور لم يهتك ، فما كان يعد بالأمس سراً كميناً في أعماق النفوس تتناوله اليوم مقارع الطبول وحناجر الصائحين ، فيا للطبيعة البشرية ، ما أنت إلا ضجة في المسالك المظلمة ، لقد تجاوزتك فتركتك ورائي خطراً أنقذت منه . وقد كانت المداراة والرحمة أشد ما تعرضت له من اخطار ، وكل كائن في البشر يطلب أن يعامل بالمداراة والرحمة . وما عشت بين الناس إلا وأنا احفظ حقائقي في قلبي ويـداي وأحشائي ترتعش ارتعاش الجنون لأكاذيب الرحمة والاشفاق .

هكذا عشت بين الناس ، جلست بينهم متنكراً أكاد اجحد ذاتي لاحتملهم مقنعاً نفسي بقولي انني مجنون لا أدرك حقيقتهم .

إذا أنت عاشرت الناس فإنك لتنسى ما تعرفه عنهم ، لأن ما ينطح بصرك من المشاهد الخارجية يصده عن سبر أبعادهم وأعماقهم .

لقد جهلوا حقيقتي فدفعني جنوني إلى مداراتهم بأكثر من مداراة نفسي لأنني تعودت أن أقسو عليها فأصبحت هذه المراعاة انتقاماً منها لها .

جلست بين الناس تلذعني حشراتهم السامة وتنال مني شرورهم نوال قطرات الماء المتوالية الانسكاب على الحجر فكنت أقـــول لنفسي « ان الحقارة تحمل براءتها في ذاتها » .

وما رأيت بين النـــاس حشرات أشد فتكاً بسمومها من الصالحين لأنهم يفرزون حُمـاتهم بكل صلاح ويكذبون بكل صلاح فكيف أتوقع منهم عدلاً وانصافاً .

ان الرحمة تعلم الكذب لمن يعيش بين أهل الصلاح وهي تضغط بجوها الثقيل على الأرواح الحرة إذ يمنع عنها أن تتفهم جهل الصالحين .

إن ما تعلمته هنالك هو أن أستر نفسي وأخفي ثروتي لأنني رأيت كل غني بين الناس فقيراً بعقله . وقد أضلني اشفاقي فقادني إلى النظر في الخفايا وتقدير ما زاد وما نقص في عقل هـذا وعقل ذاك . دعوت الحكماء المتعصبين حكماء ولم أزد فتعلمت أن اقتضب كما تعلمت استبدال الكلمات فدعوت حفاري القبور منقبين وعلماء .

ولطالما مني الحفارون بالامراض ، ففي المثاوي ما ينبعث كريهاً قاتلاً وخير ألا نثير من المستنقعات كوامنها ، وما الحياة إلا على القمم ، وها أنذا انشق الهواء الطلق على أعالي الجبل حيث لا اشتم روائح المجتمع الانساني .

ان الهواء الحي يدغدغ معاطسي فتتسع لاستنشاق القوة والحياة .

الثلاثة الشرور

١

ورأيت في آخر احلامي هـذا الصباح إنني واقف على جرف ينهار إلى مـا وراء هذا العالم وقد نصبت بيدي ميزاناً طرحت الدنيا باحدى كفتيه .

أواه ! ليت الفجر لم يباغتني بعنفه فانه لغيور عليّ من أحـــلام صباحي وعنف أشباحها .

لقد أراني حلمي أن لمن ملكَ الزمان أن يقيس الدنيا ولمن احسن الوزن أن

يزنها ولمن له جناحان جباران أن يجتاز مداهـا ، وكل بصيرة جديدة تقتحم المعضلات بوسعها أن تدرك ما تضمر هذه الدنيا .

بأي صبر تذرع حلمي اليوم ليزن الدنيـا وهو المركب نصفه شراع ونصفه عاصفة ، وهو السابح صامتاً بجناح الفراش والمنقض متسارعاً بمخالب الصقور ؟

هل أسرّت حكمة نهاري نجواها إلى هذا الحـلم وهي الحكمة الهازئة بكل « العوالم التي لا حد لها » وأنا القائل : حيث توجد القوة فهنالك يتسلط الكمّ فالعدد هو الاقوى .

لقد احاط حلمي بكل وثوق بهذا العالم المتناهي فما ذهب مع سائق الفضول ولا التجسس وما ارتعد ولا توسل .

رأيت الدنيا على متناول يدي كتفاحة ناضجة ذهبية ناضرة المنظر ناعمة الملمس.

رأيت الدنيا على الجرف العالي المشرف على البحر كأنهـــا شجرة تومىء إلي وقد انبسطت افنانها والتوى جذعها كمتكأ للمسافر وقد انهكه التعب .

رأيت العالم يتقدم للاقاتي كأنه يدان تحملان طبقاً نثر عليه كل ما تشتهي الاعين المتعففة الخاشعة .

ان العالم الذي طالما كان بغيضاً مذموماً تجلى لي اليوم طيباً في انسانيته فهو لا يصد الناس بانكماشه على اسراره ولا يخدر حكمتهم بالاغراق في ابهامه .

أنا مدين بالشكر لحلم صباحي لأنه وزن العالم في الساعة الاولى فبدا لي العالم طيباً في انسانيته وهكذا جاء الحلم معزياً لقلبي ، وها أنذا اقتدي به وقد طلع النهار فأضع في الميزان الثلاثة الشرور العظمى .

ان الذي علم النـــاس أن يباركوا علمهم أيضاً أن يلعنوا ، فما هي الاشياء الثلاثة المستحقة اللعنة في الأرض ؟ انها الثلاثة التي اريد وزنها : الشهوة والتحكم والانانية وهي التي استحقت أشد لعنات الناس حتى اليوم .

هذا هو الجرف الذي وقفت عليه في حلمي وهو يشرف على البحر المتدحرج بقطعاته البيضاء نحوي ، وما البحر إلا ذلك الكلب الهرم الامين وذلك المسخ الرائع يشمخ بمئات الرؤوس .

هنا أريد أن انصب ميزاني فوق البحر الهائج وأختار شاهداً عليّ هذه الشجرة المنفردة الوارفة الظلال المالئة الفضاء بعبيرها الشديد .

على أي جسر يتجه الحاضر إلى المستقبل وما هي القوة التي تكره المرتفع على الانخفاض الى الادنى وتدفع بالأرفع إلى مرتبة أعلى ؟

تساوت كفتا ميزاني فقد طرحت في احداهما ثلاث مسائل ثقيلة فاذا في الكفة الأخرى ثلاث اجوبة تضاهيها ثقلاً .

٢

الشهوة — هي للمتقشفين المتقمصين الصوف الخشن والمحقرين للجسد الحائر والمعذب في وقت واحد ، وهي للمستغرقين في بحران العالم الثاني لعنة هذا العالم الاول ، لأنها تهاجم أهل الضلال فتقصيهم وتطردهم طرداً .

الشهوة للئيم نارٌ يحترق فيها اللؤماء ، نار بطيئة الاحراق يتصاعد منها أشد الروائح كراهة .

الشهوة للقلوب الحرة عاطفة بريئة حرة ، فهي سعادة الجنة الارضية وعرفان المستقبل جميل الحاضر .

الشهوة سمٌ حلو المذاق لكل من عراه الذبول غير انها شراب القوة وخمرة الخمر للأسياد يكرعونها بثمل الخاشعين .

الشهوة أعظم لذة ترمز إلى السعادة والأمل الأسمى لأن في الحياة أشياء كثيرة حق لها أن يتمتع بالاقتران بل بأكثر منه ، فهنالك أشياء بعدت شقة

الانفصال بينها بأكثر من انفراجها بين الرجل والمرأة ، ومن ترى تمكن يوما من أن يدرك حقيقة تباعد أحدهما عن الآخر ومدى الشقة بينهما ؟

ان الشهوة ... سأضع حصوناً بين أفكاري وامتنع عن الكلام كيلا يجتاحني الخنازير والمتهوسون .

أما الطموح إلى التحكم فسوط يلهب أشد القلوب قسوة وعذاب استشهاد يعد للطغاة لهباً قائماً من محارق الاحياء .

ان الطموح إلى التحكم لجسام قاسٍ تراض به أشد الشعوب غروراً ، فهو المداعب للفضائل الحائرة الممتطية صهوات الخيلاء .

ان الطموح إلى التحكم زلزال هدام لكل متداع قديم ، فهو الثائر المحطم للقبور المكلسة يزمجر وينزل العقاب، وهو نبرة الاستفهام تتعالى تجاه كل جواب مبتسر .

ان للطموح إلى التحكم نظرات تحني هام الرجال فتجعلهم يزحفون زحفاً وتستعبدهم وتهوي بهم إلى دركة أحط من دركة الخنزير والأفعى إلى أن يأتيهم الاحتقار بالسكون .

ما الطموح إلى الحكم إلا المعلم المخوف يلقن الازدراء الأعظم صارخاً بوجه المدن والممالك : افسحي لي المجال ، ولا يزال يهتف حتى تنادي قائلة : انني افسح لك مجالاً :

ان الطموح إلى الحكم يتعالى أيضاً نحو الانقياء والمنعزلين ليستهويهم فيذهب إلى ذرى الاعتزاز بالنفس كأنه غرام مشتعل يرسم في الخيال المسرات الحمراء الساحرة .

ومن له أن يدعو هذه الشهوة للتحكم طموحاً وما هي إلا اندفاع من الأعالي إلى الاعماق طلبا للقوة ، وما أرى في مثل هذا الانحدار شيئاً من حرارة الحمى ولا من أعراض الادواء .

ليس للذرى المنفردة أن تبقى أبداً منقطعة إلى نفسها ، فلتنحدر الانجـاد إلى الاغوار ولتهب الرياح العالية في مناسف الاعماق .

ان مثل هذا الطموح لأسمى من أن يصفه بيـان فهو « الفضيلة الواهبة » كما دعاه زارا من قديم الزمان ، فكان بوصفه هذا يوجـه الثناء لأول مرة إلى الانانية وما الانانية إلا توكيـد للذات يتفجر من الروح المقتدرة ، من روح جبارة اتحدت بجسم متكامل في جمـاله وانتصاره فأصبح كل ما حولها يستمد القوة منها ويعكس كالمرآة خيالها .

وما الجسم المرن الذي ينطوي على قوة الاقتنـاع إلا كالراقص الذي يرمز بحركاته عن مسرّة نفسه ، وهل المرح الأناني في مثل هذه الارواح الجسوم إلا الفضيلة بعينها ؟

ومهما يقل هذا المرح الاناني عن الخير والشر فانه يحوط نفسه بما يقول بغابة مقدسة لوقايتها، فهو يتمتم باسماء السعادة كتعويذة تردعنه كل مايستحق الاحتقار .

انه ليقضى على كل ما هو دنيء إذ يعتبره شراً وما الدنيء المحتقر لديه إلا المتألم لا ينقطع عن الشكوى والأنين ولا يتأخر عن التقاط أية فائدة مهما صغرت .

وهذا المرَحُ يكره كل حكمة مُعولة لأن من الحكمة مـا لا تنوّر إلا في الظلام فتلوح كأشباح الليل هاتفة – كل شيء باطل – .

وهو لا يحترم أبناء الريبة القلقة يطلبون من الناس الايمانات المغلظة بدلاً من النظرة الصريحة واليد الممتدة باخلاص ، كما انـه لا يحترم الحكمة المدعية الحزم بسوء الظن لأن بمثل هذا تنمّ النفوس عن خَوَرِها وجبنها .

وليست المجاملة بأقـل دناءة في عينه ، فهي كالكلب ينطرح متصاغراً على ظهره ولكم من حكمة كهذا الكلب زحافة خاشعة متلاطفة .

ولكن ما يكرهه المرَحُ الاناني فوق كل كره الرجـل المستنيم للضيم الممتنع عن الدفاع المزدرد ما يتفل الناس على فمه من سموم وما يلقي عليه من النظر

الشزر ، الرجل الموغل في صبره المتحمل لكل شيء والقانع بكل شيء ، تلك شيمة المستعبَد المأجور .

إن هذه الانانية السعيدة تتسفل في وجه كل عبودية فتزدري بكل متصاغر أمام الارباب يركلونه بأرجلهم وأمام الناس وآراء الناس .

ان هذه الانانية تعد شراً كل متمدن منكسر يستسلم للعبودية بعين منخفضة وقلب منسحق وكل مصانع ينحني مقبلاً الراحات بشفاهٍ متراخية مرتجفة .

انها لتدعو حكمة مضللة كل كلمة ناعمة يتلفظ بها المستعبَدون ومن دب اليهم الهرم ومن أرهقتهم العلل ، وتدعو بهذا الوصف أيضاً ما يتفوه به الكهان في جنونهم وادعائهم .

إنما الحكماء الكذبة جميع الكهنة وجميع من سئموا الحياة وكل من تجول فيهم أرواح النساء والمستخدمين ، ان مثل هؤلاء الناس يدسون للأنانية ويتآمرون عليها ، مدعين أن محاربتها هي الفضيلة بعينها ، ولهذا طمح جميع الجبناء والعناكب المتعبة من الحياة إلى الادعاء بالتنزه عن كل مأرب في أعمالهم.

سيتدفق النور مكتسحاً هؤلاء الناس جميعاً ، وعندئذ يلمع سيف الظهيرة الكبرى ، سيف الدينونة الفضاح .

أما من يمجد الذاتية وينادي بالانانية فذلك وحده يقول بما يعلم عندما يهتف : لقد لاحت تباشير الظهيرة العظمى ولن يطول الزمن حتى تتوهج أنوارها في الآفاق .

هكذا تكلم زارا ...

الروح الثقيـــل

١

ليس في إلا فم الشعب ، فكلماتي قاسية تخدش أسمـاع المتأنقين . وهي أشد وطأة على أسماع زعانف الكتّاب المسبحين بالاقلام .

ما يدي إلا يد مجنون ، فويلٌ منهـا لألواح الشرائع ومنيعات الحصون ، وويل لكل ما يتسع لزخارف الجنون وغرائب سطوره .

وما قدماي إلا حافرا جواد يتراكضان على الانجاد في الاغوار فأحس بروح ابليس ينفخها المرح فيّ وأنا انهب أشواطي .

أما معدتي فلعلها حوصلة عقاب لأن أفضل ما تشتهيه لحوم النعاج ، وان لم تكن حوصلة عقاب فهي على كل حوصلة مجنح من أبناء الفضاء ، لأنني أتغذى من كل طاهر لذيذ فأتوق أبداً إلى الاختطاف والانخطاف ، وكيف لا يكون فيّ شيء من الطير وأنا أهفو الى هذه الحياة .

كفاني أن اعادي كل روح ثقيل لأكون شبيها بالطيور ، فأنا العدو الألد لروح الكثافة بل العدو المقسم ألا يحول عن كرهه وقد تكوّن معـه في رحم امه ، فتلك العداوة لن تطير ولن تتبدد .

لسوف أطلق صوتي بالانشاد مترنما بهـــذه المعاني بالرغم من انفرادي في مسكني المقفر حيث لا يسمع أغاني غير اذني .

لكم في الارض من منشد لا ينطلق الصوت الشجي من حنجرته ولا تطابق التوقيع حركة يده ولا تشع عيناه ولا ينتبه قلبه إلا إذا غص البيت بالسامعين، وما أنا من أمثال هذا المنشد .

ان من سيعلم الطيران للناس في آتي الزمان سيدفع كل ما ضرب حولهم

من حدود بـــل سيدري معالمها هباء ويبدل اسم الأرض باسم يدل على زوال كثافتها وثقلها .

ان النعامة تعدو بأسرع مما تعدو الخيول الضوامر غير انها لا تزال كالانسان تغرس رأسها الثقيل في التراب الثقيل ، وما الانسان بأفضل منها ما زال يجهل كيف يطير ، وما زال يشعر ان الحياة ثقيلة كالارض .

من يريد أن يشعر من نفسه بخفة الطير فعليه أن يتوسل بالانانية للانعتاق من كثافته . ليحب الانسان نفسه : هذا ما أعلّم به أنا .

وما أدعو الناس إلى اثارة حب الذات بعاطفة المرضى والمحمومين ، فان رائحة السقام تنبعث من أنانية المريض والمحموم .

تعلموا الأنانية الصحيحة السليمة لتتمكنوا من احتمال ذاتكم فلا تضلكم أنانيتكم ، هذا هو تعليمي .

وما ضلال الانانية إلا بذهابها إلى « محبة الغير » فان القائلين بالغيرية قد أتوا بأمهر تمويه ، وما أرهق الغير أحد بمثل إرهاقهم .

ليس القول بوجوب التمرن على الانانية وصية من الوصايا تنفذ بين عشية وضحاها ، فالتدرب على محبة الذات أدق الفنون وأصعبها وما تملك زمامه إلا المتحيل الجلود ، لأن روح الكثافة يجعل المالك في غفلة عما يملك ويعمي صاحب الكنوز طويلاً عن مشاويها . فإننا لا نكاد ننطرح على السرير حتى نجهز بالكلمتين الثقيلتين : « الخير » و « الشر » ، ذلك هو ميراثنا ، بل تلك هي الوصية التي لا تغتفر لنا الحياة إلا باتباعها . وإذا ما قال قائل : دعوا الأولاد يأتون إلي ، فما يدعوهم إلا ليمنعهم في الزمن المناسب من أن يحبوا ذاتهم . تلك هي مآتي الروح الثقيل .

أما نحن ، فنذهب ساحبين ما أثقلت به كواهلنا الصلبة إلى الجبال الجرداء،

حتى إذا شكونا اللغب والسغب قيل لنا : أنتم محقون بشكواكم فالحيـاة أعباء وأثقال .

والحق ليس في الحياة من أعباء على الانسان غير الانسان نفسه لأنه يوقر كاهله بما لا طائل تحته، فهو نفسه قد استناخ كالجمل مسلما ظهره ، فاثقل بأشد الاحمال. وأكثر الناس استسلاما الرجل الصلب الجلود يرفع على كاهله جماً من الكلمات والوصايا الثقيلة فتنبسط الدنيا أمامه صحراء قاحلة مترامية الاطراف .

وما يثقل كاهلكم كل دخيل عليكم فحسب ، فهنالك مـا يرهقكم وهو منكم وفيكم ، فداخل الانسان شبيه بحشوة المحـــار فهو قذر متراخ لزج ينزلق تحت أناملك إذا حاولت إمساكه ، لذلك تتكفل القشور والظواهر المزخرفة بستر ما وراءها وما يسهل على المرء أن يستنبت لنفسه قشوراً متعاميا بحكمة عن دخائله ، ان هذا إلا فن لا بـــد من التدرب عليه ، ولكم على الناس من قشور تنم على المسكنة وقد وضح عليها التمويه ، ولكم من قوة ومن وصفة طبية تبقى غائرة فلا يلمحها أحد ، وكم من طعـام شهي لا يرغب أحد فيه . ومـا خفيت هذه الحقيقة عن النساء فهن يعلمن ان بين المترهلة والنحيلة مجالاً لتمني المتعنتين وقد يتوقف حظهن من الاستغواء على شيء من الترهل وشيء من النحول .

ان اكتشاف خفايا الانسان لمن صعاب الأمور وأصعب الامور أن يكتشف الانسان نفسه ، فكثيراً مـا يضلل العقل الشعور ، ومـا ذلك إلا من تأثير الروح الثقيل .

ليس من مكتشف الحقيقة ذاتـه إلا من يقول في نفسه : هـذا هو خيري وهذا هو شري ، وبهذا القول يخرس الخلد والقزم القائلين بأن الخير خير للكل والشر شر للجميع .

والحق انني أكره أيضاً من يرون كل شيء حسنا ويرون هذا العالم خير العوالم . ان هؤلاء إلا القانعون يرتاحون لكل شيء ويتذوقون كل شيء ، وما

بهذا يستدل على الذوق السليم ، أما أنا فأجـــلّ الفم الحساس المتعصب الذي يعرف أن يقول « أنا » وأريد ولا أريد .

وما من يلتهم كل شيء ويهضم كل شيء إلا من قطيع الخنازير ، فكل ناهق بالرضى سائر حماراً بين الحمير .

أحب من الألوان الاصفر القـاتم والاحمر الفاقع لأنهما يدخلان لون الدم على جميع الألوان ، ومن موّه جـدران بيته باللون الابيض يدل على انه موّه نفسه بهذا اللون الابيض .

انني أحب الدماء ومـا يتفق ذوقي وأذواق من يعشقون الجثث المحنطة من جهة ومن يعشقون الاشباح من جهة اخرى لأن الفئتين معاديتان لكل ما هـو لحم ودم ، وأنا لا أريد الوقوف حيث يصيبني رشاش من بصاق الثرثارين ومـا يسيل النضار من أشداقهم كما يدعون ، وخير لي من المثول أمامهم أن اعاشر اللصوص والخونة .

وإذا ما كرهت الثرثارين فانني أشد كرهاً لمن يتلقون رشاش بصاقهم ، وما رأيت في النـاس من تشمئز لهم نفسي كمن لا أجد لهم شبيهاً غير الطفيليات ، فمثل هؤلاء يطلبون الحياة من الحب وهم لا يشعرون به .

ان من أدعوهم أيضاً أشقياء في الحياة هم الألى الاخيار لهم إلا بين حالتين ، فإذا لم يكونوا حيوانات مفترسة كانوا مذللين لها . وما أنا بالضارب خيامي في جوار هؤلاء الناس .

أنا أدعوا أشقياء أيضاً من يكرهون على الانتصار أبداً فما أحبذ حياة الجباة والتجار والملوك وكل مز يقف حارساً لحانوت أو لقطر من الاقطار .

وأنا أيضاً تعلمت الصبر والانتظار إلى زمان طويل ولكن ما انتظره انما هو « أنا » وقد تمرنت عليه هو أن أقف وأمشي وأركض وأقفز وأتسلق وأرقص، لأن تعليمي هو هذا : من يريد أن يتعلم الطيران يوماً فعليه أن يتدرب أولاً على

الوقوف فالركض فالقفز فالتسلق فالرقص ، وليس لأحـــد أن يطفـو إلى الطيران طفراً .

ما تعلمت التسلق إلى النوافذ إلا بنصب الحبــال ، وما ارتقيت مرتفعات الصواري إلا بعد أن تقوت عضلات ساقيّ . ان أعظم اللذات هي اعتلاء صارية المعرفة ، والاتقاد بلهب يتلوه لهب ، فان في هذا الاشعاع المتردد هداية السفن الجانحة وأمل المشرفين على الهلاك .

لقد بلغت الحقيقة ، حقيقتي بسلوكي طرقاً عديدة واتخاذي وسائل جمة فيما ارتقيت المدارج من سلم واحـــدة لأبلغ القمة التي أتسنمها الآن وأرسل منها نظراتي إلى بعد .

وإذا كنت سألت أحياناً عن الطريق فما سألت الا مكرهاً لأنني فضلت في كل زمان أن استنطق السبيل عن وجهته فاختبره بنفسي .

وهكذا كان تقدمي سؤالاً وتلمساً وما يتوصل الانسان إلى استنطاق نفسه وسبله أن لم يتمرن على ذلك ، ولكل ذوقه وهذا هو ذوقي لا أراه خير الاذواق ولا أراه شرها على إنني لا اخجل به ولا اخفيه .

هذا السبيل الذي أنتهج ، فأين سبيلكم أنتم ؟

بهذا الاستفهام كنت أجاوب من يسألونني : أين الطريق ؟ لأن لكل طريقه وليس هنالك جادةٌ للجميع .

الوصايا القديمة والوصايا الجديدة

١

ها أنذا جالس أنظر بين ركام الالواح القديمة المحطمة والالواح الجديدة ولما تستكمل كتابة الوصايا عليها .

فأي متى تــأتي ساعتي : ساعة انحداري وجنوحي ؟ فانني اريد أن انحدر إلى الناس ثانية . وذلك هو سبب انتظاري إذ لا بد أن تعلن لي علامة اقتراب الساعة فأرى الاسد الضاحك وسرب الحمام الزاحف .

وإلى ذلك الحين اتكــلم كمن له سعة من وقته فأخاطب نفسي وأقص عليها ما أعلم إذ لا يقص علي أحد شيئاً جديداً .

٢

عندما أتيت إلى العالم وجدته جالساً على افتراضات قديمــة واثقاً انه عرف كل شيء وميز بين خير الحياة وشرها .

ورأيت الناس يعتقدون ان كل بحث عن الفضيلة قد انقضى زمانه ، وبالرغم من هذه العقيدة كان كل منهم يأتي على ذكر الخير وهو متجه إلى سريره طلباً للنوم الهنيء .

فوقفت انبه السفلين وأنا أعلن ان ليس من أحد عرف حقيقة الخير والشر لأن المبدع وحده يعرفها ، وهو من يخلق أهدافــاً للناس ويولي الأرض معناها ومقدّراتها فليس سواه من يوجد لكل شيء خيره وشره .

وأمرت الناس بأن يهدموا كل قديم وأن يقفوا أمـــام كل عقيدة هرمه ضاحكين مستهزئين بمعلميهم وقديسيهم وشعرائهم ومخلصي عالمهم .

أمرتهم بأن يهزأوا بصرامة حكمائهم وحذرتهم من المفزعـــات السوداء المنصوبة على شجرة الحياة .

أمرتهم ، واتخذت لي مقعداً عند حافة مضيقهم وقد حفل بالنعش والاشلاء وحامت فوقه الغربان ، وبت أضحك هازئاً بماضيهم المتداعي وقـــد تناثرت أمجاده ، وأثور كمن اعطي سلطاناً على الخـير والشر وكمن مسه الجنون صابّاً

جام الغضب واللعنة على كل كبائرهم وصغائرهم ، وما هزئت إلا باحقر ما في خيرهم وشرهم .

لقد كانت أشواقي تتدفق مني هتافاً وضحكاً ومـــا اشواقي إلا الحكمة المتوحشة التي نشأت في أعالي الجبال بجناحين يملأ حفيفهما الفضاء ، ولكم تسامت هذه الاشواق بي الى ما فوق الذرى فاندفعت معها كالسهم المرتعش يهزه حنينه إلى مصدر النور ، الى مجاهـل المستقبل التي لم تبلغها الاحلام ، إلى الظهيرات التي لم يلمس الوهم حرارتها ، الى حيث يرقص الآلهة وقد استحيوا من الاستتار بأي رداء .

ليس لي أن أصف ما هنالك بغير الرموز ، لذلك أجدني محفوزاً إلى تمتمة ما أقول فاتدبدب كالشعراء. والحق إنني لأخجل من اضطراري الى الأخذ ببيانهم.

لقد لاح لي كل شيء رقصاً ونكات آلهية لأن العالم قد انطلق هنالك من كل قيد فالتجأ إلى نفسه ، فازعـاً اليها كما يفزع الآلهة أبداً إلى ذاتهم مفتشين عنها بانكارها وبتكرار العودة اليها .

هناك لاح لي الزمان سخرية بالازمان المجزأة ورأيت واجب الوجود عبارة عن حرية سعيدة تداعب الحرية نفسها .

هنالك وجدت شيطاني القديم وعدوي الحديث روح الكثافة ، وما أبدع من قبور وشرائع وأهداف وإرادة وخير وشر .

وجدت كل هـذا ميداناً ممهداً لأقدام الراقصين . فليس من مرقص بلا مسرح وليس من روح خفيفة لا تزحف عند اقدامها الخلدان والاقزام .

٣

هنالك أيضاً ظفرت بكلمة « الانسان المتفوق » وبالتعليم القائم على ان الانسان كائن يجب أن ينشأ منه مـا يجتازه . ليس الانسان هدفاً وغاية ، ان

هو إلا عابر يدعي السعادة في ظهيرته ومسائه .

ان كلمات زارا عن الظهيرة العظمى وجميع ما رفعه فوق العالم ان هو إلا غروب ارجواني ثان ينفلق من وراثة الفجر الجديد .

لقد عرضت لأنظار الناس كواكب جديدة وليالي لا عهد لهم بها ونثرت الضحك على غيوم الليل والنهار فضربت قبة زاهية بمديد ألوانها .

علّمت الناس جميع أفكاري وأبنت لهم جميع رغباتي إذا أردت أن أجمع وأوحد ما في الانسانية من بدد الاسرار وتصاريف الحدثان فقمت بينهم شاعراً أحل الرموز وافتديهم من الصدف العمياء لأعلمهم أن يبدعوا المستقبل وينقذوا بابداعهم ما انصرم من الاحقاب .

لقد وجهت الناس إلى انقاذ الانسانية مما أدرج الماضي في أغوارها بتغيير كل « ما كان » إلى ان تنتصب الارادات معلنة ان ما تم هو ما كانت تريد أن يكون وان هذا ما ستريده في كل زمان .

بهذا رأيت السلام للناس وهذا ما علمتهم أن يدعوه سلاماً .

وأنا الآن أتوقع السلام لي لأعـود للمرة الأخيرة لأنني أريد أن أذهب من بينهم إلى الفناء فأودعهم أثمن كنوزي اسوة بالشمس تلقي على البحار نضارها وهي تتوارى في الظـلام ، حتى ترى أفقر الصيادين يداعبون صفحة البحر بالمجاديف المذهبة .

لقد تعلمت هذا الجود من الشمس عندما كنت أشخص اليها غاربة فتندفق الدموع من عينيّ .

هكذا يريد زارا أن يتوارى فيغرب كما تغرب الشمس ، وها هو ذا جالس ينتظر بين ركام الالواح القديمة المحطمة والالواح الجديدة ، ولما تستكمل كتابة الوصايا عليها .

٤

انتبهوا ، انني آتيكم بلوح جديد . ولكن أين هم أخوتي يحملون معي هذا اللوح إلى الوادي لتحفر وصاياه على أعشار القلوب ؟

ان محبتي لمن سيأتون فيما بعد تقضي بهذه الوصية : — لا تدار قريبك — لأن الانسان معبر يجب علينا اجتيازه للتفوق عليه .

وقد أعطي للانسان أن يجتاز نفسه على طرق عديدة وبوسائل عديدة ، فما عليك إلا أن تتجه للوصول وليس غير الممثل المضحك من يقول بامكان التفوق على الانسان طفراً وقفزاً .

تفوق على نفسك في ذات قريبك فلا تدعه ينيلك حقاً بوسعك أن تأخذه جداراً ، فان ما تفعله لا يبادلك اياه أحد لأنه ليس من مكافأة في العالم ، ومن لا قبل له بحكم نفسه وجبت الطاعة عليه .

ان في العالم كثيرين يعرفون أن يتحكموا بأنفسهم ولكنهم لا يعرفون كيف يطاوعونها .

٥

ان النفوس النبيلة تأنف أن تأخذ شيئاً بلا بدل فهي ترد الحياة قبل كل شيء إذا هي لم تكتسب عيشها ، أما القطيع البشري فيريد أن يعيش دون أن يبذل شيئاً .

لقد وهبت لنا الحياة فعلينا أن نفكر في كل حين بخير ما يمكننا أن نبذل لقاء هذه الحياة . وهل أشرف من أن نقول : يجب أن نحقق للحياة ما وعدتنا به ؟

ليس للمرء أن يتمتع بلذة إذا هو لم يبذل لذة ، فما اللذة عبارة عن التوجه للتمتع بها ، لأن التلذذ كالطهارة كلاهما حيي ممنع ، وليس لأحد أن يفتش عنها

إذا هو لم يمتلكها امتلاكاً . وخير له أن يفتش في هذه الحـــال عن الدنس والأوجاع .

٦

كل طليعة تضحّى، أيها الاخوة، وهل نحن إلا طليعة منذرة،تنزف جراحنا دماً في هيكل الاسرار ونقدم محرقة يذوب لحمها تمجيداً للاصنام القديمة ؟

ان خير ما فينا لم يزل غضاً رطيباً وذلك مـــا يهيج شهوة الاشداق الهرمة ، فلحمنا طري وجلودنا جلود حملان ، فكيف لا تثير جشع الكهان في هياكل الاوثان ؟

ان كاهن الاوثان الهرم لم يزل يسكن ذاتنا الخفية وهـــو يتهيأ لاقامة وليمة يبتلع فيها خير ما فينا . فكيف تسلم الطليعة ، أيها الأخوة ، من أن تصبح ضحية وقرباناً ؟

ولكن بهذا تقضي مهمتنا وأنا أحب من لا يتمسك بالبقـــاء ، ومن يتوارون أرفقهم بكل عطفي لأنهم يذهبون إلى الجهة الاخرى .

٧

ما أقل من يعرفون الصدق والاخلاص ، والعارف لحقيقة الصراحة لا يريد أن يكون صريحاً ، فأكثر الناس تمويهاً هم المشفقون لأنهم لا ينطقون أبداً بالحق، ومثل هذا الاشفاق مرض كامن في العقل .

إن الرحماء يرضخون ويستسلمون للقلب يملي ارادته فيهم على العقل والعقل يمتثل دون تروٍ وادراك ، فـــا تتكون الحقيقة في الرحماء إلا من تراكم كل ما هو شر في عينهم ، فهل لديكم من الشر ما يكفي لايجاد مثل هذه الحقيقة ، أيها الاخوة ؟

لا تولد الحقيقة إلا من تزاوج الوقاحة وسوء الظن والرفض القاسي والكره والشقاق في الحياة ، وما أصعب أن تتوافق وتتحد جميع هذه المقدمات !

ان الضمير الشامل قد نشأ حتى اليوم قرب الضمير الشرير ، فهيّا أيها الاخوة إلى تحطيم الالواح القديمة إذا كنتم تفتشون عن مبدأ المعرفة .

٨

إذا رأيت المعابر منصوبة فوق مجاري المياه والجسور معقودة فوق الانهار فهـــل تصدق من ينادي بالثبور وينذر بالغرق ، إذا كان الحكماء انفسهم يكذبونه ؟

ان كل ما يعلو النهر من معابر ، كل ما هو خير وكل ما هو شر ثابت مكين . وعندما يجيء الشتاء المتسلط على الانهار يرتاب في ثبات كل الاشياء أشد الناس فطنة . غير ان من يحبون الاستغراق في نوم الشتاء والاستسلام إلى بطالته يحلو لهم أن يعتقدوا برسوخ المعـابر وسكون كل حركة في الاعماق ، ولكن الهواء المذيب للجليد يكذب هذه الطمأنينة إذ يهب كأنه الثور الهائج ضارباً الجليد بقرنيه وإذ يتحطم الجليد تتداعى الجسور ، وعندئذ تغرق في الميـاه كل المعابر فلا يجد أحد ما يستند اليه من الخير والشر .

يا لشقائنا ، بـل يا لسعادتنا ! لقد هبت الارياح تذيب الجليد ، فاذهبوا يا اخوتي على الطرق مبشرين بهبوبها .

٩

ان من الجنون جنوناً قديماً عرف بالخير والشر فـدار حتى اليوم على محور العرافين والمنجمين .

لقد ساد الاعتقاد فيما مضى بالعرافة والتنجيم ، لذلك أمن الناس بالقضاء

المحتوم فقالوا بالواقع وجوبـاً وداخلهم الشك في الكشف فارتدوا إلى الارادة الحرة ينادون بها قائلين : إذا أنت أردت فقد قررت .

أيها الاخوة ، كل ما بني حتى اليوم على استنطاق النجوم والمستقبل لم يكن إلا افتراضاً يقوم على افتراض ، لذلك لم يعرف أحد شيئاً عن الخير والشر وما قيل عنهما لم يتعد حدود الرجم بالغيب .

١٠

لا تسرق ، لا تقتل :

تلك كلمات كانت مقدسة في غابر الزمان، إذا سمعها انسان جثا على ركبتيه وأحنى رأسه وخلع نعليه .

غير انني أسألكم فأجيبوا : هل وجد في الدنيا لصوص وقتلة أوفر سرقـة وأشد فتكاً ممن استفزتهم هذه الكلمات المقدسة ؟

أفليست السرقة والقتل من طبيعة الحياة نفسها ؟ وهل كان تقديس هذه الكلمات النافية إلا قتلاً لحقيقة الحياة ؟

أكان القصد من مغالطة الحياة والردع عنها إذاً دعوة في سبيل الموت والفناء؟

اي اخوتي ! حطموا هذه الالواح القديمة ولا تترددوا .

١١

انني لأشعر باشفاق على الماضي وقد اصبح متروكاً مهملاً ، معرضاً لما سينشأ في الاجيال الآتية من اعتبار وتفكير وجنون ، فان هذه الاجيال ستصطنع لنفسها جسراً من كل قديم مضى عهده .

لقد يجيء طاغية له روح إبليس يتسلط على المـاضي بلطفه وعنفه فيعالجه

حتى يصبح معبراً لأقدامه وشعاراً له ومكاناً يصيح عليه ديك فجره .

غير ان اشفاقي ينطوي أيضاً على ترفع الخطر: لأن تفكير من ينشأ من الغوغاء لا يذهب إلى عهد أبعد من عهد جده وهو لك يتناهى في تقديره الزمان القديم.

إلا ان الماضي أصبح متروكاً . وقد تسود الغوغاء يوماً فتدفع إلى اللجج بميراث العصور .

لذلك وجب أن تقوم فئة لها نبلها الحديث تناوىء الغوغاء وتصد الطغاة ، فئة نبيلة تنزل الشرف وصية محفورة على ألواح جديدة .

لا يقوم النبل ان لم يكثر عدد النبلاء ، وقد أوردت هذا المبدأ ورمزت اليه عندما قلت : بتعدد الآلهة لا بالاله الواحد تقوم الألوهية .

١٢

انني اوليكم النبل الجديد ، أيها الاخوة ، عندما أقتضي منكم أن تبدعوا وتعلّموا وتلقوا بذوركم لآتي الزمان .

تلك كرامة لا يسعكم ابتياعها بذهب التعامل كالمتاجرين ، وما أزهد قيمة ما يباع ويشرى !

لن يكون حسبكم بعد الآن مشرفاً لكم بل الهدف الذي تتجهون اليه . ان شرفكم كامن في ارادتكم وفي الخطوة التي تندفعون بها إلى التفوق على أنفسكم واجتياز حدودها ، ذلك هو شرفكم الجديد .

ان خدمتكم لأمير لا تنيلكم شرفاً ، وما هو قدر الامراء ، وهل يشرفكم أن تقفوا كالحصون حول ما هو كائن لتزيدوا في مناعته وتطيلوا بقاءه ؟

انسحبوا من السلالة التي تعلمت التلون في القصور وتعودت الوقوف أبداً أمام المياه الآسنة . ان علم الوقوف على القدمين يعد فضيلة لخدام القصور وهم

لا يتوقعون الحصول على لذة الاستراحة إلا اذا طرحهم الموت عن موقفهم .

ليس شرفكم أيضاً في انتسابكم الى أجداد قذف بهم روح يدعونه روح القدس إلى أرض الميعاد ، الى الارض التي لا أجد فيها ما يُحمد وهل تحمد تربة أنبتت أسوأ الاشجار : عود الصليب [1] ؟

وهـل سارت فيالق الفرسان أيان كان يدفعها هـذا الروح القدس إلا ومن وراءها قطعان الماعز والبط ورهط المجانين والمعتوهين ؟

اي اخوتي ، ليس إلى ما وراءكم يجب أن يتطلع نبلكم بـل الى ما هو خارج عن سبيلكم ، وعليكم أن تنفوا نفوسكم من جميع البلدان والمواطن التي سكنها أجدادكم .

لا تعلقوا قلوبكم إلا على أوطان أبنائكم ، وليكن هذا الحب حسبكم النبيل الجديد ، تلك هي الاوطان التي لم تطأها قدم بعد وراء البحار السحيقة ، وأنا آمركم بنشر شراعكم للتفتيش عن مراسيها .

عليكم أن تكفرّوا أمـام أبنائكم عن ذنب تحدركم من آبائكم ، وبغير هذه الكفارة لن تنقذوا الماضي .

هذه هي الوصية الجديدة أعلق لوحها فوق رؤوسكم .

١٣

لماذا نحن نحيا ، وكل شيء باطل ! وهل الحياة إلا عبـارة عن دق سنابل والاصطلاء قرب نار تحرق ولا تدفي ؟

---

(١) ان كل ما امكن للفلسفة المستغرقة في الآرية أن تدركه من حياة عيسى هو ما حوله الغرب الى معميات ... وما كان أجدر بنيتشه وهـو المتهم المسيح بادخال الاشفاق القاتل للمجتمع ألا يرى الصليب مقتطعاً من شجرة السوء لأنه قتل المشفق الأكبر ولكن التناقض شر بلايا الفكر وأسهل مـا يقع المنكر فيه اذا هو مد بقياسه إلى ما يعلم وإلى ما لا يعلم دون تحقيق .

هذه هي الثرثرة القديمة لا تزال تحسب حكمة والناطقون بها شيوخ تفوح منهم رائحة الانزواء ، والتعفن يكسب نبلاً ، فهؤلاء الشيوخ لتعفنهم يكرمون وما يقصر الاطفال عن الاتيان بمثـل وصاياهم . لقد لذعتهم النار فهم يخافونها ، ان كتب الحكمة القديمة مشحونة بكثير من الاوهام الصبيانية .

ان من يدق السنابل لا يحق له أن يهزأ بمن يستخرج القمح منها . ان هؤلاء المستهزئين لمجانين يجدر بنا تقييدهم، فأمثالهم يجلسون إلى الموائد دون أن يأتوها بشيء حق ولا بشهية للطعام . فهم يجدفون قائلين : ان كل شيء باطل .

صدقوني أيها الاخوة ان من يحسن الأكل والشرب لا يمتلك فناء باطلاً .

حطموا ، حطموا ألواح الوصايا التي كتبها من لا يزالون أبــداً ساخطين متذمرين .

١٤

« ان الطاهر يرى كل شيء طاهراً » هذا ما يقول به الشعب .

أما أنا فأقول لكم ان كل شيء خنزيري في عين الخنازير .

ولذلك يقف المأخوذون بالتواضع وانسحاق القلب داعين الناس الى الاعتقاد بأن العالم مستنقع أوحال وأوضار، وما الاوضار إلا في عقول هؤلاء الوعاظ الذي لا يحلو لهم أن ينظروا الدنيا إلا مدبرة فما يستهويهم منها إلا قفاها .

إلا انني أصرح بوجه هؤلاء المأخوذين وان جنحت عن حدود اللياقة لأقول ان العالم لشبيه بالانسان فله أيضاً قفاه ، وفي هذا العالم كثير من الأقذار أيضاً ولكنه ليس مستنقعاً يغص بالاوضار على رحبه .

لقد أرادت الحكمة أن يكون في العالم أشياء تنبعث الروائح الكريهة منها، فان الكراهة تستنبت الاجنحة وتولد الشوق إلى صافيات الينابيع .

ان خير من في الحياة لا يخلون مما يوجب الاشمئزاز بل في أرقامهم ما يجب اجتيازه والتفوق عليه ، فمن الحكمة إذاً يا اخـوتي ، أن تكون الاقذار كثيرة في هذا العالم .

١٥

لكم سمعت الاتقياء المأخوذين بالعالم الآخر يناجون ضمائرهم بأقوال سداها الضلال ولحمتها الشر ، يقولونها مصدقين بها لا مواربين ولا مازحين .

« دع العالم على حـــاله ولا تحرك اصبعاً لاعتراضه في سبيله . دع الناس يستسلمون لأية يد تشد على خناقهم ، دعهم يتناحرون ويتضاربون ويتعـاملون بالسوء ويتسالخون ، اياك أن تحرك اصبعاً لردعهم ، دعهم وما يفعلون فانهم بذلك ينتهون إلى الزهد بهذا العالم .

« احذر حكمتك لأنها هي أيضاً من هذه الدنيا وعليك أن تكتبها وان تنحرها نحراً لأنك بذلك تتعلم أنت أيضاً الزهد بهذا العالم » .

اي اخوتي ، تقدموا إلى هـــذه الالواح القديمة ، ألواح وصايا الاتقياء ، وحطموها تحطيماً ، بل اقضموا بأسنانكم هذه الوصايا فلا تتفوه شفاهكم بها لأنها كلمات المشنعين بالحياة .

١٦

سمعت الناس يتهامسون في الأزقة المظلمة قائلين :

« من يتعلم كثيراً يفقد شهواته العنيفة كلها »

ورأيت ألواح وصية جديدة تعلق حتى في الساحات العمومية وقد كتب عليها :

« الحكمة مرهقة ، ولا شيء يستحق العناء ، فلا تعلق شهوتك على شيء » .

سارعوا ، أيها الاخوة ، إلى تحطيم هذه الالواح الجديدة ، وما علقها فوق

الرؤوس إلا من تعبوا من الحياة ، ما علقها إلا كهان الموت وحراس المواخير ، وهل هذه الوصية إلا دعوة إلى العبودية ؟

لقد تعلم هؤلاء الكهنة والحراس ولكنهم اتبعوا منهجاً سيئاً فأغفلوا من العلوم خيارها،تعلموا قبل الأوان متسرعين، فازدردوا ما تناولوا حتى استحكم في معدهم الداء.وما عقلهم إلا معدة عليلة ساء هضمها ولهذا ينادي عقلهم بالفناء.

ان الحياة ينبوع مسرة ، ولكن المتنصت إلى عقله المعمود وقد ساء التمثيل فيه وحكمته السوداء يخيل له ان في كل ينبوع سموماً .

ان المعرفة مسرة لمن تعززه ارادة الاسد ، وما المتعب تسيره ارادة سواه إلا خشبة عائمة تتقاذفها الأمواج . وهل الضعفاء إلا من ضلوا السبيل حتى إذا نفذت قواهم وقفوا متسائلين عمن دفع بهم إلى السير قائلين ان لا شيء يستحق الاهتمام ، هؤلاء هم من يلذ لهم سماع الداعين إلى الاستعباد بقولهم لا شيء يستحق الاهتمام ، فعليكم أن تشلوا ارادتكم .

اي اخوتي ، ان زارا يهب كالهواء اللافح مدغدغاً معاطس كل من أتعبهم السير على طرقهم ، وهذا الهواء مطلق يخترق حتى جدران السجون ويبلغ حتى سجناء التفكير .

لا يخلص إلا الارادة لأن الارادة مبدعة ، هذا هو تعليمي . وعلى الانسان أن يتعلم ليبدع . وعليه أن يأخذ عني دون سواي الطريقة التي تبلغه العلم .

من له أذنان سامعتين فليسمع .

١٧

لقد أعدّت السفينة فهي متجهة إلى بعيد ولعلها سائرة إلى لجة العدم ، فهل فيكم من يريد السفر إلى المجهول المفترض ؟

ليس منكم واحد يريد أن يركب هذه العـــائمة ، سفينة الموت ، فعلى م تريدون اذاً أن تسأموا الحياة ؟

أيها المتعبون من الدنيا قبل أن يستعيدكم ترابها ، ما عهدتكم إلا متشوقين للأرض عاشقين لمتاعبكم منها .

هذه شفتكم تتدلى بشهوة ترابية تعلقت فيها وهذه نظراتكم تجـول فيها خيالات ملذات أرضية لم تنسوها بعد .

ان على الارض مبدعات وفـــيرة بعضها للفائدة والبعض الآخر للتنعم ، فأحبوا الأرض من أجل هذه المبدعات ، وفيها ما جمع كنهود الكواعب بين ما يفيد الحياة ويبهج الحياة .

أما أنتم أيها المتعبون من العالم أيها المتكاسلون، فقد حق عليكم أن تدغدغ جلودكم السياط لتشتد عزائمكم وقوائمكم لأنكم اذا لم تكونوا ممن نفذت قواهم فتعبت الارض منهم فأنتم ولا ريب من فئة المحتالين المتكاسلين أو من المنتقمين المنقطعين الى اللذات كالهررة الجشعة الخبيثة . إذا أنتم أصررتم على اختيار الجمود وامتنعتم على الركض بفرح وحبور ، فمالكم إلا أن تتواروا عن الوجود .

لا دواء للداء العقام ، هكذا يعلم زارا ، فاغربوا إذاً عن الحياة .

ولكن الاتيان ببيت الختام في قصيدة أصعب من نظم بيوت جديدة فيها ، ووضع حد للحياة يستلزم من الشجاعة ما لا يقتضيه البقـــاء فيها ، وذلك ما يعرفه الشعراء ولا يجهله الاطباء .

١٨

اي اخوتي ، لقـــد كتب التعب وصاياه كما كتب الكسل وصاياه أيضاً ، وبالرغم من أن نص كليهما واحد فإن معنى كل منهما يختلف عن الآخر وهـل كالكسل ما يدخل التعفن إلى النفوس ؟

انظروا الى هذا الرجل وقد تراخت عزيمته ولم يبق بينه وبين هدفه إلا قيد شبر واحد ولكن التعب أضناه ، فأصبح وهو الجسور المقـــدام منطرحاً على الرمال متبرماً حانقاً .

ها هو ذا يتثاءب من لغبه وقد سئم الطريق والأرض والهدف حتى سئم نفسه فهو لا يريد أن يخطو خطوة واحدة بعد .

ان الشمس ترشقه بسهامها وقد دارت به الكلاب متحفزة لتلغ ما تصبب من عرقه وهو لا يزال ممدداً ممنعاً بعناده مفضلاً على النهوض أن تنثره الشمس رماداً .

يا للغرابة أن يفنى الانسان وهو على قيد شبر من هدفه ! تقدموا وجروا البطل بشعره لابلاغه الجنة التي تاق اليها .

ولكن لا ! خيرٌ لهذا الرجل أن تدعوه حيث انطرح ليأتيه الوسن المعزي ويتساقط عليه الرذاذ المبرّد من السحاب .

دعوه يغط في نومه الى أن ينتبه لنفسه ، الى أن يتغلب وحده على التعب وعلى كل ما علمه أن يتعب .

ولكن اطردوا من حوله الكلاب الخبيثة الكسولة وأسراب الذباب المالئة جوّه بالطنين ، وما هي إلا ارهاط المثقفين المتغذين مما تنضحه رؤوس الابطال .

١٩

انني أرسم حولي خطوطاً وأنصب التخوم حدوداً مقدسة ، لذلك يتناقص عدد من يتسلقون الجبال معي كلما ازددت ارتفاعــاً نحو الذرى ، فحاذروا ، يا اخــوتي ، في أي مرتقى أن يندس بينكم الطفيليون ، ان الطفيــلي حشرة تتغذى من كل خلية فيكم ، فهي تهتدي بالغريزة الى مواطن ضعفكم وتدرك بسليقتها الزمن الذي تهيء فيه عزائمكم ، فـلا تلبث أن تعشش في مكان من استيائكم ووهن معزتكم .

ان مثل هذه الحشرة لا تتخذ مقرهـــا الكريه إلا في مكامن الضعف من الاقوياء وفي مواطن الاشفاق من النبلاء ، وحيث تلوح لها علة حقيرة لعظيم فهنالك تتخذ مسكناً لها .

ان أدنى فئة وأحطها في أي نوع أنما هم الطفيليون ، وما يغذي هذه الفئة الدنيئة إلا أرفع فئة وأشرفها في ذلك النوع . وكيف لا يتراكم العدد الاوفر من الطفيليين على نفس طال سلمها فطال المدى بين أحط مدرج وأعلى مدرج فيها ؟

كيف لا يتراكمون على نفس رحب مداهـا فتراكضت فيها تائهة مستسلمة للطارئات، على نفس تستغرق في آتي الزمان وتندفع الى اغوار الارادة والشوق، على نفس تفزع من ذاتها وتفزع الى ذاتها مندفعة منجذبة في أفسح دائرة وأبعد مجال ، على نفس تناهت في الحكمة فراودتها على مهل طلائع الجنون ، وتلك هي النفس التي أحبت ذاتها فوق كل حب فبدت فيها مصاعد ومنازل لكل الاشياء واتسعت لكل جزر ومد فكيف لاتعلق بأكبر النفوس من أحقر فئات الطفيليين؟.

٢٠

ما احسبني قاسياً عاتياً . ومع ذلك فانني أقـــول لكم : اذا ما رأيتم متداعياً إلى السقوط فادفعوه بأيديكم واجهزوا عليه .

ان كل شيء يتفسخ ويتداعى في هذا الزمان ، فمن ترى يحاول دعم ما هوى ؟ أما أنا فانني اريد سقوطه .

واذا كنتم لم تتذوقوا لذة دفـع الصخور من ذرى المنحدرات فانظروا الى رجال هذا الزمان يتدهورون الى أغواري .

ما أنا الا أول المدحرجين وسيأتي بعدي من تفوق مهـارته مهارتي ، فاقتدوا الآن بي .

كل انسان تعجزون عن تعليمه الطيران علموه على الأقل أن يسرع بالسقوط.

٢١

انني احب الشجعان ، وما يقنع اعجابي منهم باحكامهم ضرب السيف اذ عليهم أيضاً أن يمهروا في اختيار من يضربون .

ولقد يكون الاقدام الاوفى في الاحجام أحياناً وفي الاحتفاظ بالقوة لمن لمن يستحق أن تبذل له .

لا تتخذوا لكم من الأعداء الا من يستحق البغضاء وتجاوزوا عن عداء من لا يستحق الا الاحتقار اذ عليكم أن تباهوا بعدوكم وما هذه أول مرة آتيكم فيها بهذه الوصية .

احتفظوا بقوتكم وما أكثر من يجب أن تمروا بهم متغافلين وأحقهم باغفالكم! اولئك الزعانف الذين يخدشون آذانهم بما يتصايحون به عن الامم والشعوب .

أعرضوا عما يهاجون به من حجج وعما يدافعون به من براهين،فما أقوالهم الا مزيج توافق حقه وباطله ، ومن أصغى اليها لا يأمن ثورة غضبه ، فاذا هو منقاد الى ارسال ضرباته يمنة ويسرة في الجموع ، لذلك سارعوا للالتجاء الى الغابات ودعوا سيوفكم في أغمادها .

سيروا في طريقكم ودعوا الأمم والشعوب تتبع مسالكها ، انها لمسالك جللها الظلام فلن يلوح عليها بارق الأمل .

على تلك السبل لا يسود الا المتاجرون بالسلع حيث لا بارقة الا من لمعان دنانيرهم ، فقد انقضى عهد الملكية ، وهذه الكتل التي يسمونها شعوباً لا تستحق قيادة الملوك .

انظروا الى هذه الأمم وقد أصبحت تمثل دور بائع السلع بمجموعها تروها حقيرات الارباح من أقذار أية دمنة لاحت لها . لقد انتصبت كل امة تترصد الأخرى وتقلدها وتدعي جميعها حرمة الجوار . فيا له عهداً سعيداً ذلك الزمان الذي كان يهب فيه شعب معلناً ارادته بأن يسود غيره من الشعوب !

أقول هذا يا اخوتي، لأن من حق الأفضل أن يحكم ولأنه يريد أن يحكم ، ولا تسود قاعدة غير هذه القاعدة الا حيث لا أفضل منها يعمل بها .

٢٢

ويل لهؤلاء الناس لو ان خبزهم يوزع مجاناً عليهم ، فانهم لا يجدون من يصبون غضبهم عليه ، بأي حديث يتحدثون اذا حرموا قساوة الحياة ؟

ان هؤلاء الناس إلا وحوش كاسرة ، في أعمالهم ترّصدّ واختطاف وفي أرباحهم مراوغة واحتيال ، فكيف تلذ لهم الحياة إذ هي خلت من الشدة والقسوة ، وهم يرون الارتقاء في التفوق على الحيوانات افتراساً ومراوغة لأن الانسان في اعتقادهم أفضل حيوان كاسر .

لقد اقتبس الانسان صفات جميع الحيوانات، لذلك كانت حياته أوفر شدة عليه من حياة أية فئة منها ، ولكن الانسان لم يرتفع فوق الاطيار بعد، وويل له إذا هو تعلم الطيران أيضاً ، إذ لا نعلم إلى أي ارتفاع سيندفع بجشعه وحرصه .

٢٣

ان ما أريده للرجل وللمرأة هو أن يكون أهلاً للكفاح وأن يكون أهلاً للولادة وأن يكونا كلاهما أهلاً للرقص برأسيهما وأرجلهما .

لنعدّ كل يوم يمر بنا دون أن نرقص فيه ولو مرة واحدة يوماً مفقوداً ولنعتبر كل حقيقة لا تستدعي ولو قهقهة ضحك بياناً باطلاً .

٢٤

انتبهوا لكل زواج تعقدونه واحذروا العقود الفاسدة لأنكم إذا تسرعتم بها لا تجنون غير حلها . على ان فسخ الزواج خير من تحمله بالمصانعة والمخادعة .

قالت لي المرأة :

« ما حطمت قيود زواجي حتى حطمت هذه القيود حياتي » .

ما رأيت زوجين لا تكافؤ بينهما إلا وتبينت فيهما عاطفة الانتقام إذ يتحول نفور كل منهما عداء للناس وقد امتنع عليه أن يسير طليقاً وحده .

لذلك وجب على أهل الاخلاص أن يثقوا بصدق ما يشعرون به وان يوجهوا قواهم للاحتفاظ بعواطفهم كيلا ينخدعون بما يعاهدون عليه. وليطالبوا بالاتحاد إلى حين ليثقوا من امكان اتحادهم إلى أمد طويل ، فليس من هيّنات الأمور أن يجتمع اثنان إلى مدى العمر .

ذلك ما أوصي به المخلصين لأنني ان قلت بغير هذه الوصية قدمت محبتي للانسان المتفوق ولكل ما أتوقه لآتي الزمان .

ليس ما فُرض عليكم أن تتناسلوا وتتكاثروا فحسب بل عليكم أن ترتقوا أيضاً ، فلتكن جنة الزواج مدخلكم إلى المترقى .

٢٥

ليس إلا لمن اختبر حادثات الزمان القديم أن يدرك في الينابيع العتيدة ما سيندفق منها من حادثات لمستقبل الازمان .

لن يطول الزمن ، أيها الاخوة ، حتى تنشأ شعوب جديدة وتبدأ ينابيع جديدة بالهدير في مجاهل الاغوار .

تزلزل الارض زلزالها فتكرع المياه الدافقة فيكثر عدد الظامئين ، ولكنها في الوقت نفسه تقذف من باطنها الى النور بالقوى الخفية وبكثير من الاسرار ، وهنالك زلازل تفجر من الاعماق على الارض ينابيع جديدة فاذا ما انخسفت البسيطة بالشعوب القديمة تدفقت تلك الينابيع .

في ذلك الحين اذا ما وقف رجل يدعو الناس هاتفاً : تعالوا ! ههنا عين

تروي كثيراً من العطاش فتشدد القلوب الواهية وتخلق العزم فيمن فقدوا إرادتهم ، يهرع الشعب اليه طالباً أن يجرب وما يطمح الناس في تجاربهم إلا الى التمييز بين من له أن يأمر ومن عليه أن يطيع ، ولكم ستقضي هذ المحاولة من تفتيش واستقراء ومشاورة واختبار !

ان ما يرسو عليه المجتمع الانساني انما هو المحاولات لا النظام المبرم بالعقود ، هذا ما أعلّمه أنا ، وما هدف هذه المحولات إلا وجود من يحسن الحكم .

فاعرضوا يا اخوتي عن كل قول آخر مصدره القلوب الحائرة والافكار العاجزة عن وجود الطرق الحاسمة .

٢٦

أين يكمن الخطر الأعظم المهدد لمستقبل الانسانية ، يا اخوتي

في نفوس أهل الصلاح والعدل ، وهم القائلون في نفوسهم « اننا نعرف ما هو صلاح وعدل وهو كائن فينا فويل لمن يريدون أن يوجهوا أبحاثهم اليه » .

ان ما يرتكبه الاشرار من المتآتي لا يوازي بضرره ما يرتكبه الاخيار فان وطأتهم لأشد على العالم من وطأة المفترين عليه .

أي اخوتي ، لقد تطلع يوماً أحد الناس إلى قلوب أهل الصلاح والعدل قائلاً : « هؤلاء هم الفريسيون » فما فهم أحد قوله وما كان الصالحون العادلون ليفهموه أيضاً لأن عقلهم سجين في ضميرهم . ان حماقة الصالحين حكمة لا يدرك كنهها أحد . ولكن لا مفر من وصفهم بالفريسيين ، وقد قضي عليهم أن يصلبوا كل من يبتدع لنفسه فضيلتها . تلك هي الحقيقة لا سرية فيها .

لقد جاء رجل آخر فاكتشف مواطن الصالحين والعادلين وما خفيت عنه أرضهم ولا قلوبهم فأورد سؤاله وأجاب عليه :

أي انسان يصب عليه هؤلاء الناس أشد كرههم ؟

– انهم لا يكرهون أحـــداً كرههم للمبدع ، لأنه في نظرهم المجرم الهدام لتحطيمه ألواح الوصايا القديمة .

ذلك لأن أهل الصلاح عاجزون عن الابداع ، ومـا هم إلا بداية النهاية ، فلا بـــد إذا صلبوا من يحفر وصايا جديدة على ألواح جديدة ، وإذا ضحوا المستقبل لأنفسهم ، والمستقبل للعالمين أجمعين .

هل كان أهل الصلاح في كل حقبة من حقب الزمان إلا بداية النهاية [١] ؟

٢٧

أفهمتم يا اخوتي هذه الكلمة وما قلته لكم أولاً عن الانسان الأخير ؟

أفما اتضح لكم ان الخطر الأكبر المهدد مستقبل الانسانية انما هو كامن في مبادىء أهل الصلاح وأهل العدل ؟

هيا ! حطموا الصالحين والعادلين .

وعساكم تدركون معنى هذه الكلمة أيضاً .

٢٨

أراكم تذهبون بدداً من حولي ، أراكم ترتعشون فكأن كلمتي هذه ادخلت الرعب الى قلوبكم .

اي اخوتي ، انني مـا دفعت بسفينة الانسان نحو الغمر إلا عندما أهبت بكم إلى تحطيم الالواح واسقاط الصالحين ، وها ان الرعب الاعظم يستولي على

(١) ما لصاحبنا نيتشه يعترف بتمرد عيسى على شر من يدعوهم أهـل الصلاح والعدل ، وما له يباهي باقتفاء أثر هذا السامي الضعيف ؟ على ان عيسى ما جاء ناقضاً بل مكملاً ومـا جاء محطماً للوحي الوصايا ولا مبتدعاً فضيلة لنفسه على مـا يقصد نيتشه بل رفع منار فضيلة يهتدي بها الناس أجمعون .

من دفعتُ الى اجتياز الغمر فقد غارت عيناه وحكمه دوار البحار .

لقد أراكم أهل الصلاح وجهات الامور الخادعة وعللوكم بحالات أمن كاذب ، وكنتم واجهتم أكاذيبهم وأنتم أطفال فما انقطعتم عن الالتجاء اليها .

لقد شوهوا كل شيء وأفسدوه حتى في أصوله .

ولكن من اكتشف الانسان لم يفته اكتشاف مستقبل الانسانية ، فكونوا لي أيها الاخوة البحارة الشجعان الجالدين وهيا بنا الى الامام نشق عباب البحر مقتحمين أمواجـــه الصاخبة . تعلموا السير على الوجهة المستقيمة فان كثيرين يحتاجون الى الاقتداء بكم .

البحر هائج وفي البحر كل شيء فإلى الامام أيتها العزائم ، عزائم البحارة القدماء .

ما يهمنا ما يدور بنا ، اننا نشرع الشراع قاصدين وطن أبنائنا مـا وراء الغمر حيث ترغي وتزبد أشواقنا الهائجات .

٢٩

قال الفحم يوماً للماس : من أين لك هذه الصلابة ؟ أفما نحن نسيبان ؟

وأنا أقول لكم — أفما أنتم اخوتي ، فمن أين جاءكم هذا الخور ؟

لِم هذه الليونة ؟ لِم هذا الميعان ؟ أين توكيد الذات في قلبكم وأين غارت سطور مقدراتكم فلا تلوح في أحداقكم .

اذا أنتم أطرحتم العزم الحاسم فكيف تتوقعون الظفر يوماً الى جانبي؟وكيف يتسنى لكم أن تشاركوني بالابداع اذا لم يكن لعزمكم لمعان الجراز ومضاؤه ؟

هل يكون المبدع إلا صلباً شديداً؟وهل من غبطة لكم أعظم من أن تطبعوا يدكم على صفحات القرون فترتسم عليها كارتسامها على قطعة من الشمس ؟

انها لأعظم غبطة أن يكتب الانسان على ارادة ألوف الاجيال والاجيال من الصلب وأسمى شرفاً ، لأن أصلب الاشياء أشرفها .

انني اعلق فوق رؤوسكم لوح هذه الوصية :

اتصفوا بالصلابة وتشددوا .

٣٠

اي ارادتي ، لقد آن لنا أن نضع حداً لكل الصغائر ، وما لي من مطلب سواك لأنك وحدك سؤالي ومقصدي ، انقذيني من كل انتصار حقير .

وأنت أيتها الصدفة التي أدعوهـــا مقدراتي ، أنت القائمة في ذاتي فوق ذاتي ، احفظيني وأعدي للعظائم نفسي .

احتفظي أيتها الأرادة للخاتمة بآخر عظمة فيك ، كيلا يهي عزمك عنـد نيلك الظفر ، لأن ليس من أحد لا يسقط عندما يبلغ الانتصار .

وا أسفاه ! أية عـين لم يعشها الظلّام في سكرة الظفر ، سكرة الغسق ؟ وا أسفاه ؟ أية قدم لم تتعثر ولم تتحول عن مسلكها ساعة الانتصار ؟

إنني أعد نفسي لأكون ناضجاً للظهيرة العظمى ، فألقاها صلباً ألانته النار للانطباع ، وغمامة تتمخض بالبروق وضرعاً يتفجر بدرّه .

اريد أن اهيىء ذاتي وصميم ارادتي فأصبح كالقوس ألتوي شوقاً لاحتضان سهمه وكالسهم يطير شوقاً نحو كوكبه .

اريد أن أكون الكوكب المتألق بأنواره في الظهيرة العظمى ، وقد هزته الغبطة والسهم السماوي يخترقه ليفنيه .

اريد أن أتحول شمساً وإرادة شمس لا تتزعزع ، فأكون مهيأ للاندثار في أفق الأنتصار .

هذا ما أطمح اليه فلنضع حداً يا إرادتي لكل الصغائر ، أنت مقصدي ، فاحفظيني للظفر الأعظم .

١

وما كانت مضت أيام طويلة على عودة زارا واستقراره في غاره، حتى هب يوماً رقاده كالفاقد الرشد وأخذ يصيح ويعربد مشيراً الى مرقده كأن عليه شخصاً غريباً يحـاول طرده ، وساد القلق حيواني زارا فدارا حوله وحكم جميع الحيوانات الاخرى فاذا هي تدب وتزحف وتطير هاربة الى بعيد .

وبقي زارا في موقفه قائلاً :

هيا ! انهضي أيتها الفكرة الرائعة المنبثقة من أعماق ذاتي . لقد كنت لك فجراً وأعلنت انجلاءك كالديك الصـائح ، وأنت لا تزالين منطرحة كالتنين . افتحي أذنيك واسمعي ، لأنني أريد أن تطلقي صوتك أنت . انهضي فان هنا من الصواعق ما يعلّم حتى القبور أن تصيخ سمعاً .

افركي أجفانك واسمعي بعينيك ما أقول لك ، فإن صوتي يهب النظرحتى لمن ولدوا عمياناً ، فإذا ما انتبهت مرة فلن يعاودك الرقاد لأنني مـا تعودت إيقاظ الجدود الأقدمين لأسمح لهم بالرجوع الى نومهم العميق .

أراك تتحركين وتتثاءبين ، فانهضي وتكلمي ، إن زارا يدعوك ، إن من يهيب بك للنهوض إنما هو الكافر زارا .

أنا هو زارا مؤكد الحياة ، مؤكد الألم ، مؤكد الدائرة الأبدية ، أدعوك يا أعمق فكرة بين أفكاري .

يا لابتهاجي ! انني أزال قادمة فها أنذا أسمع صوت هاويتي . لقد نفضت نحو النور آخر أغواري .

يا لسروري ! تقدمي إلي ... هاتي يدك .

لا .. لا .. أرجعيها ... يا للكراهة ... ويا لشقائي !

٢

ومانطق زارا بهذه الكلمات حتى سقط على الأرض كالميت وطالت غيبوبته، حتى إذا ثاب إليه روعه حكمه ارتعاش شديد وشحب وجهه وانطرح سبعة أيام ولكن نسره كان يذهب في طلب الغذاء ويعود حتى كدس أنواع البقول والفاكهة حول المرقـد وطرح أمامه نعجتين اختطفهما بكل عناء من القطعان السارحة وقد نام عنها رعاتها .

وبعد سبعة أيام جلس زارا على مرقده وأخذ تفاحة جعل ينشق نكهتهـا فخيل لحيوانيه أن الزمن قد حان ، فقالا له :

لقد مرت سبعة أيام يا زارا وأنت مثقل الأجفان، أفما آن لك أن تنهض، اخرج من غـــارك فإن كل شيء يتشوق اليك ، فالهواء يهب بالعطور نحوك والغدران تتسارع الى لقياك ، وكل شيء يتوق الى معالجتك وشفائك .

هل أتاك يقين جديد فأرهقك بثقله وفعلت خميرته فعلها فيك ، فقد رأيناك ساكناً كالعجين المنتفخ باختباره وشعرنا بروحك تتدفق من جبينك .

فأجاب زارا : إذهبا في ثرثرتكما ، يا حيوانيّ ، ودعـــاني اشدد عزمي بالاصغاء الى هذه الروح . إن الثرثرة لتبسط العالم كله أمامي كحديقة مترامية الأطراف .

إن العذوبة كلها كامنة في الكلمات والأصوات فما هي إلا جسور من الوهم ممدودة بين الكائنات المنفصلة الى الأبد .

لكل نفس عالمها فهي تجد في كل نفس أخرى عالماً آخر . وكلما ازداد التشابه بين الأشياء ازداد خداع السراب بينها. وأصعب المآزق اجتيازاً أضيقها.

إنني لا ادرك كيف يمكن أن يوجد شيء ليس فيّ أنـــا ، لأن نفي الذات ممتنـع ، غير أن جميع الأصوات تنسينا هذه الحقيقة وخير لنا أن نتمكن من نسيانها .

ما أعطيت الأسماء والأصوات إلا لتشديد عزم الانسان ، وهـل اللغة إلا جنون له لذته ؟ أفما الانسان يرقص بيانه على كل شيء ؟

ما ألذ الكلمات وما أحلى خداع الأصوات فإنها ترقص حبنا على جميع ما في قوس قزح من الألوان .

فأجاب الحيوانان قائلين : «أن من له عقليتنا يرى الأشياء متراقصة لنفسها لأن كل الأحياء تتقدم الى مسرح الوجود فتتصافح وتضحك وتنسحب ثم تعود.

الكل يذهب والكل يرجع وعجلة الكون تدور الى الأبد .

كل شيء يموت وكل شيء يعود فتتنور أزهاره ودوائر الوجود. لا انتهاء لها .

تتحطم الاشياء فتتبدد ثم تعود فتلتئم لتجديد بناء الوجود . يتفرق الشمل على وداع فإذا بعده تسليم ، فحلقة الكون أمينة لذاتها الى الأبد .

ان الوجود يبـــدأ في كل لحظة فعلى محور « هنا » تنفتح دوائر الاجواء « هنالك » فالمحور مرتكز في كل مكان وطريق الأبدية كله تعاريج » .

وعاد زارا إلى ابتسامته قائلا :

« يا لطيشكما ! تعلمان جيداً مـــا وجب أن يتم في سبعة أيام . ويا للمسخ الذي زحف الى داخـل عنقي ليكتم انفاسي ، غير إنني قضمت عنقه باسناني فقطعت رأسه ولفظته الى بعيد ، فأتيتما تعيدانه إلى نصابه .

أنا الآن متعب بما قضمت ولفظت ، ولا أزال مريضاً من اجهاضي .

لقد شهدتما كل هذا، فهل أردتم التلذذ بأشد أوجاعي اسوة بالناس؟والانسان اقسى حيوان في الوجود ، لأنه لا يجد ارتياحاً على الأرض إلا بمشاهدة المآسي ومصارعة الثيران والصلب وما تمتع بلذة الجنان على أرضه إلا يوم اخترع الجحيم.

إذا ما صرخ رجل عظيم سارع صغير إلى نجـدته والحسد يكاد يدلي لسانه من فمه ولكنه يسمي هذا الحسد رحمة واشفاقاً .

انظر إلى صغار الناس وأخص منهم الشعراء بأي بيان ملتهب يشكون الدهر وتصاريفه . وإذا مـــا اصغيت الى هذا الأنين الشاكي فلا يفوتنك أن تنصت لنبرات اللذة في كل شكوى .

ان الحياة تقول لمن يشكو وهي تتحكم فيه بغمزة من عينيها : انك عاشقي فانتظرني لحظة لأتفرّغ لك .

ما يقسو حيوان على نفسه قسوة لإنسان ، فإذا ما سمعت أنين من يدعون أنهم مرتكبو آثام وحملة صلبان وتائبون فتنصت إلى أنينهم وشكواهم تسمع فيها شهقات الشهوة المتلذذة .

وهل أقصد أنا الآن بمـا أقول أن أشكو الإنسان ؟ أي نسري وافعواني ، أن الشر الأعظم ضروري للخير الأعظم بين الناس، هذا مـا تعلمته وما تعلمت سواه حتى الآن .

أن الشر الأعظم لخير ما في قوة الإنسان لأنــه الحجر الأشد صلابة لنحت المبدع ، وعلى الإنسان أن يتكامل في خيره وفي شره .

لم أحمل على عاتقي صليباً لأذهب مفتشاً عما إذا كان الإنسان شريراً ، بـل وقفت هاتفاً بما لم يهتف سواي بمثله فقلت :

« يا للأسف! أن يكون أعظم شر في الإنسان وأعظم خير فيه لا يتجاوزان هذه الصغارة » .

ان هذا الاحتقار العظيم للنـــاس هو الثعبان الذي تغلغل في حلقي فكاد يخنقني كما كاد يخنقني أيضاً ما أنبأ به العرّاف إذ قال: كل الأشياء متساوية ولا شيء يستحق العناء ، فالمعرفة تخنق طلابها .

وهكذا رأيت الغسق ينسحب متمارجاً أمامي وسمعت صوتاً حزيناً متعباً كأنه نبرات سكران يراوده الموت يقول لي :

« سيعود دوراً فدوراً الى الأبد الانسان لذي يرهقك : الإنسان الصغير ».

ذلك كان حزني المتعارج غسقاً طال انسحابه فأورثني الأرق ورأيت أرض البشر تستحيل أمامي إلى مغارة اتسع صدرها ضامّاً اليه كل حيّ ، فلاح لي كل شيء ركام أقذار وأكوام عظام وردوم قرون .

ذهب زفيري يجول بين المدافن مترامياً على لحود الناس ملتصقاً بها وقد حكم عليه ألا يغادرها فبات هنالك منتحباً يشكو ويردد ليلا نهاراً :

« وا أسفاه ان الانسان سيعود ، سيعود الإنسان الصغير دوراً فدوراً الى الأبـــد » .

ولقد رأيت الناس من قبل ، رأيت كبيرهم وصغيرهم ، فما أشبه الأكبر بالأصغر فيهم ، فكلهم مستغرق في بشريته .

ما أصغر الأكبر بين الناس ! ويا للشقاء في أن يعود الصغار أبداً ! ان هذا ما يرهقني من الوجود .

واندفع زارا يردد قوله : يا للكراهة ... يا للكراهة ! يا للكراهة ! وهو وهو يتنهد ويرتعش متذكراً داءه وأوجاعه .

وقاطعه نسره وافعوانه قائلين :

– توقف عن الكلام، أيها الناقة، اخرج من هنا واذهب الى حيث تنتظرك الدنيا في حدائقها ، إلى الورود والنحل والحمام ، وقف عند أسراب الأطيـــار المترنمة لتتعلم أناشيدها . وما أجدر الناقهين بالانشاد ، فإن المتمتعين بالعـــافية يتكلمون لي منه الشفاء . افتريدان أن أعدل عن هذا أيضاً ؟

فصاح الحيوانان : انقطع عن الكلام ، أنسيت أنك ناقـــة ؟ أعدّ قيثارة جديدة لنفسك ، فما تجاري القيثارة القديمة إنشاداً جديداً .

أطلق اغنيتك ، يا زارا ، ولتذهب داوية كالعواصف ، اشف نفسك بهـــا لتنهض بما قُدّر لك وما قُدّر لأحدٍ قبلك .

ان حيوانيك يعرفان من أنت ، يا زارا ، وما ستكون ، فما أنت إلا النبي المعلن تكرار عودة الأشياء إلى الأبد. وهذا ما قدّر عليك القيام به منذ الآن أن تكون أول من ينشر هذا التعليم وكفاك بهذا العمل علةٍ واخطاراً .

ما غريب عنا تعليمك يا زارا ، فأنت تقول بأن جميع الاشيـاء تعود أبداً ونحن معهـا عائدون ، وبأننا وجدنا من قبل مراراً لا عداد لها ومعنا جميـع الاشياء أيضاً .

أنت تقول بالسنة العظمى المتكررة وهي كالساعة الرملية تنقلب كلما فرغ أعلاها ليعود ادناها الى الانصباب مجدداً ، وهكذا تتشابه السنوات كلها باجمالها وتفصيلها كما نعود نحن مشابهين لأنفسنا اجمالاً وتفصيلاً في هذه السنة العظمى .

اذا ما شئت أن تموت الآن يا زارا ، فاننا نعـلم ما ستناجي به نفسك ، ولكن نسرك وافعوانك يرجوانك ألا تضع حداً لحياتك الآن .

اذا أنت عزمت على الرحيـل ، فانك لتدفع بزفرة الارتياح لا بأنين الألم إذ تطرح عن عاتقك وأنت الصلب الجلود وفرك الثقيـل وكربتك المضنية ، قائلاً : ها انذا أموت وأتوارى وعمـا قليل أصبح عدماً فان الأرواح تفنى كما تفنى الجسوم غير ان شبكة العلل الدائرة بي ستعود يوماً فتخلقني مجدداً فما أنا إلا جزء من علل العودة الابدية لكل شيء !

سأعود بعودة هذه الشمس وهذه الارض ومعي هذا النسر وهذا الافعوان ، سأعود لا لحياة جديدة ولا لحيـاة أفضل ولا لحياة مشابهة بل انني سأعود أبداً إلى هذه الحياة بعينها اجمالاً وتفصيلاً فأقول أيضاً بعودة جميع الاشياء تكراراً وأبداً ، وابشر أيضاً بظهيرة الارض والناس وبقدوم الانسان المتفوق .

هذه هي كلمتي نطقت بها وقد حطمتني هذه الكلمة ؛ ذلك مـا قدر عليّ أبداً ، فأنا أتوارى منذراً وبشيراً .

لقد حانت الساعة الآن ، الساعة التي يبـارك فيهـا نفسه من يتوارى .

وهكذا ينتهي جنوح زارا إلى المغيب .

قال النسر والافعوان هـذا وتوقعا أن يجيبهما زارا بشيء ، ولكن زارا لم يعلم ان حيوانيه سكتا عن الكلام لأنه كان قد استغرق في مناجاة نفسه فظهر كأنه نائم وما كان نائماً .

ووجم النسر والافعوان أمام سكون زارا وذهبا على مهل من قربه .

الامنية العظمى

أي نفسي ! لقد علمتك أن تقولي كلمة « اليوم » كما تتلفظين بكلمتي « امس وما قبله » وان ترقصي دون كل مندثر أينما كان .

أي نفسي ! لقد حررتك من كل قيد خفي وطهرتك من الأدران واقصيت عنك العناكب وكل نور يخالطه ظلام .

أي نفسي ! لقد نفضت عنك صغـائر حياتك وكمينات فضائلك وأقنعتك بالخروج عارية أمام عين الشمس .

لقد نفخت عاصفة الفكر على بحرك المضطرب وجلوت الغيوم السوداء من آفاقك وفضيت فيك الاثم القاتل .

اي نفسي ! لقد اوليتـك الحق بأن تقولي « لا » كما تقول العاصفة وان تقولي « نعم » كما تقـول صافيات الآفاق ، فأصبحت هادئة كالنور يجتـاز العواصف النافيات المانعات .

اي نفسي ! لقد اطلقت لك الحرية تتسلطين بها على ما هو كائن وعلى ما لم يتكون بعد ، فما شعرت نفس بمثل ما تشعرين من آتي الزمان .

اي نفسي ! لقـــد علمتك أن تحتقري احتقاراً لا ينخر كالسوس . علمتك الاحتقار الذاهب إلى أقصى المحبة أو إلى أقصى التحقير .

اي نفسي ! لقد علمتك الاقناع حتى خضعت الاسبابُ والمقدمات لما ترتأين فأصبحت كالشمس تقنع البحار بأن تتعالى الى مدارها .

اي نفسي ! لقد نزعت منك كل خضوع وخنوع ومتابعة واستعباد حتى رأيتك سائدة لكل شقاء ومتحكمة في الدهر لأنك أنت هي المقدور .

أي نفسي ! لقد منحتك أسماء جديدة ومتعتك بألعاب متنوعة فدعوتك المقدور ومحيط المحيط وقطب الزمان ومأذنة الآفاق .

أي نفسي ! لقد أغدقت الحكمة كلها على مملكتك الأرضية وأترعت كؤوسها بخمرة المعرفة المعتقة منذ أقدم العصور .

أي نفسي ! لقد غمرتك بجميع الانوار والظلمات وكل ما في الكون من سكنات وشهوات ، فرأيتك تنمين أمامي كما تنمو الجفنة في الكروم .

اي نفسي! ما أنت الآن إلا دالية في الكرمة اثقلك جنيك ونهدت اثداؤك عناقيد يلوّح سمرتها النضار . لقد ارهقتك السعادة الكامنة فيك فأنت صابرة خجولة من صبرك .

اي نفسي ! ليس في الكون من نفس أشد منك حباً ورحابة وحناناً ، فأين يتقارب الماضي والمستقبل ان لم يتقاربا في مجالك ؟

اي نفسي ! لقد وهبتك كل ما ملكت يدي والآن أراك تبتسمين قائلة : على أي من كلينا حقت كلمة الشكران ؟

أفليس على الواهب أن يشكر من تفضل بقبول هبته ؟ وهل العطاء إلا حاجة في نفس من اعطوا والأخذ إلا اشفاق في نفس الآخذين ؟

أي نفسي ! انني أدرك مغزى ابتسامتك ومعنى شجونك ، فأنت الآن في راحات اقبالك مترعة بشهوة العطاء ، وتمدين أبصارك على البحار المزبدة وقد ابتسم في عينيك صفاء السماء .

من له أن يرد دموعه عن الفيضان ، إذا لاحت له ابتسامتك يا نفسي ؟ ان ما في هذه البسمة من العطف والحنان ليستهوي الملائكة للبكاء .

ان عطفك وقد تجاوز حده يمتنع عن النواح والعويل في حين ان ابتسامتك تتشوق إلى البكاء وتحرك يتهدج بالنحيب .

انك تتناجين قائلة : ان كل دمعة فيها انين وفي كل انين شكاية — ولذلك تفضلين الابتسام على الجهر بما تتحملين من خيراتك، ومن شوق يهز جوارحك بارتعاش للكرمة تتوق الى مقاطع القاطفين .

فاذا ما كنت تمتنعين عن البكاء ، يا نفسي ؛ مغضية باجفانك الحمراء ، فعليك أن ترفعي صوتك بالانشاد .

انظري إلي في ابتسامي وأنا منبئك بأنك ستطلقين أناشيدك بصوت مرعد يحمل البحار تتنصت لنبرات شهوتك ، إلى أن تسبح عليه العائمة المذهبة والحلاة بكل ما هو حسن في روغانه وغرابته ، حيث ينتصب السيد المجمّل بالعزم وفي يده المقطع الماسي لعناقيد الكروم ، ذلك هو مخلصك ومحررك يا نفسي ، لانه هو الكريم الذي اضمر اسمه في اناشيد المستقبل ، والحق ان في أنفاسك شيئاً من اريج هذه الاناشيد . فأنت الآن مستسلمة للأحلام تنقعين غليلك من الآبار حيث يدوي السكون وتلقين باشجانك الى أناشيد آتي الزمان لتجدي فيها الراحة من العناء .

اي نفسي ! لقد وهبتك كل شيء حتى فرغت يداي ، وآخر ما وهبتك اهابتي بك للانشاد ، فقولي لي الآن من منا وجبت عليه كلمة الشكر .

تغني يا نفسي ، اطلقي أناشيدك من أجلي ودعيني أوجه اليك آيات شكراني.

هكذا تكلم زارا ...

نشيد آخر للرقص

١

ارسلت نظراتي الى اعماق عينيك الساهدتين ، ايتها الحياة ، فوقف نبضان قلبي إذ رأيت الذهب متوهجاً فيها ورأيت مركباً ذهبياً يشع على بحر الظلام يشد بمهد مذهب مشرف على الغرق .

ورشقت قدميّ المصابتين بجنون الرقص بنظرة مسكرة مذيبة ضاحكة مستفهمة ، وما قرعت يداك الصغيرتان ضربتين على دفّك حتى تحفزت قدماي للوثوب وتنصت عقب كل منهما لأوزانك ، واذن كل راقص مفتوحة في عقب قدمه .

وثبتُ اليك ، ايتها الحياة ، ولكنك تراجعت عني وتوليت فاذا بغدائر شعرك المتطاير تسمعني فحيح الافاعي وتريني من السنتها نصالاً .

قفزت متراجعاً عنك وعن افاعيك ، فاذا بك متعالية تتحولين مقبلة علي وقد تدفقت بالشهوات عيناك ، مشيرتين إلي بنظراتها المنحرفة ان اتبع السبل الملتوية ، وهكذا تعلمت قدماي المراوغة على منعرجات الطريق .

انني اخشاك قريبة وأحبك بعيدة ، ايتها الحياة ، فيجزبني اعراضك عني ويوقفني اقبالك نحوي ، فأنا معذب بك وأي عذاب لا احمله من اجلك ، انت المحرقة ببردك ، الساحرة بكيدك ، الجاذبة بادبارك ، المجيرة بسخريتك .

أي انسان لا يكرهك ، أيتها الآسرة الغامرة الساحرة التي لا يفوتها مقصد تتجه اليه ، ومن لا يحبك وأنت البريئة الرعناء المسارعة إلى المعصية والاثم وفي عينيك لفتات الاطفال ؟

الى أين تقودينني الآن أيتها الطفلة المهذبة الشاردة ؟ أراك تفرين من أمامي

حلوة طائشة أيتها الجاحدة الفتية . وها انذا اتبعك راقصاً حتى إلى المآزق التي لا أعرف لها منفذاً .

أين أنت ؟ مدي الي يدك او اصبعاً من كفك . فليس امامي إلا مغاور ومضائق . قفي .. افلا ترين البوم والوطاويط تتطاير حولنا ؟

مهلاً يا طير الظلام ، أفأنت ساخر بي ؟ أين نحن الآن ؟ لقد تعلمت من الكلاب نباحها فأراك تكشر عن أسنانك الصغيرة وتحدجني بنظراتك المتقدة من وراء لبدتك الصغيرة الجعداء .

أية رقصة تريد أن أرقص ، اجبلية أم بحرية ؟ أنا هو الصياد ، أفما يحلو لك أن تكون كلبي أم تفضل أن تكون طريدتي .

أنت هذا الطير أيتها الحياة ، فتعالي الى جنبي الآن أيتها القفازة الشريرة : ارتفعي وسيري إلى الجهة الاخرى .

ويلي لقد قفزت فوقعت ، فانظري إليّ طريحاً يتوسل اليك ، أفما كان خيراً لي أن اتبعك على مسالك اجمل من هذه ، من مسالك الحب بين الشجيرات الزاهية بعديد ألوانها أو على شاطىء البحيرة حيث تتراقص الاسماك المذهبة ؟

لقد أضناك التعب الآن وهنالك خرفان ترعى عند الغروب ، أفلا يلذ لك أن نرقد حيث تصدو شبابة الراعي ؟

انني سأحملك إلى هناك مدي معصميك إلي . لعلك عطشى ولقد أجد ما أروي به ظمأك ولكن شفتيك تتحولان عن كل شراب .

لقد انقلبتْ أفعى ، هذه الساحرة الرشيقة الوثابة الزاحفة ، فلا أدري في أي الأوكار تغلغلت ، بعد ان صفعت وجهي وأبقت عليه طابع يدها الحمراء .

لقد تعبت من رعايتك والسير وراءك ، أيتها الساحرة ، لقد اسمعتك اغانيّ حتى الآن فلسوف تسمعينني صراخك ، هيا : ارقصي على نقرات سوطي ألهبك به ، فانني ما نسيت سوطي .

٢

وسدت الحياة أذنيها وأجابتني قائلة :

« لا تقعقع بسوطك ، يا زارا ، فأنت تعلم ان الضجة تشل التفكير وقد بدأت تتوارد على الخواطر ، فما أنت وأنا إلا من زمرة المتكاسلين ، لقد وجدنا جزيرتنا ومروجنا الخضراء ما وراء الخير والشر ، وما اكتشفها معنا احد ، لذلك وجب علينا ان يحب احدنا الآخر . وهب ان حبنا لا يخرج من صميم القلب ، أفيحق لنا ان نتبادل من اجل هذا عاطفة النفور ؟

انت تعلم انني كثيراً ما احبك واتجاوز الحد في حبك وما ذلك إلا لغيرتي من حكمتك، فيا ويلاه من هذه الحكمة المجنونة الهرمة ! ولكن اذا ما هجرتك هذه الحكمة يوماً فلا يطول الزمن حتى تهجرك محبتي ايضاً » .

وأدارت الحياة أنظارها ما وراءها وما حولها وقالت : لست بالأمين الوفي يا زارا ، فمحبتك أبعد من أن تصل إلى الحد الذي تصف باقوالك . وأنا اعلم انك تفكر في هجري عما قليل .

ان على المرتفع جرساً ضخماً قديماً يدق ساعات الظلام فيصل رنينه إلى اعماق غارك ، وعندما يؤذن بانتصاف الليل يخطر لك أن تغادري في مدى الساعة الأولى من الهزيع الثاني . انني اعلم ذلك يا زارا فأنت مصمم على هجراني .

فأجبت متردداً : أجل ، ولكنك تعرفين أمراً آخر . وتقدمت أسر في أذنها كلمة اخرى بين غدائر شعرها الذهبية المتطايرة ، فقالت :

« إذاً أنت تعرف هذا يا زارا ! وليس من يعرفه سواك »

وتراشقنا اللحظات وعدنا نسرحها على المروج الخضراء وقد دغدغها نسيم المساء البليل وانخرطنا كلانا بالبكاء . وعندئذ شعرت ان الحياة أعز عليّ من حكمتي .

هكذا تكلم زارا ...

١ – كن على حذر أيها الانسان .

٢ – ماذا يقول نصف الليل في غروره ؟

٣ – لقد نمتُ ، لقد نمتُ

٤ – ثم افقت من حلم عميق

٥ – ان العالم عميقٌ

٦ – « فهو أعمق مما يعتقد النهار

٧ – « وآلامه عميقة

٨ – « وأعمق من أحزانه وأفراحه

٩ – « تقول الآلام للعالم اعبر وانقض

١٠ – « ولكن الافراح تطلب الأبدية

١١ – « تطلب الأبدية العميقة

١٢ – « ! !

الاختتام السبعة

او

نشيد البداية والنهاية ، الالف والباء

١

أنا العرّاف الممتلىء بالروح الكاشفة الذاهبة صعداً على السلسلة المتعالية بين بحرين ، السائر بين ما مضى وما سيأتي كغمامة كثيفة متملصة من جميع الأعماق الخانقة والمعادية لكل متعب ليس له أن يحيا وليس له أن يموت .

أنا تلك الغمامة المعدة صدرها المظلم للمعات الانوار المنقذة ، المتمخضة بالبروق المثبتة الضاحكة مما تثبت ، أنا الغمامة الحاملة للصواعق الكاشفة ، ويا لسعد من تمخض بمثل هـذه الصواعق ! ولكنه ملزم بأن يلتصق طويلاً بالذروة كما تلتصق الغمامة المثقلة ، إذ عليه أن يشعل يوماً أنوار مستقبل الزمان .

كيف لا أحن إلى الأبدية وكيف لا اضطرم شوقاً إلى خاتم الزواج ، إلى دائرة الدوائر حيث يصبح الانتهاء عودة الى الابتداء ؟

انني لم أجد حتى اليوم امرأة أريدها أماً لأبنائي إلا المرأة التي احبها ، لأنني احبك أيتها الأبدية .

انني احبك أيتها الأبدية .

٢

إذا كنت تهجمت بغضبي على القبور فانتهكت حرمتها ونبذت قصياً معالم

الحدود وألقيت بألواح الشرائع فحطمتها على مهاوي الاغوار .

•

واذا كنت بسخريتي نثرت الكلمات المتداعية وهببت كالريح أكسح نسيج العناكب وأطهر مغاور الموت المتعفنة القديمة .

وإذا كنت جلست مرحاً مسروراً حيث دفنت آلهة الأزمان المنصرمة لأبارك العالم وأغمره بالحب قرب انصاب من افتروا عليه – فما ذلك إلا لأنني أتوق إلى رؤية المعابد ومدافن الآلهة عندما تخترق عين السماء الصافية قبابها المحطمة ، فأجلس على الركام المتهدمة كالعشب الأخضر والشقائق الحمراء .

فكيف لا أحنّ إلى الابدية ولا أضطرم شوقاً إلى خاتم الزواج ، إلى دائرة الدوائر حيث يصبح الانتهاء عودة الابتداء ؟

انني لم أجد حتى اليوم امرأة أريدها أماً لأبنائي إلا المرأة التي احبها ، لأنني أحبك أيتها الأبدية .

انني احبك أيتها الأبدية .

٣

إذا كانت هبت عليّ نسمةٌ من نسمات الابـداع الإلهية التي تُكره حتى الصدف العمياء على الدوران راقصة كتراقص الكواكب في الافلاك .

إذا كنت ضحكت بقهقهة البرق المبدع يصحبه إرعاد العمل .

وإذا كنت تراشقت الزهر مع الآلهة على نرد الأرض حتى ارتجفت الأرض وتشققت قاذفةً لهاث النار في الاجواء – فما ذلك إلا لأن الارض نرد إلهي يرتعش لوقع الكلمات المبدعة الجديدة ولتساقط الازهار الالهية .

فكيف لا أحن إلى الابدية ولا أضطرم شوقاً إلى خاتم الزواج ، إلى دائرة

الدوائر حيث يصبح الانتهاء عودةً إلى الابتداء ؟

إنني لم أجـد حتى اليوم امرأة أريدها أماً لأبنائي إلا المرأة التي احبها ، لأنني احبك أيتها الأبدية .

٤

إذا كنت كرعت في هـذا الكأس من دواء تمازجت جميع العقاقير فيه ، وإذا كنت مددت يديّ فضممت الأبعد إلى الأدنى وجمعت بين النار والتفكير وبين المسرات والأحزان مازجاً اقبح الأشياء باحسنها .

وإذا كنت أنا ذرّة مفتدية في بحر الرمال أعمل على مزج الأشياء في كأس العقاقير — فما ذلك إلا لأن في الوجود ملحاً يلتحم به الخير مع الشر وما الشر إلا أحد التوابل التي تزيد الكأس فترغي طفاحاً .

فكيف لا أحن إلى الأبدية ، ولا اضطرم شوقاً إلى خاتم الزواج ، إلى دائرة الدوائر حيث يصبح الانتهاء عودةً إلى الابتداء ؟

انني لم أجد حتى اليوم امرأة أريدها أمـاً لأبنائي إلا المرأة التي احبها ، لأنني احبك أيتها الأبدية .

انني احبك أيتها الأبدية .

٥

إذا كنت احببت البحر وكل ما يشبه البحر ، وما اشتد هيامي به إلا عند مقاومته لي بزوابعه ، وإذا كنت أحمل في نفسي غبطة المستكشف ، الغبطة التي تدفع بالشراع إلى المجاهل وتملأ رواد البحر حبوراً ، وإذا كنت قد صرخت في حبوري ان قـد توارت أواخر الشواطىء عن عياني ، فتحطمت بتواريها آخر حلقة من قيودي . فها أنذا الآن في وسط المدى الفسيح الصاخب بعيداً عن توالي الامكنة والأزمان ، فهيا بنا ، يا قلبي الهرم ، الى الامام !

اواه ! كيف لا اتوق الى الابدية وأضطرم شوقاً الى خـــاتم الزواج ، الى دائرة الدوائر حيث يصبح الانتهاء عودة الى الابتداء ؟

انني لم أجد حتى اليوم امرأة اريدها أمـاً لأبنائي الا المرأة التي احبها ، لأنني احبك أيتها الابدية .

انني احبك أيتها الابدية .

٦

اذا ما كانت فضيلتي فضيلة الراقصين، واذا كنت كثيراً ما رقصتُ مأخوذاً باشعاع الزمرد والنضار ، وإذا كان شرّي شراً ضاحكاً يأنس الى حقـــول الزنابق وأغصان الورود ، فذلك لأن كل مـــا هو شرير يتحد بالضحك ولكنه يتحد مبرراً ومحرراً بغبطته نفسها .

ان الالف والياء عندي همـــا أن تتحول كل كثافة إلى لطافة فيصبح كل ثقيل خفيفاً وكل جسم راقصاً وكل فكر طائراً . والحق ان في هذا كل بداية وكل نهاية .

فكيف لا أتوق الى الابدية واضطرم شوقاً الى خـــاتم الزواج ، الى دائرة الدوائر حيث يصبح الانتهاء ابتداء ؟

انني لم أجد حتى اليوم امرأة أريدها أمـــاً لأبنائي إلا المرأة التي احبها ، لأنني احبك أيتها الابدية .

انني احبك أيتها الأبدية .

واذا ما كنت بسطت فوقي سماوات يسودها السكون وأطلقت جناحيّ في مجالات سماواتي ، واذا ما كنت سبحت في أعماق مدى الأنوار فملكت حكمة الطيور في حريتي ، فمـا ذلك الا لأن حكمة الطيور تقول : « ليس في الكون

فوق ولا تحت ، ألقِ بنفسك هنـا أو هناك ، اذهب الى الامام وأتراجع الى الوراء ما دمت خفيفاً . أطلق صوتك بالتغريد ولا تتكلم بعد . أفليس التكلم شيمة أهل الكثافة والثقل ، وهل يتصاعد كل قول الا نحو الخفيف اللطيف ؟ غرد ولا تتكلم بعد » .

أواه ! كيف لا أحن الى الابدية واضطرم شوقاً الى خـاتم الزواج ، الى دائرة الدوائر حيث يصبح الانتهاء ابتداء ؟

انني لم أجد حتى اليوم امرأة أريدها أمـاً لأبنائي الا المرأة التي احبها ، لأنني احبك أيتها الأبدية .

انني احبك أيتها الابدية !..

* * *

الجزء الرابع

« أين تجلى الجنون في الارض بأشدّ مما
« تجلى بين المشفقين ؟ بل أي ضرر لحق
« بالناس أشد من الضرر الناشيء عن
« جنون الرحماء ؟ ويلٌ لكل محب ليس
« في محبته ربوة لا يبلغها اشفاق الرحماء .

« قال لي الشيطان يوماً : ان للرب
« جحيماً وهو جحيم محبة للناس وقد
« سمعت هذا الشيطان يقول أخيراً : لقد
« مات الاله وما أماته غير رحمته » .

زرادشت

الرحماء – الجزء الثاني صفحة ١١٣

تقدمة العسل

وكرّت الاشهر وتوالت السنون على زارا وهو لا يشعر بها ، مع انها جللت بالبياض ناصيته وفوديه .

وجلس زارا يوماً على حجر أمام غاره وأرسل نظراته إلى بعيد ترود تعاريج الاودية وقد ظهر شيء من افق البحر عند منتهاها السحيق . وبينما هو مستغرق في تفكيره دار حوله نسره وافعوانه ثم مثلا أمامه قائلين له :

— علامَ ترسل نظراتك ، يا زارا ، أتراك تفتش عن سعادتك ؟

فأجاب مالي والسعادة ، لقد انقضى الزمان الذي كنت أتوقع السعادة فيه فما اتشوق الآن الا الى أعمالي .

فقال الحيوانات : انك كمن تتغلغل الخير فيه ، أفما انت عائم على بحيرة من السعادة ينعكس على صفحتها اديم السماء ؟

فأجاب زارا وهو يبتسم : لقد أجدتما التشبيه ولكنكما تعلمان أيضاً ان سعادتي ثقيلة ولا شبه بينها وبين الامـواج هجوماً وتراجعاً ، فهي تزحمني ولا تبتعد عني وتلتصق بي كأنها الراتنج المذوب .

ودار الحيوانات مرة ثانية حول زارا وعادا يتفرسان بـه قائلين له لقد عرفنا السبب اذا في اصفرار لونك واكداده وتحول لون شعرك الى لون القنب ، أفلا ترى انك غارق في المادة الراتنجية اللزجة في شقائك ؟

وتضاحك زارا قائلاً – والحق انني جذفت عندما ذكرت المادة الراتنجية فما حدث لي الا ما يحدث لكل ثمرة يتداركها النضوج . ان العسل هو ما يخثر دمي ويزيد نفسي استغراقاً في صمتها .

وتقرّب النسر والافعوان من سيدهما وقالا : — ان الامر كما تقول ، ولكن أفلا تريد اليوم أن تصعد إلى الجبل العالي ، فالهواء نقي يشعرك بلذة الحياة .

فقال — انكما تعربان عن مشتهاي ، فــأنا أتوق اليوم إلى تسلق المرتفع ، ولكن عليكما أن تتداركا لي عسلاً من القفير الذهبي ، عسلاً أصفر وأبيض من أجوده وأبرده لأنني أريد أن أبذله تقدمة إلى الذرى .

ولما وصل زارا إلى القمــــة وأطلق للحيوانين مراحهما رأى نفسه منفرداً فابتسم وأدار لحاظه ما حوله قائلاً :

— لقد تعللت بتقدمة العسل لأتمكن من الانفراد بنفسي فأتكلم حراً طليقاً على القمة بعيداً عن منازل النساك وحيواناتهم .

عندما كنت أذكر التضحية كنت ابدد ما وهب لي بألف راحة منبسطة فكيف أجسر أن أدعو هذا العمل اليوم تضحية ؟

انني عندما طلبت العسل لم أطلب سوى طعمة للشرك فأردت أخذها من القفير المذهب الذي تتشوق إلى التلذذ به الاطيار والدببة .

طلبت خير طعمة يستعملها الصائدون على اليابسة وفي البحار . فان الدنيا عبارة عن غابة تغص بالحيوانات ، وحديقة يتنعم بها كل صائد وحشي ، ولعلها أشبه ببحر زاخر لا قعر له . فهي والحق بحر محتشد بالاسماك على أنواعها وعديد الوانها مما يثير شهية الآلهة أنفسهم حتى انهم ليصبحون صيادين يرمون بشباكهم إلى هذا العالم المليء ، بالعجائب والغرائب كبيرها وصغيرها : وأخص من الدنيا عالم الناس برهم وبحرهم ، فأنا أرسل في مجالاته شبكتي المذهبة هاتفاً : انفتحي أيتها الأغوار البشرية .

انفتحي واقذفي الي بأسماكك اللامعة فلسوف اتمكن اليوم بخير طعمة استهوي بها الاسماك البشرية من اصطياد خيارها. وما هذه الطعمة إلا سعادتي نفسها أنشرها إلى الابعاد بين المشرق والجنوب والمغرب ، وانظر ما إذا كان العدد الغفير من

الاسماك البشرية يتعلمون تذوق سعـادتي والاشتباك بها ، حتى إذا تغلغلت في حناجرهم طعمتي يضطرون إلى الارتفـاع نحو مستواي ، وهكذا يرتقي أشد الاسماك تعلقاً بالاغوار إلى قرب شر صياد يصطاد بني الانسان . وما أنا إلا ذلك الصياد منذ نشأتي وفي أعمـاق روحي ، فأنا الجاذب المستوي المزحزح الرافـع والمثقف المعلم . أنا من قال من قبل – يجب عليك أن تصير من أنت .

فليرتفع النـاس إلي الآن لأنني انتظر الاشارات التي تعلن لي ان زمن نزولي قد حان ، فانني لم أنزل بين النـاس بعد كما وجب على أن أنزل ، لذلك انتظر هنا على قمة الجبل مراوغاً مستهزئاً دون أن اعيل صبري ودون أن يعيل هو ، انتظر كمن نسي الصبر لأنه لا شفقة فيه .

لقد أوسعت مقدراتي مجال الزمان أمامي ، فهـل هي تناستني فشغلت باصطياد الذباب مستظلة وراء صخر كبير ، والحق انني ممتن لما قدر الأبـد علي لأنه لا يزحمني بل يترك لي متسعاً من الدهر لأتلاعب وأرتكب الشرور حتى انه أجاز لي اليوم أن أتسلق هذا الجبل لأصطاد عليه الاسماك . وهل سمعتم بانسان يصطاد الأسماك على الذرى ؟ لقد يكون ما طلبته جنوناً .. على انه خيرٌ ان يحكمني الجنون من أن يسودني الجمود فأتلون بالاخضرار والاصفرار وأنا ساكن على الانتظار في الاعمـاق . فأنا لا أريد أن أكون كهؤلاء المتحرقين في غيظهم لطول انتظارهم كأنهم عاصفة مقـدسة تصيح بالوديان : أصغي إلي وإلا فانني أجلدك بسياط الله .

ما يكيدني مثل هؤلاء الثائرين، فانني أقف باعتباري لهم عند حد الاستهزاء ولا يفوتني سبب غضبهم لأنني أعلم انهم ان لم يقرعوا طبولهم اليوم فلن يقرعوها إلى الأبد .

أما أنا ومقدراتي فـــا نوجه خطابنا لا إلى اليوم ولا إلا الأبد وبوسعنا أن نصبر على الصمت لأن أمامنا مدى طويلاً وسيأتي زمن لن يكون فيه للقادم أن

يعبر ويتوارى . ومن هو هــذا القادم ؟ ان هو إلا الصدفة العظمى أي مُلك الانسان إذ يحكم فيه زارا الف عام .

وإذا كان هذا الملك لم يزل بعيداً فما يهمني هذا البعد وأنا الواثق من انـه لا بد قادم . انني استند من هذه الثقة إلى الاسس الابدية ، إلى هذه الصخور والجبال القديمة المنتصبة بين الرياح مترصدة ما كان وما سيكون .

فاضحك أيها الشر الكامن فيّ وارسل قهقهتك الهازئة من أعالي هذه الجبال والق بشباكك لاصطياد خير الاسماك البشرية . اذهب رائداً جميع البحار فان كل ما فيها هو لي . التقط الجميع وارتفع بـه الي . ان هذا ما يتوقعه أوفر المتصيدين شراً .

اذهبي في عرض البحار أيتها الطعمة وغوري في الاعماق لاصطياد سعادتي ، وأقطر أحلى قطراتك المعسولة أيها القلب طعمة شهية تحل في احشاء المصائب المروعة الدكناء .

ان انظاري تمتد إلى أعمق الآفاق فيـــا للبحار تتسع أمامي ويا لمستقبل الانسانية يفلق الضحى وما فوقي ينبسط السكون على تورد الآفاق ، فيا للصفاء ولا تكدره الغيوم !

استنجـــــاد

وفي صبيحة اليوم التالي جلس زارا على مقعده الحجري أمام غاره ، وسار نسره وافعوانه يتجولان في الارض لتدارك أطعمة جديدة وعسل جديد لأن زارا كان بدد حتى آخر قطرة من العسل القديم .

وبينما كان مستغرقاً في تفكيره وهو متكىء على عصاه يتفرس في ظـــل جسده انتفض فجأة إذ لاح له ظل آخر يرتسم قرب ظله . ووقف متلفتاً إلى ما وراءه فاذا بالعراف واقف على مقربـــة منه وهو من قاسمه الغذاء يوماً على

مائدته فأهاب إلى الخمول قائلاً « ان كل الامور متشابهة ولا يستحق العناء لأن ما معنى للوجود والحكمة خانقة قاتلة » .

ولكن ملامح هذا العارف كانت تبدلت منذ ذلك العهـد وما أمعن زارا النظر فيه حتى استولى عليه ذعر مما رأى على سحنته من طلائع الشؤم .

أدرك العراف ما يمر في خاطر زارا فبسط كفه ماسحاً وجهه كأنه يريد محو ما ارتسم عليه ، ومسح زارا وجهه أيضاً ، حتى إذا عاد الاطمئنان إلى كليهما تصافحا فقال زارا :

– أهلا بك يا بشير التراخي والجمود ولعلك استفدت شيئاً من نزولك ضيفاً علي فيما مضى ، فاجلس اليوم أيضاً إلى مائدتي واسمـح أن أجالسك أنا الشيخ الممتلىء غبطة وحبوراً .

فهز العراف رأسه قائلاً : يخيـــل اليك انك شيخ يتدفق غبطة وحبوراً ولكنك على أي حال كنت وأيـاً كنت يا زارا ، لن يطول زمن حبورك على هذه الذرى فلسوف تحتاج سفينتك العواصف عما قليل .

فقال زارا – وهل أنا بأمن من هبوبها ؟

فقال العراف – ان الامواج تدور بجبلك من كل جانب فهي تعلو وترتفع دون انقطاع وعما قليل ستبلغ هذه الأمواج ، أمواج الشقاء والآلام ، هـذه الذرى فتذهب بسفينتك وتذهب بك أيضاً .

وصمت زارا متعجباً .

فاستطرد العراف – أفـلا تسمع الآن شيئاً . أفما يبلغ اذنيـك صخب الاغوار وهديرها ؟

وبقي زارا باهتاً يتنصت فاذا به يسمع صوتاً مديداً تتلقفه أصداء المهـاوي كأن لا هاوية منها تطيق الاحتفاظ بمثل هذا النداء الفجيـع !

فصاح زارا بالعراف – أجـل يا نذير الشؤم ، انني اسمع صوت استنجاد يصرخ به انسان ، ولعله آت من بحر الظلمات ، ولكن مالي ولمدد الناس ! أفما تعلم ما هي آخر خطيئة قدّرت علي ؟

أجاب العراف – بلى انها الرحمة .

وتدفق قلبه سروراً فرفع ذراعيه هاتفاً – لقـــد جئت لاسقط في هذه الخطيئة .

وعاد الصوت يدوي أوسع امتداداً وأشد ارتياعاً كأن مصدره يقترب .

فقال العراف – أتسمع يا زارا ؟ ان النداء موجه اليك ، تعال ، تعال ... فقد لا تصل إلا بعد فوات الاوان .

وبقي محتفظاً بصمته ولكنه شعر باضطراب زعزع إرادته فسأل متردداً : ومن ذا يناديني من بعيد ؟

فأجاب العراف : انك تعرفه فعلى مَ تتجاهل ؟ ذلك هـو الانسان الراقي يناديك مستنجداً .

وارتعش زارا قائلاً : ماذا يريد مني ؟ ماذا يطلب الانسان الراقي هنا ؟

وبدأ جلده يتصبب عرقاً .

أما العراف فلم يأبه لاضطراب زارا بل انحنى فوق الهاوية متنصتاً ، وإذ طال السكوت في الغـــور أدار ظهره فرأى زارا لم يزل منتصباً مكانه وهو يرتجف فقال له بصوت حزين :

– لا يلوح لي انك الرجل الراقص لسعادته ، فارقص إذا شئت ألا تقع على الأرض ، ولو انك رقصت بكل حركاتك أمـامي الآن فإنني لا أصدق انك آخر من يتمتع بالسعادة بين الناس . وإذا ما تسلق أحد هذه الذرى آملاً أن يجد آخر السعداء فانه ليفتش عبثاً عنه إذ لا يجد سوى المغاور يختبىء فيها من

يحب الاستتار . ان مكامن السعادة ليست في هذه الارجاء . وهــــل من سعادة ترتجى بين من دفنوا انفسهم وتنسكوا ؟ فهل وجب علي أن افتش عن السعادة في الجزر السعيدة بعيداً وراء البحار ؟

ولكن ما لي ولهذا مـــا دام لا شيء في الوجود يستحق الفناء والاهتمام ، وعبثاً نفتش فان الجزر السعيدة قد توارت من الوجود .

وبعد أن أنهى العراف خطابه ودفع آخر زفرة من صدره عــادت الغبطة إلى زارا فإذا به ينتفض كمن يخرج من الظلمة ليستقبل النور ويقول وهو يلعب بلحيته :

– لا وألف لا ... انني أعلم منك فالجزر السعيدة لا تزال مكانها ، فاصمت أيها النداب ، ما أنت إلا غمامة تمطر على بسمة الصباح وقــــد بللتني دموعك ولكنني أنفضها عني وافزع منك إلى بعيد ، أفمــا تراني أعاملك بالحسنى ؟ لا تعجب لهذا لأنك نازل في مملكتي .

هذا أنذا ذاهب إلى مصدر صوت الاستنجاد في هـــــذا الغاب لأفتش عن الانسان الراقي فلعله معرض للخطر بين الوحوش الضارية ، وأنا أحاذر أن يلحق به ضرر في مملكتي وما أكثر الضواري فيها .

وما تحفز زارا للسير حتى قهقه العراف ضاحكاً وقال :

– اي زارا ما أنت إلا مراوغ محتــال ، انك تقصد التخلص مني فتفضل مطاردة الوحوش ، ولكن هربك لن يجديك شيئاً فلسوف تجــدني محتلاً غارك عند رجوعك ، ستراني متربعاً فيه كحزمة حطب ثقيلة .

فقال زارا وهو سائر نحو الغاب : ليكن ما تريد . ان كل ما في غاري هو لك أيضاً لأنك ضيفي . وإذا مــا وجدت فيه شيئاً من العسل فلك أن تلحسه لتخفف ما في نفسك من المرارة أيها الدب المزمجر لأننا سنفرح ونطرب سوية هذا المساء لانقضاء هذا اليوم فتشترك معي بالغناء والرقص دباً مثقفاً .

أراك تهز رأسك كأنك لا تصدق ما أقول ، فاذهب في سبيلك إذاً أيها الدب الهرم ولكن اعلم انني عراف أنا أيضاً .

هكذا تكلم زارا ...

محادثة بين الملكين

١

وما مضت ساعة على سير زارا وتوغله في جباله وأحراجه حتى اعترضت طريقه قافلة غريبة ، فرأى ملكين كل منهما متوج وممنطق بالارجوان ، يسوقان أمامهما حماراً محملاً. فقال زارا في نفسه: ماذا يطلب هذان الملكان في أراضيّ ؟ وأسرع إلى الاختفاء وراء عوسجة حتى إذا اقتربت القافلة من مكمنه تمتم بصوت خافت — يا للغرابة ؟ إنني أرى ملكين ولا أرى غير حمار واحد .

توقف الملكان وهما يبتسمان ويلتفتان إلى مصدر الصوت الخافت فقال ملك الميمنة : ان مثل هذه الأفكار تمر في الخاطر عندنا ولكن لا يعبر أحد عنها .

فهز ملك الميسرة كتفيه وقال : لعل المتكلم راع أو ناسك عاش طويلاً بين الصخور والاشجار ، فالابتعاد عن المجتمع مفسد للأخلاق المهذبة .

فقال الملك الآخر وقد ظهرت عليه امارات الكدر : الاخلاق المهذبة ! وهل غادرنا مجتمعنا إلا هرباً من اخلاقه المهذبة؟ لخير لنا أن نعيش بين النساك والرعاة من أن نعيش بين قومنا وقد اتشحوا المذهبات واستعادوا من الطلاء ملامحهم الكاذبات . ما تجدي الانساب العريقة إذا كان من يباهون بها قد تهرأوا وغدا أفسد مافيهم دمهم لما عاث فيه من أمراض قديمة ، ولما أدخله عليه الأساة الحاسدين.

لخير من هؤلاء القوم الفلاح السليم فهو بخشونته واحتياله وصبره وبجالدته أشرف أنواع الانسان في هذا الزمان .

ان فلاح هذا الزمان خير مـا في المجتمع وطبقته أولى بالحكم ولكن الشعب هو الحاكم وما أنخدع به بعد الآن فهو عبارة عن غوغاء من جميع الطبقات يختلط فيه القديس والسافل والصعلوك والمغرور واليهودي فكأنك منهم تجاه ما جمعت سفينة نوح .

كيف نذكر العادات الحسنة وليس عندنا إلا الرياء والفساد وقد نسي الجميع معنى الاحترام ؟ لقد اردنا أن نهرب من كل هذا فلا نعود نرى الكلاب يقتلها الجشع والفضول وتبهرها السعف المذهبة .

لقد بلغ الاشمئزاز مني مداه لأننا نحن أيضاً أصبحنا كاذبين نرفـل ببرور أجدادنا وقد اخلقها الزمان ونتقلد الانواط لنبهر أجهل القوم وأشدهم احتيالاً ولنالىء جميع من يتعاملون بالربا الفاحش مع كل سلطة .

لسنا أولَ المالكين فعلينا ألا نكون على ما كانوا . لقد تعبنا وشبعنا مخادعة واحتيالاً .

لقد أعرضنا عن الشعوب وتولينا عن هؤلاء المشاغبين وهذه الهوام القابضة على الاقلام فهربنا من رائحة الحوانيت الكريهة ومن الانفاس الخانقة تحشرج في صدور الجهود القاصرة .

أف للحياة بين الشعوب ويا لشقاء من يمشون في طلائعها ، أية أهمية للموك ! ما لك ولهم .

فقال ملك الميسرة — لقد عاودك داؤك القديم ، لقد استولت نوبة الاشمئزاز عليك يا أخي ، ولكنك نسيت أن هنا من يسمع حديثنا .

وخرج زارا من مكنه وقد سمع كل مـا دار من حديث بين الملكين فتقدم اليهما وقال :

إن من أصغى اليكما فراقه ما سمع إنما هـو رجل يدعى زارا . وأنا هو زارا القائل :

أية أهمية للملوك بعد !

فاغفر لي مسرّتي لسماعي منكما ما قلته من قبل .

أنتما الآن في مملكتي وتحت سلطاني ، فما عساكما تطلبان فيها ؟ لعلكما وجدتما في طريقكما من أفتش عنه ، فأنا أفتش عن الانسان الراقي .

وقرع الملكان صدريهما قائلين : لقد كشف أمرنا ، فقد اخترقتَ بكلمتك هذه أعماق قلبنا وأدركت سبب بلوانا . نحن ذاهبان للعثور على الانسان الراقي ، الانسان الذي يفوقنا بالرغم من أننا في مرتبة الملك وقد أتينا اليه بهذا الحمار لأن على الانسان إلا على أن يكون المعلم الأعلى .

إن أقسى ما يحتاج الارض من نوازل أن يكون أصحاب السلطان على الناس أفضل الناس كيلا يسود الكذب والفظائع فتلتوي الامور ذاهبة على غير مجاريها ، لأنه عندما يكون أرباب السلطان من زعانف القوم بل ومن حيواناته يتعالى الشعب ويتعالى حتى ليسمعك صوته قائلا : إنني أنا هو الفضيلة .

فهتف زارا : ما أسمع ؟ أعند الملوك مثل هذه الحكمة ؟ لقد أثارت هذه الكلمات قريحتي ولسوف انظم مقطعاً بما أوحته إليّ . ولعلّ ما سأنظم لا تقبله آذان الكثيرين ولكنني منذ زمن طويل نسيت مداهنة الآذان الطويلة .

ونهق الحمار كأنه يحتج ، فقال زارا :

« في ذلك الزمن ، في السنة الاولى من التاريخ الجديد ،

هتفت آلهة الاقدمين دون أن تكرع خمراً ، فقالت :

« الويل .. الويل .. لقد ساءت الحال !

« يا للانحطاط ! ان العالم لم يسقط إلى مثل هذه الدركة قبل الآن !

« فقد استحالت روما إلى عاهرة .

« وقدني قيصرها إلى مرتبة الحيوان .

« حتى ان الله استحال يهودياً ... »

٢

واستحسن الملكان نشيد زارا ، وقال ملك الميمنة : لقد كان من حظنا ان خرجنا على الطريق فلقيناك ، وقد كان أعداؤك عكسوا لنا صورة منك على مرايا نفوسهم فرأيناك شيطاناً ضاحكاً ساخراً أدخل الرعب إلى قلوبنا . ولكن كلماتك ومبادئك كانت تخترق آذاننا لتهز أحشاءنا فتتغلب على ما ادخلت صورة وجهك من الاضطراب في روعنا ، فقررنا أن نجيء اليك وأنت القائل « عليكم أن تحبوا السلم كوسيلة توصلكم إلى حروب جديدة وأن تفضلوا فترة السلام القصيرة على الهدنة الطويلة الأمد » وما نطق أحد قبلك بآية حربية كقولك « لا خير يضاهي الشجاعة وغاية الحرب الحسنى تبرر كل واسطة » .

أي زارا ان دم أجدادنا قد ثار في عروقنا عندما سمعنا آيتك فكأنه الخمر المعتق يغلي في الدنان لسماعه همسات الربيع . وهل كان أجدادنا يشعرون بلذة الحياة إلا عند اشتباك النضال اشتباك الافاعي تقطر دماً ، وهل كانت شمس السلام في أعينهم إلا نوراً خاسئاً ، فكل هدنة طويلة الأمد كانت تلفعهم بالعار .

لكم من زفرة دفعها آباؤنا وهم ينظرون إلى النصال المرهفة تتدلى صابرة على جدران القصور ، فإنهم كانوا يشعرون في أحشائهم بظمأ النصال نفسها وما لمعان الحديد الا وهج شهوته وتحرقه إلى شرب الدماء .

وبينما كان الملكان يتحدثان بحرارة عن سعادة آبائهما ، ثارت عوامل التهكم في زارا وهو ينظر إلى ملامح الملكين التي تنم عن الدعة والسكون ، غير انه امتلك حوافزه وقال : هيا بنا إلى الذروة ، إلى غار زارا ، فسيعقب هذا النهار سمرٌ طويل ، وأنا مضطر لمغادرتكما لأن صوت مستنجد يدعوني من المدى البعيد .

ستنال مفارقتي الشرف من نزول ملكين فيها ، حيث لا بد لهما من الانتظار طويلاً ، ولن يصعب الانتظار عليكما وقد تعودتماه في بلاطيكما . وهل بقي للملوك من فضيلة سوى فضيلة الصبر والانتظار ؟!

هكذا تكلم زارا ...

العلقـــة

وتابع زارا طريقه وهـو مستغرق في تفكيره فانحدر من الاعالي حتى بلغ المستنقعات فإذا به يصطدم وهو ذاهل برجل هزته الصدمة فصرخ متألماً وأتبع صرخته بالشتائم تترى قبيحـة سمجة . وبوغت زارا في استغراقه فرفع عصاه على الرجل ولكن روعه عاد اليه فسخر من نفسه وقال :

– أرجو عفوك واستميحك أن أضرب لك مثلاً عما وقع لنا .

بينما كان رجل سائر في طريق مقفر وقد سرحت أفكاره في مجالات بعيدة عثر بكلب نائم تحت شعاع الشمس فوقفا الواحد بوجه الآخر كعدوين لدودين يرتعشان خوفاً وحذراً . ولو ان الصدف تحولت قيد انملة لكان تداعب الكلب والمنفرد ، أفما هما في القفر فريدان ؟

فقال الرجل المصدوم والغضب لا يزال آخذاً منه مـأخذه – كن من تشاء يا هذا ، فما أنت إلا معتدٍ عليّ بشَلك بأكثر مما اعتديت بصدمتك . انظر إلي ، أفـكلبٌ أنا ؟

وكان هذا المتكلم جاثماً على الارض وقـــد غرس ذراعه في المستنقع كأنه يتصيد منه شيئاً فنهض ساحباً ذراعة العارية من الاوحال .

ورأى زارا دمـاً غزيراً يقطر من ذراع الرجل فصاح به : ماذا جرى لك أيها التعس ، هل لسعك حيوان ؟

فأجاب غضوباً مازئاً وهو يدير ظهره ليذهب في سبيله :

– ما يعنيك يا هذا ، انني مقيم في ملكي وليس علي أن أرد على أهوج .

وأمسك زارا بالرجل وقد اشفق عليه فقال له لقد اخطأت فلست في ملكك بل أنت في ملكي حيث يجب أن لا يضارّ أحد . ادعني بالاسم الذي تشاء فما أنا إلا من يجب أن أكون وقد اسميت ذاتي زارا . تعال اتبعني إلى مغارتي لأضمد جراحك ، فما أنت إلا تعس خانك الحظ ، لقد لسعك الحيوان ثم جاء الانسان بعد ذلك يدوس عليك .

وما سمع الرجل اسم زارا حتى تبدلت سحنته وهتف قائلاً أي شيء أهتم له في الحياة غير هـذا الانسان الفريد « زارا » وغير هذا الحيوان الفريد الذي يعيش من غب الدماء « العلقة » .

ما انطرحت على الارض إلا طلباً لهذا الحيوان فقرصت يدي عشر مرات وإذا بزارا نفسه يقرصني أيضاً .

يا لسعادتي ، إذ قضي لي أن أكون اليوم في هذا المستنقع لأبارك خير حجام بين الاحياء ، لأبارك زارا أعظم من علق على الضمائر ليمتص منها .

وفرح زارا لسماعه هذه الكلمات فقال للرجل وقد مد اليه يده ليصافحه : من أنت يا هذا ؟ ان بيننا اموراً كثيرة يجب أن نجلوهـــا ، غير انني لا أجد مشقة في الايضاح وها قد وضح بيننا النهار .

فأجاب الرجل : أنا « ضمير الفكر » وليس من عامل أشد صلابة وأكثر تقيداً مني غير زارا معلمي . وقد تعلمت منه انه خير للانسان أن يكون مجنوناً في عين نفسه من أن يكون حكيماً في نظر الناس .

أنا هو الذاهب إلى الأعماق ولا ابالي بضيق المـــدى أو باتساعه ولا فرق عندي أكان الغور مستنقعاً أم سماء وانه ليكفيني من الارض سعة الكف إذا

جمدت وصلحت مستقراً للقدم ، فليس أمام العلم الموالي للضمير من شيء يعده صغيراً أو كبيراً .

فقال زارا : لعلك إذاً من يحاول ادراك منشأ العلقة ، فتذهب إلى الغور في بحثها جرياً مع ضميرك .

فأجاب : لا يا زارا ، كيف لي أن أقوم بهذا العمل الفظيع ولا معرفة لي إلا بدماغ العلقة وفي دماغها ينحصر الكون في نظري ، أفليس هذا الحيز كوناً بنفسه ؟ أرجو عفوك إذا ما أظهرت كبرياءً بقولي انني أنا الاستاذ في هـــذا المطلب ولذلك قلت لك ان هنا ملكي . لقد مر علي زمان طويل وأنا أحصر اهتمامي في بحث دماغ العلقة كيلا تفوتني الحقيقة في دقائقها . ان في هذا المطلب تمتد سلطتي وقد أعرضت عن كل ما عداه ، لذلك يتمشى علمي موازياً لجهلي . وقد قضى على ضمير تفكيري أن أعرف شيئاً وأجهـل سائر الأشياء فأصبحت كارهاً لكل عمل فكري لا يتعدى نصف مرحلته ولكل انسان اعتكر فكره في حماسه وتردده .

ان عماوتي تبــدأ حيث يتناهى اخلاصي لعقيدتي وأنا راض بالعمى وإذا ما أردت معرفة شيء انصرفت اليه قاسياً طالبـــاً متعصباً لا ألوي على شيء في سبيل محبته .

أفما أنت القائل يا زارا : ان الحياة نفسها مبضع يشق الحياة ؟

ان قولك هذا قـــد جعلني تابعاً لتعليمك ، فتمكنت بذلك من اكتساب معرفتي ببذل دمي .

فقال زارا — ان الواقع يثبت قولك .

وأشار إلى ذراع الرجـــل وهي تدمي وعليها عشر علقات تمتص منها ، وأردف قائلاً :

– ان في حالك عبراً ، أيهـا الانسان ، فأنت بنفسك تعلم ولن اقدم على إسماعك كل تعاليمي .

لنفترق هنا ، غير انني أود أن القاك بعد الآن . ان هـذه الطريق المرتفعة تؤدي إلى غاري فانزل فيه أهلاً هذا المساء بين ضيوفي، لأنني أريد أن استرضيك عما ألحقته بك من اهانة عندما دست عليك بقدمي ، فأنا أفكر بهذه الترضية الآن ولكنني مضطر إلى مبارحتك إلى حيث يستنجدني الصوت البعيد .

هكذا تكلم زارا ...

الساحــــر

١

وما دار زارا بالصخر على منعطف طريقه حتى لاح له رجل يأتي بحركات غريبة ثم يدور كالمجانين وينطرح زاحفاً على الأرض ، فوقف وقال في نفسه : لعل هو الانسان الراقي الصارخ المدد ، ولعلني أوفق إلى نجدته . وإذ وصل اليه رآه شيخاً ارتجفت اعضاؤه وجحظت عيناه، فهرع اليه محاولاً رفعه عن الارض ولكنه حاول عبثاً ، فبقي هـذا الشيخ كأنه في غيبوبة لا يحس بوجود أحد قربه واستمر يتلفت إلى ما حوله ويبدي اشارات اليائس المتروك ، وبعـد ان تململ وانطوى على نفسه بدأ يرسل أنينه وشكواه قائلاً :

من يدفئني ؟ من يحبني بعد !

إلي بالأيادي الحارة ، إليّ بالقلوب المتقدة .

أنا المحتضر المحتاج إلى أكف تفرك رجليّ الباردتين .

أنا المنتفض تتأكلني الحمى الخفية ، المرتعش تهب علي الرياح اللوافح .

أنا طريدك أيها الفكر الذي لا اسم له ، ايها المحجب المخوف الملفع بالغمام .

عيناً تحدجني في طيات الظلام .

ها أنا طريح أتلوى بعذاب الأبد تحت ضرباتك ، أيها الصياد العاتي ، أنت أيها الإله المجهول ...

* * *

انزل علي بأشد ضرباتك ، اضرب أيضاً، اخرق هذا القلب وقطع نيابه تقطيعا.

مالك تطيل تعذيبي فلا ترشقني إلا بسهام فلت حرابها ؟

على مَ تطيل النظر ، وفي عينك الساخرة بريق الالوهية ؟ أفما مللت عذاب بني الانسان ؟

أنت تمتنع عن القتل ولا تقصد إلا التعذيب ، لماذا تعذبني أيها الإله الساخر المجهول ؟

* * *

آه ، أراك تقترب مني زاحفاً في الليل .

ما تريد ؟ تكلم .

أراك ترخمني وتدفعني ، ها أنت تلاصقني .

انك تتنصت إلى حشرجة أنفاسي وخفقان قلبي .

فيا لك من حسود ! وعلى مَ تحسدني ؟

اذهب عني ... اذهب عني ...

ما هذه السلم تحملها إلي ؟ أتريد أن تعلو عليها لتلج

أتريد أن تنفذ إلى أغوار أفكاري .

ارجع أيها المتطاول المجهول ... أيها السارق

ما الذي تريد اختطافه ؟ وما الذي تطلب سماعه ؟
ما الذي تريد اختلاسه ، أنت أيها المعذب ؟
انت أيها الإله الجلاد ؟
أتريد أن أترامى كالكلب على قدميك ؟
أتريد أن أتقدم ثاملاً لا أعي زاحفاً أحمل اليك غرامي ؟

* * *

انك تضرب عبثاً ، فاضرب يا أقسى العتاة !
أنا لست كلباً ! أنا لست فريسة لك أيها الصياد !
أنا لست أسيرك أيها اللص الملفع بالغمام .
تكلم أيها المتواري وراء السحب ، تكلم أيها المجهول !
قل ، ما الذي تطلبه مني ، ايها الكامن لعابري السبيل ؟

* * *

أتطلب فدية يا للغرابة !
وما هي الفدية التي تقتضيها ؟
ان عزة نفسي تشير عليك بأن تطلب كثيراً .
غير ان عزتي الثانية تشير عليك بالايجاز فيما تقول .
آه ! ان ما تطلبه هو أنا بكليتي !

* * *

يا لجنونك ! انك ترهقني بتعذيبك ، انك تعذب عزتي .
اعطني المحبة ... من يدفئني ... من يحبني بعد ؟

إلي بالأيادي الحارة ... إلى القلوب المتقدة .

أعطني ... أنا المنفرد المتشوق في الصقيع حتى الى أعدائه .

أطلب إليك أن تستسلم لي ، وأنت أقسى من يعاديني .

ولكنه توارى ! توارى رفيقي الوحيد ، أكبر أعدائي ، الكائن المجهول ، الاله الجلاد ...

* * *

لا ... لا تذهب . ارجع ... عد إلي بتعذيبك .

عد الى آخر المنفردين فإن دموعي كلها تنهمر شوقاً إليك .

آخر أشعة من فؤادي تترامى نحوك .

أواه عد إليّ ، يا إلهي المجهول ، يا ألهي يا منتهى سعادتي !

٢

وبلغت الثورة في زارا حدّها فرفع عصاه وأخذ يقرع بها الرجل الذاهب بنواحه وشكواه ، قائلاً له بضحكة ملؤها الغضب — توقف أيها المشعوذ ، أيها المزيف ، أيها الكذاب ، لقد عرفت من أنت .

سألهب ساقيك فأنا أعرف كيف اعامل أمثالك . فانتصب الشيخ وصاح: قف عن ضربي يا زارا ، فإن ما شهدته مني لم يكن إلا مزاحاً ولعباً ، وما اللعب إلا فن من فنوني ، لقد أردت أن اعرضك للتجربة . والحق انك نفذت الى أعماق سريرتي ، فأبقيت لي أيضاً ما تنطوي أنت عليه . انك لحكيم قاس يازارا وعصاك ذات العقد تضطرني الى أن أقول لك أنك تجلد الناس بحقائك جلداً.

فقال زارا وهو لا يزال على حنقه — لا تداهن يا مشعوذ الأرواح — مـــا أنت إلا مظهر لا ينم عن حقيقته فليس لك أن تذكر الحقائق بفمك .

بأي دور كنت تقوم أمامي يا طاووس الطواويس ، أيهـــا البحر الزاخر بالاباطيل ، أيها الساحر المشئوم ؟ أظننت انني كنت مصدقاً أنينك وشكاياتك؟

فقال الشيخ – كنت أمثـــل دور كفارة العقل ، أفما أنت المخترع لهذا التعبير ؟ فتكلمت بلسان الشاعر الساحر الذي ينقلب عليه عقـــله بعد تبدله لادراكه فساد عمله وفساد ضميره .

أفما خدعت بتمثيلي يا زارا ؟ وهل تكشّف لك خداعي قبل ان آمنت بشقائي والقيت راحتيك على رأسي ؟ وقد سمعتك تقول آسفاً « لم يتمتع الحب إلا بالنزر اليسير » فرقص شري حبوراً في داخلي .

فقال زارا – لا ريب في انك خدعت من قبلي من هم أقوى فراسة مني وما أنا من يتحوط لنفسه تجاه المخادعين لأن من واجبي ألا أحاذر أحداً ، هكذا قضي علي .

أما أنت فقد قضى عليك بأن تخدع الناس فما يخفي أمرك علي فأنا أعرفك وأعرف ان لكل كلمة من كلماتك معنيين بل ثلاثة وأربعة معان ، حتى ان ما اعترفت به الآن ليس فيه الصدق كله ولا الكذب كله .

وهل بوسعك أن تكون على غير ما أنت عليه أيها الشرير الكاذب أيهـــا المزيف ؟ وأنت إذا ما وقفت عارياً أمام طبيبك يوماً فانك لتجعل داءك نفسه يتنكر عليه ، هكذا موهت أمامي كذبك نفسه ونكرته عندمـــا قلت لي : ان ما شهدته مني لم يكن إلا مزاحاً ولعبـــاً . فقد ضمنت كذبك شيئاً من الحقيقة وأنت شبيه من بعض الوجوه بالمكفر عن ذنوب العقل .

لقد تكشفت لي سريرتك فأنا أراك بلغت من السحر ما تستهوي به الناس ولكنك لن تجد من الكذب والرياء ما تستهوي به نفسك ، لقد انكسر خيالك وعثرت آمالك لأنك لم تجن غير الكره حقيقة لا حقيقة لك سواها فأصبحت ولا كلمة صادقة عندك ، فكل شيء مزيف فيك إلا شفتيك أو بالاحرى مـــا التصق بهما من كره واشمئزاز .

وصاح الساحر بصوت جلجلة الكبرياء فيه – من أنت يا هذا ليحق لك أن توجه إلي مثل هذا الخطاب وأنا أعظم الاحياء في هذا الزمان ؟

ونزل الساحر على زارا بنظرة التمعت بأشعتهـــا الخضراء ، ولكنه وجم بغتة وأردف قائلاً بصوت حزين :

– أي زارا ... لقد تعبت من كل هذا ... لقد كرهت جميع فنوني فما أنا بالعظيم وما يجدي التظاهر شيئاً . ولكنني طلبت العظمة كما تعلم . اردت أن امثل دور الرجل العظيم فتمكنت من اكتساب ثقة الكثيرين ولكن أكاذيبي تجاوزت طاقتي ووقفت دوني حائلاً اصطدمت به فانحطمت .

اي زارا ... ان كل ما فيّ أكاذيب بأكاذيب ... ولا حقيقة عندي سوى انحطامي .

فأجاب زارا وهو ينكث الأرض بنظراته – لقد كان طلبك للعظمة مشرفاً لك وقد خانك مقصدك فما أنت بالعظيم .

إن ما أكرم فيك وما أراه خير صفة لديك هو تعبك من نفسك وهتفك « إنني لست عظيماً » . لذلك أكرمـــك كمفكر عن العقل ، وهب ان تفكيرك هذا لم يدم إلا لحظة واحدة فانك كنت في هذه اللحظة صادقاً .

ولكن قل لي ما أتيت تطلب هنـــا في غاباتي وبين صخوري ، وإذا كنت انطرحت على طريقي لتلقاني فأي برهان قصدت نيله مني ؟ بأية وسيلة أردت أن تنصب شرك تجربتك لي ؟

هكذا تكلم زارا وعيناه تقدحان شرراً ، فوجم الساحر الشيخ ثم قال : وهل حاولت تجربتك ؟ ما كنت إلا مفتشا وما أفتش عنه هو الانسان الصادق المستقيم ، الانسان الذي لا يظهر إلا ما يضمر . ان مـــا أطلبه هو اناء الحكمة الصادقة ، هو الرجل العظيم .

أفما تدري يا زارا ؟

وساد السكوت بين المتخاطبين ، وأغمض زارا عينيه مستغرقاً بالتفكير ، ثم قبض على يد الساحر وقال له بكل تأدب :

– هنالك على المرتفع الطريق المؤدي إلى مغارتي، وفي هذه المغارة ستجد من تطلب،فاذا ما بلغتها سل نسري وافعواني ليساعداك بالتفتيش في طولها وعرضها.

لا اكتمك انني ما رأيت الرجـل العظيم حتى الآن لأن العيون لا تزال في خشونتها قاصرة عن تفحص أية عظمة ، فاننا في عهد سيادة الشعوب .

ولكم رأيت من التعاظم يتمطى وينتفخ والشعب يصيح حوله:هذا هو الرجل العظيم . ولكن ما يفيد منفخ الحداد وتمدده إذا كان الهواء لا يلبث فيه ؟

هكذا يخرج الهواء أيضاً من الضفدع حين ينتفخ لينشق . وليس من لعبة أشد تسلية من غرز منصل في جلد منتفخ ، فاسمعوا هذا يا أبنائي .

ان يومنا هذا يوم الشعوب فمن له أن يميز بين الكبير والصغير فيها ومن له أن يطلب العظمة فيظفر بها غير المجانين وهل من ظافر غير من فقد رشده ؟

أراك تفتش عن الرجل العظيم ايها المجنون الغريب فمن ترى أوعز اليك بهذا؟

أفي مثل هذا الزمان يوجد العظيم ، أيها المراوغ ؟

لماذا تحاول نصب شراكك أمامي ؟

هكذا تكلم زارا وقد سلا همومه فضحك وسار في طريقه .

المعــــتزل

وما سار زارا شوطاً في طريقه حتى لاح له رجل كبير الهامة يتشح السواد جالساً على جانب السبيل وعلى وجهه نحـول وشحوب ، فأزعجه هذا الشبح

وقال في نفسه : ويل لي انني أرى قناع الاحزان ، فهذا الرجل من طغمة الكهنة وما يطلب هؤلاء الناس في مملكتي ؟

لقد تخلصت من ساحر لأقع على منساج للأموات ، على ساحر آخر يأتي بالعجائب بنعمة الله وهو يذم الحياة ! فليت الشيطان يختطفه . ولكن الشيطان متغيب أبداً عند الحاجة اليه ، إذا ما لبى هذا الملعون الطلب جاء متأخراً .

وكان زارا يتمتم بهذه الكلمات وهو يفكر في وسيلة تمكنه من المرور أمام الرجل الاسود دون أن تقع أنظاره عليه ، ولكن هذا الرجل لمح زارا من بعيد فنهض كمن يظفر بما يتوقع وأسرع إلى ملاقاته قائلاً له :

– أيها المسافر المتجول أياً كنت ، أنجد هذا التائه الشيخ المعرض للمخاطر في هذه الارجاء . انني اسمع زئير الوحوش من كل جانب ، وقد كان هنا رجل بوسعي أن الجأ اليه ولكنه توارى ، وعبثاً فتشت عن مستقره ، وهذا الرجل هو آخر الاتقياء ، هـو الناسك الصالح الذي لم تبلغ اذنيه الكلمات التي ذاعت بين الناس في هذه الأيام .

فقال زارا – وما هي هذه الكلمات ؟ لعلها قولهم بأن الاله القـديم الذي كانوا يؤمنون به من قبل قد مات .

فأجاب الرجل بلهجة حزينة – لقد قلتها وأنا خدمت هذا الاله حتى الساعة الاخيرة من حياته . وها أنذا اعتزل الآن ولا سيد لي ولكنني لم أنل حريتي ، لذلك أصبحت ولا امل لي بالسعادة إلا اذا تلمستها بأيامي الماضيات. وقد أتيت الى هذه الجبال لأقيم شعائر الدين واحتفل بالعيد على ما يليق برئيس أعلى وأب من آباء الكنيسة الأقدمين ، فأنا هو آخر « البابوات » .

ولكن الناسك الذي كان هنـا ، القديس الذي كان يسبح الله بصلواته وأناشيده ، قد مات وقد فتشت عنه في كوخه فما وجدت إلا ذئبين يعـويان أمام بابه نادبين ، فقد كانت جميع الحيوانات تحن اليه في حياته . لذلك ذهبت

في طريقي ثانياً وأنا مصمم ألا اعود بصفقة المغبون ، فبدأت افتش عن رجل آخر هو في نظري اتقى الجاحدين ، بدأت افتش عن زارا .

قال الشيخ هذا وهو يحدث مخاطبه بنظرات حادة ، فمد زارا يده وقبض على راحة الشيخ ، وبعد ان قلبها وتفرس فيها مليا قال له :

ـ ما أجمل يدك أيها المحترم فانها والحق يد تعودت أن تبـارك ، وها هي ذي الآن في يد زارا نفسه .

أنا هو زارا الجاحد القائل : أين اجد من يفوقني جحوداً لأفرح بتعاليمه ؟

وأرسل زارا نظراً كالسهم يخترق عيني الشيخ سابراً افكاره ومـا وراء افكاره إلى ان قال الشيخ :

ـ ما فقد الله أحد بأكثر ممـا فقده من تناهى في حبه له وفاق الكل بامتلاكه .

انظر إلي ، أفما ترى انني اشد جحوداً منك ؟ ولكن من منا أشد سروراً بذلك من الآخر ؟

وفكر زارا لحظة ثم قال : اخدمته الى آخر حياته ؟ اذاً قل لي بأية ميتة قضى ، اصحيح مـا يقال من ان الرحمة قـد قبضت على عنقه فأردته مخنوقا إذ رأى الانسان معلقـاً على الصليب فثقل عليه ان يصبح حبه للناس جحيما يورده الفناء .

وسكت الشيخ وهو يتلفت ما حوله مرتعشا وقد اكفهر وجهه وبدت دلائل الألم عليه .

فاستمر زارا في كلامه :

ـ دعه وشأنه ، دعه يذهب ، فانه هالك لا محالة ، وانت تعلم ، وإن حق ألا يذكر الاموات إلا بالخير ، انه كان يتبع مسلكاً غريباً .

فقال الشيخ : إذا لزم ان نتكلم بين ثلاث عيون (وكان المتكلم اعور) عن احوال الله واموره ، فأنا احق بذلك لأنني اخبر من زارا بهذه الامور بعد ان خدمت الله سنوات طويلة واستسلمت لمشيئته ، وكم يعـــلم الخدام من أحوال ساداتهم ما يخفونه هم عن أنفسهم .

لقد كان إلهاً خفياً ملفعــاً بالاسرار ، وفي الحقيقة ان ابنه لم يأتِ اليه عن الطريق الملتوي ، لذلك كان الزنا أول مرحلة من مراحل الايمان به [1] .

من يسبح الله كأنه رب المحبة فقد قصرت مداركه عن بلوغ مرتبة الحب السامية . أفما أراد هذا الاله أن يقيم نفسه قاضياً ؟ والحب يجتاز أي من حدود العقاب والثواب .

لقد كان هذا الاله الشرقي في شبابه قاسيا تجـــول فيه روح النقمة فأوجد جحيما لتسلية صحبه ، ولكنه شاخ مع الأيام فأصبح متراخيا رحيما وانقلب جداً بعد ان كان أبا بل انقلب جدة هرمة تتداعى .

وجلس يوما قرب الموقد يصطلي وقد تجعدت أسارير وجهه وتقطب جبينه لشعوره بوهن رجليه ، فأحس بتعبه من ارادته ومن العالم وما عتم حتى قضى مختنقا بعميم رحمته .

فاستوقفه زارا قائلا: أرأيت ذلك بعينك ؟ فلقد يكون قضى على هذا الوجه كما يكون قضى بصورة اخرى ، فان الارباب إذا ماتت تموت بأسباب متنوعة .

وعلى كل فأيا كان السبب ، فانه قد قضى ، وشر ما اذكره به هو انه كان يشوش عليّ أبصاري واسماعي ، فأنا احب كل من صفت نظراته وكلماته ، وقد

(١) إلى مثل هذه النتائج دافع لاهوت الغرب وفلسفته الدينية عن رسالة عيسى بالعدد الغفير من جبابرة التفكير بين شعوبه . أمـا والله ان كفر نيتشه فيما يقول عن هـذه المرحلة من الايمان انما هو كفر بالصورة المشوهة التي عرضت عليه لا بالمسيح الذي عنى أمثاله بقوله « اغفر لهم يا رب انهم لا يدرون ما يفعلون » .

كان هو كما تعلم على كل شيء مما تتصف به أنت ايها الكاهن الشيخ وما يتصف به كاهن ، فقد كان مبهما غامضا .

أفما كان في تفكيره كثير من الابهام ؟ ولكم ثار علينا بغضبه لأننا لم ندرك غوامض أقواله وكان الأجدر به أن يأتي ببيان صريح لا يحتمل تأويلا .

وإذا كانت آذاننا هي التي أساءت سماع أقواله فعلى مَ جهزنا بآذان لا تحسن السمع ، وإذا كانت آذاننا طين يسدها فمن ترى وضع هذا الطين فيها ؟

ولكم انحطم من اناء تحت يد هذا الخزاف الذي لم يتم تعلمه ولم يتقن صنعته، فعلى مَ ينتقم من مخلوقاته التي أبدعها إذا كانت خرجت مشوهة من بين يديه؟ أفما كان هذا العمل خارجا على ما يليق ؟ حتى ان اللائق نفسه في الرحمة هتف قائلا : انقذوني من هذا الاله فخير لي ألا يكون لي اله فأتحكم في مقدراتي ، خير لي ان اصاب بالجنون فأقيم نفسي إلها ...

عندئذ صاح الحبر القديم قائلا : ما سمع منك يا زارا والحق انك بلغت من التقوى ما لا تدرك مداه فلا بد ان تكون لقيت إلها هداك الى كفرك ، لأن ايمانك نفسه قد صدك عن الاعتقاد بالله ولسوف يقودك اخلاصك أخيراً إلى ما وراء الخير والشر .

قُدر لك ان تأتي بالبركة الأبدية بعينيك وبيديك وفمك ، فليست اليد وحدها اداة للبركة .

انك تحاول الظهور امامي كأشد الناس كفراً ولكنني اشتم منك عطر البركة المستمرة فأشعر منها بلذة يخامرها الألم . دعني انزل ضيفا عليك ولو لليلة واحدة فليس في الارض مكان ارتاح فيه ارتياحي بقربك .

واستولت الدهشة على زارا فقال : ليكن ما تريد،فهناك على القمة الطريق المؤدي إلى مغارة زارا . وكنت اود ان اذهب بك اليها ، ايها المحترم ، فانني احب جميع الاتقياء ولكنني مضطر الى الاسراع نحو صوت تعالى مستنجداً بي.

اذهب إلى مغارتي حيث لا يتعرض احد لضرر ، فهي ميناء السلام لكل قاصد وانا اود ان يستقر على ارضها الجامدة كل حزين .

ولكنني أرى نفسي أضعف من أن ابدد احزان روحك ، ولقد يمر زمان طويل قبل أن يجيء أحد بوسعه أن يقيم إلهك من الموت ، وقد مات هذا الاله القديم ولن تحيا بعد .

هكذا تكلم زارا ...

أقبح العالمين

وعاد زارا يتوغل في الاحراج وبين الجبال مرسلاً أبصاره إلى كل جهة دون أن يعثر على الصارخ المستنجد غير انه كان يقفز في سيره فرحاً وهو يقول : لقد كفّر هذا النهار عن سيئات صباحه فما أغرب من تحدثت اليهم في طريقي ولسوف ألوك كلماتهم وأمضغها حتى ازدردها غذاء لنفسي .

ولما وصل زارا إلى منعطف سبيل تصده صخرة عالية انكشف له مشهد جديد رأى فيه نفسه في مملكة الموت ، إذ صدمت ابصاره مهاوٍ حمراء دكناء ليس عليها شجرة ولا نبتة ولا يسمع فيها صياح طير أو زقزقة عصفور وقد نفر من ذلك الوادي كل ذي حياة حتى الوحوش فما كان يرتاده من حين إلى حين إلا الأفاعي الجسيمة الخضراء عندما كانت تحس بالهرم وتطلب الفناء . ولذلك دعا الرعاة هذا الوادي مقبرة الأفاعي .

وراودت مخيلة زارا تذكارات قديمة وشعر بأنه قد مر بهذا الوادي فيما مضى ، فأثقل دماغه وبدأ يتباطأ في سيره حتى امتنع عليه نقل قدميه فاذا به يفتح عينيه فجأة فيرى على حافة الطريق شخصاً له وجه انسان وليس من هيئة البشر شيء . كائناً لا اسم له بين أسماء الكائنات. واستولى على زارا نوع غريب من الخجل فاستحت عيناه مما رأتا فاحمر وجهه حتى منابت شعره الابيض فتولى

وأراد أن يبارح هذا المكان فاذا بـــه يسمع صوتاً كالهدير أو كبقية المياه إذا سُدت مجاريها وما عتم حتى استحال هذا الصوت إلى نبرات تشبه الكلام وهي تقول : اي زارا ... اي زارا ... حلّ رمزي إذا قدرت واعلن الحقيقة عن « الانتقام من الشاهد » .

قف مكانك وتراجع إلى الوراء فالأرض متجلدة أمامك ، حاذر أن ينزلق غرورك عليها فتنكسر قوائمه .

أنت تحسب نفسك حكيماً يا زارا ، فحـل الرمز المعروض عليك . إذا كان لك أن تكسر أصلب القشور لاكتشاف نواتها فقل لي من أنا .

وما سمع زارا هــذه الكلمات حتى هزه الاشفاق هزاً فهوى على الحضيض كشجرة توالت على جذعها ضربات الفؤوس ، ولكنه ما هوى حتى نهض وقد ارتسمت القساوة على وجهه فقال :

– لقد عرفتك يا هـــذا فأنت قاتل الاله ، دعني منك فأنا متولّ عنك . ولقد ثقل عليك أن يكون هنالك من لا يزال ينظر اليك ويتفرس في قبحك ، وأنت أقبح العالمين، فأقدمت على الانتقام من هذا الشاهد .

قال زارا هذه الكلمات وتحفز للسير ولكن الكائن الذي لا اسم له تمسك برجليه وصاح به متمتماً : لا تذهب . ابق هنا فقد عرفت ما هي الصدمة التي القتك صريعاً ، مرحى لك لأنك تمكنت من النهوض . لقد أدركت مـا يشعر به قاتل إلهه ، تعالَ واجلس إلى جانبي، انك لن تضيع أويقاتك معي سدى ، لأنني إذا لم اتوجه اليه فإلى من اتجه ؟ اجلس ولكن لا تنظر إلي، فانك لتكرم قبحي باغضائك عنه .

انهم يضطهدونني، وقد أصبحت انت الآن ملجأي الاخير، انهم يضطهدونني لا بحقدهم ولا بقوة جندهم وما تهمني هذه القوة بل انني لأفخر بمصادمتها لي وأسر ، وهل في العالم نجاح يضاهي نجاح المضطهدين مجداً ؟ ان المطارِد ينتهي

بالمتابعة وهـــو الراكض دوماً وراء متبوعه . ان ما يؤلمني منهم هو انهم يضطهدونني باشفاقهم وما أهرب إلا من هذا الاشفاق طالباً ملجأ في اكنافك، فاحمني يا زارا انك ملجأي الوحيد وقد نفذت سريرتي وعرفت مـا يشعر به قاتل الهه . ابق هنا وإذا ما أردت الارتحال أيها الرحالة اللجوج فلا تنصرف من الطريق التي اتبعتها أنا لأصل إلى هذا المكان ، انها لبئس الطريق .

لعلك لا تنقم علي لتوجيهي هذه الكلمات اليك ولاسدائك نصحي ، ان انا إلا أقبح العالمين . ان رجلي أضخم الأرجل وأثقلها فمـا مررت على طريق إلا ودمرتها .

لقد رأيتك متجهـاً نحوي وأنت تقصد المرور بي خلسة ولاح الاحمرار على وجهك فعرفت انك انت زارا . ولو ان غيرك مر بي لكان نفحني بصداقة أو بذل لي اشفاقه بنظرة أو بكلمـة ؛ ولكنني كما عرفت لم أصل من التسول إلى درجة أرضى فيها بتصدق الناس علي .

ان لدي ثروة وافرة من العظائم بـل من أقبحها وأفظعها ، لذلك شرفني خجلك يا زارا .

وما توصلت إلا بشق النفس إلى التخلص من إزعـاج الرحماء لأجد الانسان الوحيد القائل في هذا الزمان بأن الاشفاق نقمة ، وليس نعمة ، وهل من قائل بهذا سواك ، يا زارا ؟

ان الاشفاق اهانة للكرامة سواء أصدر من الناس أم من إله الناس . ولعل في حبس المعونة من النبل ما ليس في المسارعة إلى بذلها ، ولكن صغار البشر يحسبون ان في هـــذه المسارعة إلى الاشفاق فضيلة لا تضاهيها فضيلة . فهم لا يحترمون الشقاء إذا تعاظم ولا القبح إذا تناهى ولا التشويه إذا لم يبق ولم يذر .

ان انظاري تمر على هؤلاء الرحماء كما يمر نظر الكلب على ظهور الاغنـــام المتزاحمة فما أراهم إلا صعاليك ترمّد صوفهم وامتلأت رؤوسهم بافكار الانعام .

انني أقف كالبجعة تحدج المستنقعات بنظرات الاحتقار لأرسل أنظاري على تدافع صغيرات الأمواج وكل ارادة واهية وكل نفس حقيرة .

لقد طال زمن الاعتقاد بهؤلاء الأصاغر وأولاهم الناس الصواب حتى تولوا القوة وأصبحوا يقولون بأن لا خير إلا ما يرونه هم خيراً .

ان ما يعتبر حقيقة في هذا الزمان ان هو إلا ما علمه ذلك البشير الذي نشأ بين هؤلاء الصعاليك ، ذلك القديس الغريب الاطوار الذي وقف مدافعاً عن قومه وهو يشهد لنفسه قائلاً « أنا هو الحق » .

ان هذا المدعي قد فسح المجال منذ زمان طويل لهؤلاء الصعاليك فتطاولوا منتصبين على أظلافهم ، ان هذا القائل أنا الحق قد علمهم ضلالاً عظيماً .

لقد أورد قوله هذا فما تلطف أحد تلطفك بالرد عليه يا زارا إذ مررت أمامه وصحت به : لا ... لا ... والف مرة لا ...

لقد حذرت الناس من ضلاله ، فكنت أول المحذرين من الاشفاق ، وما وجهت خطابك للمجتمع ولا للفرد بل وجهته لنفسك ومن هم من مرتبتك ، فأنت تبدي استحياءك من خجل الآلام العظمى فتقول « كونوا على حذر أيها الناس ، ان الغمامة الواسعة تمتد من منشأ الاشفاق » .

ثم تقول « ان المبدعين قساة ، والمحبة العظمى تتعالى فوق اشفاقها » .

اي زارا لقد كنت مدركاً انذارات زمانك عندما نطقت بهذا .

ولكن عليك أن تحاذر أنت أيضاً ما فيك من اشفاق، لأن كثيرين خرجوا على طريقهم يقصدونك وما أكثر الغارقين ومن جمدهم الصقيع !

ولأدعونك حتى إلى الاحتراس مني ، فانك قد حللت لغزي من وجهتي حسنه وقبحه وعرفت من أنا وما فعلت فعرفت من ذلك ما يمكنه أن يصدمك ويصرعك .

وعلى كل، فقد وجب على الإله أن يموت لأنه كان يحدق بعين نافذة لا تخفى عليها خافية فيسبر أعماق الانسان وأغواره مستكشفاً جميع ما كمن فيه من قبح وعيوب .

لقد كان اشفاقه خالياً من الحياء ، فكان يذهب هاتكاً الأستار عن قبائح ذاتي ، أفما حق على هذا الفضولي الرحيم أن يموت ؟ أفما كان لي أن أنتقم ممن تحرش بخفاياي أو أختار الموت تخلصاً منه ؟

ان إلهاً يرى كل شيء حق الانسان الأجدر به أن يفنى وما يحتمل الانسان مثله شهيداً .

هكذا تكلم أقبح العالمين ، فنهض زارا وقد أحس بالصقيع في أحشائه وقال :

– يا من لا يُعرّف ولا يُسمى ، لقد حولتني ، عن اتباع طريقك وأنا أدعوك مكافأة لك الى اتباع طريقي ، أنظر الى الذروة ، هنالك مغارة زارا.

ان مغارتي متسعة مديدة كثيرة السراديب يجد فيها طالب الخفاء خباء . وعلى مقربة منها حفر وأوجار لكل حيوان من الزحافات والدبّابات والأطيار. فاقتد بي يا من هجرت العالم وكرهت الحياة بين الناس وأرهقك إشفاق الناس، تعلم كما تعلمت أنا فلا يتعلم إلا العالم المختبر .

ليكن أول ما تتعلمه التحدث مع نسري وافعواني، فالأول أعظم الحيوانات كبراً والثاني أشدها مكراً . فليكونا لك ولي خير ما نستشير .

هكذا تكلم زارا وسار في طريقه وقد ازداد تفكيره إسراعاً ومشيته تمهلاً إذ كان يسائل نفسه عن امور كثيرة فلا يجد لها جواباً .

وقال في قلبه : ما أشقى الانسان وما أقبحه مليئاً بالضغينة والعيوب الخفية !

قيل لي أن الانسان محب لذاته ، فأية درجة يجب أن تبلغ الأنانية لتتغلب على ما في الذات من صفات حقيرة ؟

لقد مررت الآن بكائن يحب ذاته وهو يحتقرها فهو في نظري متناه في عشقه واحتقاره لأنني ما عثرت قط من قبل بمثله كائناً يحتقر ذاته الى هذا الحد ، إن في مثل هذا الاحتقار تعالياً وسمواً ولعل هذا الانسان هو الانسان الراقي الذي أرسل بصرخة الاستنجاد .

إنني احب رجال الاحتقار العظيم لأن على الانسان أن يفوت ذاته ويتفوق عليها .

مختار التسول

وعندما بارح زارا أقبع العالمين أحس بوحدته ومشى الصقيع في أعضائه لما مر في رأسه من أفكار غريبة لافحة ، ولكنه ذهب يجد السير تارة على المراعي المخصبة المشرفة على البحر وطوراً وراء الجبل حيث جف النهر فانكشف مسيلة الموحش تحف به الصخور ، فتشددت عزيمته وعادت اليه حرارته فقال في نفسه :

« لعلني على مقربة من إخوان لا أعرفهم يدورون في هذه الأرجاء ، ولعل ما أحس به من انس بعد الوحشة ومن حرارة بعد الصقيع يهب من أنفاسهم فتهش لها نفسي » .

وتطلع من موقفه الى ما حوله فإذا به يرى قطيعاً من الأبقار على مرتفع فأدرك أن ما ضاع من لهاث هذا القطيع قد كان السبب في إنعاش قلبه ،

وما أحست الأبقار بقدومه إذ كانت موجهة انتباهها الى خطاب كان يلقى عليها . وما تقدم زارا بضع خطوات حتى سمع صوت انسان يرتفع من وسط الحلقة وقد أدارت الأبقار رؤوسها الى مصدر الصوت فأسرع زارا الى اختراق الحلقة فاذا برجل جالس على الحضيض يتكلم محولاً كل جهده لاقناع الأبقار بألا تنفر منه .

وكان المتكلم أحد أنصار السلام ومن وعاظ الجبال المتصفين باللطف وقد شع العطف من عينيه .

وتقدم زار وسأله بدهشة عما يفعل ، فأجاب الرجل : إنني أطلب هنا ما تطلبه أنت ، فأنا أفتش عن سعادة الحياة ، وقد أردت أن تعلمني الأبقار حكمتها فمضى نصف الصبيحة وأنا أهيب بها الى التكلم حتى كادت تنطق فأتيت أنت تكدر صفونا .

إذا نحن لم نرجع فنصير مثل هذه الأبقار فلن ندخل ملكوت السماء ... لأن علينا أن نقتبس من الأبقار اجترارها .

والحق لو أن الانسان ربح العالم كله ولم يتعلم الامعان في تفكيره كما تمعن الأبقار في مضغها فأية فائدة له من الحياة ؟ لأنه إذا لم يجتر بتفكيره فلا شفاء له من أشد أدوائه . وداء الانسان المقام اليوم إنما هو داء الاشمئزاز . ومَن مِن أبناء هذا الزمان لا تتقزز نفسه وعيناه وفمه . أفما أنت كسائر الناس يا هذا ؟ انظر الى الأبقار .

قال واعظ الجبل هذه الكلمات ثم أمعن النظر في زارا بعد أن كان يعلقه على أبقاره فتغيرت سحنته وهتف قائلاً : من هو من أخاطب ؟

ونهض عن الأرض فجأة وهو يقول :

— هذا هو المتعالي عن كل اشمئزاز ، هذا هو زارا بعينيه ، هذه عينه وهذا فمه وهذا قلبه .

وسارع إلى تقبيل يدي زارا وعيناه تفيضان بالدموع كأنه لقي كنزاً أرسلته السماء ووقفت الابقار تنظر إلى الرجلين مندهشة حائرة .

وتباعد زارا قائلاً : ما لك والتكلم عني ؟ تحدث عن نفسك ، أفما أنت من اختار التسول متخلياً عن ثروته الكبرى ؟ أفما أنت من رأى العار في

الغنى وأربابه ففزع الى الفقراء ينشر عليهم نعمته ويجـــود عليهم بقلبه ، فرده الفقراء خائباً .

فأجاب المتسول : أجل لقد عدت بالخيبة فلجأت إلى هذه الابقار ، وأنت تعرف ذلك يا زارا .

فقال زارا : وهنا تعلمتَ فعرفت ان الاجادة في العطاء أصعب من الاجادة في الأخذ وان العطاء فنٌ يتوقف اتقانه على ادارة العطف والتحكم في خطراته .

فقال المتسول : بخاصة في هذه الأيام التي ثار فيها كل سافل نفور متكبر مباهياً بطبقة الغوغاء التي ينتمي اليها ، وما خفي عليك ان الساعة قد دنت لثورة طَبقات المُستعبَدين وهي ثورة سيطول أمدها ومداها .

ان الصغار يتمردون على كل مـــا هو إحسان وتصدق فلينتبه أرباب الثراء وليحذروا .

الويل لكل وعاء متضخم لا يتسرب ما فيه إلا قطرة فقطرة من فوهته الضيقة فان أعناق هذه الآنية معرضة للكسر في هذه الازمان ، وقد اصطدمت بالحسد الفاحش والشهوة الغاضبة والظمأ الدافع الى الانتقام وبكل مـــا في الغوغاء من غرور . لقد كذب من قـــال ان السعادة سائدة بين الفقراء من الناس ، فما يتمتع غير الابقار بملكوت السماء .

وسأل زارا : ولماذا لا يتمتع الاغنياء بالملكوت ؟

فأجاب المتسول : لماذا تجربني يا هـــذا وأنت أدرى بالأمر مني ؟ وهل فزعت إلى الفقراء إلا كرهاً لأغنيائنا ؟ وهم أسرى اموالهم وعبيدها وهم ذوو العيون الباردة والقـــلوب التي تفرضها شهوة الاثراء فتوحي اليهم بكل وسيلة يستغلون بها أية كومة من كوم الاقذار ، أفما هربتُ من هؤلاء الناس وسفالتهم الصارخة بوجه السماء ، كما هربت من الطبقة الموشاة بالذهب والمزورة تزويراً ، المتحدرة من جدود كانت أصابعهم مخالب من حديد فعاشوا عقباناً أو جامعي

خرق ، من الطبقة التي ماتت النخوة في رجـــالها فسرحت نساؤها فاحشات سائبات لا فرق بينهن وبين البائحات في المواخير .

لقد رأيت الغوغاء في الطبقة العليا كما رأيتها في الطبقة الدنيا فلا فرق بين الاغنياء والفقراء في هذا الزمان ، لذلك هربت وأمعنت في الهرب حتى أدى بي المطاف إلى هذه الابقار .

هكذا تكـلم رسول السلام والعرق يتصبب منه لاندفاعه بتيـار خطابه ، فوجمت الابقار مضطربة ، غير أن زارا كان لا يزال يحدّق بالمتسول وهو يبتسم حتى إذا وقف عن الكلام قال له :

— لقد اجهدت نفسك بعنف خطابـك فما لفمك أن يتفوه بهذه الكلمات الجافية وما لأذنيك أن تسمعاها ، وما أرى معدتك نفسها قادرة على هضمها وتحمل مثل هذا الغضب المتدفق فمعدتك بحاجة إلى غذاء أخف وما أنت بالرجل الشره ولعلك من آكلة الاعشاب والبقول تحب مضغ الحبوب ولعق العسل .

فقال المتسول : لقد أصبـت فأنا احب العسل وأمضغ الحبوب فأفتش عما لذّ طعمه وطابت نكهته ، وما يساعد بمضغه على امرار الزمان شأن الكسالى ، وليس أمهر في الاجترار من الابقار فهي التي اخترعته كما اخترعت التمدد تحت شعاع الشمس فتخلصت من كل تفكير جدي عميق مضخم للقلب .

فقال زارا : إذاً عليك أن تشاهد نسري وافعـواني فليس لهما على الأرض نظير . تلك هي الطريق المؤدية إلى مغـــارتي فانزل فيها ضيفاً على هذا المساء لنتحدث مع النسر والافعوان عن سعادة الحيوانات ، وهنالك تنتظرني إلى أن أعود لأن صوتاً استنجدني من بعيد وأنا ذاهب إلى مصدره . ولسوف تجد في المغارة عسلاً جديداً أخذ من القفران الذهبية وهو بارد كالثلج فلك أن تأكله .

استأذن أبقارك الانصراف أيها الرجل الغريب ، انها خير من أخلص لك وأصدق من علمك الحكمة .

فقال المتسول : مـا هي أخلص وأصدق منك يا زارا ، فأنت بطيبة قلبك خير من الأبقار .

فقال زارا : سحقاً ، أيها المداهن ! لمــاذا تقصد إفسادي بمسول القول والثناء ؟ اذهب بعيداً عني !

ورفع زارا عصاه غاضباً فأسرع المتسوّل بالهرب .

الظـــل

وما توارى المتسوّل وشعر زارا بانفراده ، حتى سمع صوتا آخر يهتف به من ورائه قائلاً له – توقف وانتظرني ، أنا ظلك ، يا زارا .

ولكن زارا لم يصغ سمعا وقد أزعجه ان تكون جباله آهلة بمثل هذا العدد من الناس ، وتساءل عما آلت اليه عزلته فقال : ان مملكتي ليست من هــذا العالم فلأذهبنّ مفتشا عن جبال جديدة .

ها أن ظلي يدعوني ، ولكن ما يهمني هذا الخيــال وعليه هو أن يتبعني ، أما أنا فأهربُ منه .

ومشى زارا فاذا بــه يرى المتسول يركض امامه وظله يجدّ في السير من ورائه ، غير ان زارا أدرك ان الجنون كاد يستولي عليه فوقف فجـأة ينفض عن نفسه مــا تعلق بها من كيد واحتقار ، وهو يقول : افما يتعرض أمثالي القديسون الشيوخ إلى أغرب الحادثات ؟

والحق ان جنوني قد تزايد في هذه الجبال وها أنذا اسمع قرقعة ست أقدام حكمها الجنون .

لا حق لزارا أن يخاف من خيال فيسطو عليه الوهم حتى يرى رجلي خياله أطول من رجليه .

ووقف بغتة والتفت إلى مـا وراءه فاذا بظله يصطدم بـه فيكاد يسقط إلى الأرض ، وتفرس في هذا الخيال فساده الرعب كأنه يرى شبحا من وراء القبور لما رأى من هزاله وهرمه ، وصرخ قائلاً :

— من أنت ، ولماذا تدعي انك ظلي ، ومنظرك لا يروقني ؟

فأجاب الظل : اعذرني إذا أصررت على ما ادعي وإذا كان حالي لا يروق لك ، فانني اهنيك على حسن ذوقك. وما انا الا جوابة آفاق اقتفي خطواتك منذ زمن بعيد فأذهب على طريق لا ينتهي عند حـد ولا مسكن لي فكأنني اليهودي التائه إلى الأبد بالرغم من انني لست يهوديا ولا خالداً .

لماذا قضي علي أن ابقى دائما على سفر دون قرار فتحملني عواصف جميـع الارياح ، حتى تعبت من ذرع هذه الكرة الارضية التي لا أول لها ولا آخر ؟

ليس من سطح لم انطرح عليه كالغبار المتهاوي بعد ثورته على المرايا وزجاج النوافذ وكل شيء المسه يختلس مني ولا آخذ منه شيئا ، فها أنذا ناحل وأكاد اكون هباء .

انت يا زارا متبوعي الذي سرت وراءه ولم يرني . خفيت عنـك ولكنني كنت أصدق ظل لك فما حططت رحالك مرة إلا وحططت قرب رحالي ، ثم هببت معك أجول في أبعد العـوالم وأشدها صقيعاً كالاشباح يلذ لها أن تنطرح على السطوح المثقلة بالثلوج .

ذهبت في إثرك متشوقاً إلى كل محظور بعيد وإلى كل شر ، فـاذا كنت اكتسبت من الفضائل شيئاً فما اكتسبت إلا اقتحامي كل ممنـوع . وفي إثرك حطمت كل مـا كان يعبده القلب وقلبت كل معالم الحدود ومحوت كل الصور . وأنا أتهافت على أشد الشهوات خطراً . والحق إنني ارتكبت هـذه الجرائم كلها . وفي إثرك أيضاً فقدت ثقتي في معاني الكلمات وفي الشرائع المقدسة وفي الأسماء العظمى ، أفما يبدل الشيطان اسمه كلما استبدل جلده ، وهل الاسماء إلا

جلود ؟ بل لعل الشيطان نفسه جلد ليس إلا .

وكنت أحث نفسي على السير فأقول « لا حقيقة في الوجود وكل شيء جائز » فاندفعت أشق برأسي وقلبي أشد المياه صقيعاً . ولكم خرجت بعدها عارياً وقد لوح الصقيع جلدي بناره .

ويلاه ! ماذا فعلت بالعطف وبالحياء وبالايمان بالصالحين وأين توارى الطهر الكاذب الذي كنت اتشح به من قبل ، طهر الصالحين في أكاذيبهم الشريفة ؟.

لكم اتبعت الحقيقة وأنا أترسم خطاك فرجعت الحقيقة إلي لتصفعني على وجهي وما لمست الحقيقة حين لمستها إلا عندما كان يلوح لي انني أقول الكذب .

لقد انجلت امور كثيرة أمامي ، لذلك لم يعد لي شيء وكل ما احببته قد مات فكيف يسعني أن أحب نفسي بعد !

ان ما اريده ، وان اعيش كما اشتهي وإلا فخير لي ألا أعيش ، وتلك هي أيضا ارادة أقدس الناس ولكن أنى لي أن اجد لذة بعد ، وقد اضمحلت مقاصدي وأهدافي وليس أمامي من ميناء ينطلق اليه شراعي ؟

ما تهمني الريح المناسبة ؟ وهل لمن لا يعرف وجهته أن يراقب مهب الرياح ؟

لم يبق لي غير قلب متعب وقح وارادة لا قرار لها وجناح مهيض وظهر تفككت فقراته .

لقد فتشت عن مسكني فأشقتني محاولتي ، وأنت تعلم يا زارا أي شوق أكابده من أجله ؟

أين هو هذا المقر ؟ لقد طلبته فما وجدته فهو أبداً في كل مكان وأبداً لا مكان له بل هو العبث الابدي .

هكذا تكلم الظل فارتسم الأسى على وجه زارا فقال :

ــ أنت هو ظلي . وما الذي تقتحمه من هيِّنات المخاطر ، أيها الروح المطلق المتجول ، لقد كان يومك ثقيلاً عليك فاحذر أن يكون مساؤك أشد ارهاقاً .

ان التائهين أمثالك يعثرون على سعادتهم أخيراً ولو في سجن من السجون ، أفما رأيت كيف يرقص السجناء على جرائمهم وقد بلغوا الأمان ؟

احذر أن يتسلط عليك ايمان جديد يضيق عليك المجال بأوهامه القاسية لأنك منذ الآن معرض لاستهواء كل ضيق جديد .

لقد غاب هدفك عنك ، فكيف تقدر على الذهاب في حزنك أو بلوغ السلوان وقد ضللت طريقك ؟ فيا لك من خيال تائه وفكر شريد ! فاذا ما أردت الراحة في ملجأ هذا المساء ، أيها الفراش المنهوك ، فاصعد إلى مغارتي .

ذلك هو الطريق المؤدي اليها ، وها أنذا ابتعد عنك لأنني أشعر بشيء كالظل يثقل علي .

سأذهب راكضاً وحدي لأتبين النور ما حولي ، فالي مغارتي هذا المساء لأننا سنحيي ليلة راقصة هناك .

هكذا تكلم زارا ...

في الظهيرة

وذهب زارا راكضاً في سبيله فلم يصادف عليه أحداً ، فلذ له الانفراد بنفسه واستغرق مفكراً ساعات طويلة عما يسره ، وإذ تكبدت الشمس السماء مرسلة أشعتها عمودياً على رأس زارا رأى أمامه شجرة هرمة تعقدت أغصانها وقد التفت عليها جفنة كرم طوقتها من كل ناحية حتى اختفى جذعها وتدلت من أعاليها العناقيد صفراء ناضجة فأهاب الظمأ به ليمد يده ويقتطف عنقوداً

يطفي أواره ولكنه أحس بحافز آخر يدعوه إلى التمدد تحت ظل الدالية طلباً للراحة والنوم ، فانطرح على العشب وما عتم حتى نسي ظمأه فاستسلم للوسن ولكن عينيه بقيتا مفتوحتين تحدقان بجفنة الكرم والشجرة وقد شاقه عشقها، فقال في نفسه :

ـ سكوتاً... لعل العالم قد اكمل الآن فانني أشعر بما لا عهد لي به من قبل.

احس بالوسن يهب علي كنسمات تخطر على مويجـات البحر اللامعة ، فهو لا يغمض أجفاني بل يترك لروحي انتباهتها ولكنه يتوغل فيها فكأنها تتمدد وتتسع مجالاتها وقد اضناها التعب ، فهل حان مساء يومها السابع في وسط النهار ؟

ان روحي الغريبة تنطرح ممددة بطولها فكأنها بعد ان ذاقت ألذ الاشياء لا يحلو لها الاسى بعد فهي تبدي امتعاضها .

وها هي تلتصق بالتراب كقارب دخل فرضته متعباً من اسفاره على البحار المجهولة ، أفليست اليابسة أصدق من غادرات البحار ؟

انها تستغني عن حبل يشدها إلى مرساها ، فخيط عنكبة يكفيهـا ليلصقها بترابها .

هاأنذا كالقارب في فرضته ارتاح على التراب الأمين مشدوداً بأوهى الخيوط.

يا اسعادتي ! على مَ لا ترفعين صوتك بالانشاد يا نفسي وأنت منطرحة على العشب في الساعة التي لا يعزف فيها راع على شبابته .

لا .. لا تنشدي ! ان الظهيرة يرتاح على المروج فاحفظي الصمت يا نفسي لأن العالم قد اكمل .

لا .. لا تنشدي ! ان عصافير المروج نفسهـا صامتة لا تزقزق ، انظري ! هذه الظهيرة الهرمة راقدة تحرك شفتيها . أتراها ترتشف قطرة من السعادة ؟ قطرة معتقة من الخمر الذهبي تحمل السعادة الى هذه الظهيرة فتبتسم . سكوتاً ! انها لابتسامة الآلهة .

كنت أعتقد من قبل وأنا أحسبني حكيماً إن السعادة تنشأ من أقل الأسباب ولكن الزمان علمني إنني كنت مجدفاً وإن مجانين الحكماء لا يرتكبون مثل هذا الخطأ .

لقد عرفت الآن أن على الأقل من القليل يتوقف خير الشعور بالسعادة لأنها تقوم على ألطف الأشياء وأعمقهـا صمتاً ، على حركة حرباء بين الأعشاب ، على نسيم ، على لحظة سكوت ، على طرفة عين .

ماذا جرى لي ؟ تنصتي يا نفسي ، هل توارى الزمان ، أتراني أهوي ساقطاً في غور الأبد ؟

أحس بطعنة في صميم قلبي : فانحطمْ أيهـا القلب ، خير لك أن تقف عن نبضاتك بعد أن شعرت بهذه السعادة وبعد أن نزلت الطعنة النجلاء عليك .

يا للعجب ! ألم يكتمل العالم الآن ؟ أفما أتم استداراته ونضوجه ؟ الى أين تطير هذه الأكرة المذهبة ؟ وهل أنا ذاهب وراءها ؟ .

سكوتاً !

وعندما أحس زارا بأنه نائم فتثاءب وشدت به عضلاته، فقال في نفسه :

ــ انهض أيها الكسلان النوام ! أف لكما أيتهـا الساقان الهرمتان ، لقد دهمنا الوقت وأمامكما شقة طويلة بعد .

لقد نمت مدة تبلغ نصف الأبد يا هذا فانهض أيها القلب الشيخ فلقد تحتاج الى زمن طويل لتعود الى انتباهك بعد هذه الرقدة .

وتسلط النعاس على زارا ثانياً فانطرحت روحه بالرغم منه تطلب الراحة قائلة : اسكت ودعني ، أفما أكمل العالم ؟ بالجمال هذه الكرة المذهبة !

وصاح زارا بروحه ــ انهضي أيتها الكسولة، أيتها المختلسة، مالك تتثاءبين وتزفرين وتتهاوين الى الأغوار ؟

من أنت أيتها الروح ؟

وانتفض زارا مذعوراً إذ وقعت أشعة من الشمس على وجهه .

وصاح – أيتها السماء المنبسطة فوقي، انك تنظرين إلي وتصغين الى روحي الغريبة .

أي متى تتشربين قطرة الندى التي تساقطت على كل شيء في هذا الوجود ؟ أي متى تتشربين هذه الروح الغريبة ؟

أيتها الأغوار الأبدية ، أيها القاع المليء جذلاً ، أيتها الظهيرة التي يرتعش لها كل شيء ، أما آن لك أن تتشربي روحي فتندغم فيك ؟

هكذا تكلم زارا ونهض من مرقده تحت الشجرة كأنه يفيق من سكرة فإذا بالشمس لا تزال في كبد السماء فعرف انه لم ينم إلا زمناً قصيراً .

السلام

وكان العصر قد خطا خطوة كبرى نحو المساء عندما بلغ زارا مغارته بعد طول المسير وبعد أن ذهب جهده في التفتيش عن المستنجد عبثاً .

ولكنه ما أصبح على قاب عشرين قدماً من مسكنه حتى وقف مذعوراً إذ سمع صوت الاستنجاد يدوي في أذنيه وازدادت دهشته إذ تأكد أن الصوت خارج من مغارته نفسها . غير أن الهتاف كان يصل إليه كأنه هتافات عديدة يدفعها فم واحد .

وأسرع زارا فولج مغارته فإذا هو ماثل أمام جميع من التقاهم في طريقه : ملك الميمنة وملك الميسرة والساحر الشيخ ورئيس الأحبار والمتسول والظل وضمير العقل والعراف والحزين والحمار .

وكان أقبح العالمين واضعاً تاجاً وملتفاً بدثارين من القرمز ، لأن هذا الرجل كان يحب أن يتنكر ويتجمل ككل قبيح .

وكان نسر زارا منتصباً بين هذا الجمع وقد انتفش ريشه ولاح الاضطراب عليه لاضطراره إلى ابداء الجواب على مسائل تنال من غروره وكان الافعوان ملتفاً حول عنقه .

ودهش زارا مما رأى وذهب نظره يتفرس في كل وجه من وجوه ضيوفه ويطالع صفحات نفوسهم ، وكان هؤلاء الضيوف وقفوا عن مقاعدهم وكل منهم ينتظر بخشوع خطاب زارا .

وبعد صمت قصير قال زارا :

ما كان صوت الاستنجاد إلا صوتكم إذاً ... فأنا أعلم الآن أين يجب أن افتش عن الانسان الراقي .

انه جالس في مغارتي هذا الانسان ، ومـا اعجب لهذا لأنني أنا دعوته وأهبت به للحضور وقد وعدته بالعسل والسعادة ويلوح لي انكم لا تتوصلون الى الاتفاق فيما بينكم فكل منكم يسبب الكدر لرفاقه وأنتم مجتمعون هنا في حين انكم تستنجدون بصوت واحد ، فأنتم بحاجة إلى من يعيد ضحككم اليكم ، إلى رجل مرح رقاص استولى عليه الجنون .

اغتفروا لي هذه اللهجة التي لاتليق بضيوف مثلكم يستسلمون لليأس ولكنكم لا تعلمون ما يشدد العزم في قلبي ، ان مشهد اليائسين يدفع بكل انسان إلى محاولة مواساتهم وتعزيتهم ، وهذا ما أشعر به الآن وأنا مدين لكم بهذا الشعور . لذلك أقدم لكم مـا أملك . فانزلوا على الرحب في مغارتي هذا المساء وليقم نسري وافعواني بخدمتكم .

ولكن عليكم أن تردوا عنكم كل يأس فأنتم في منزلي حيث يسود الاطمئنان والسلام .

فأنا إذاً اقدم لكم الامان أولاً ثم أقدم لكم خنصر يدي لأنكم إذا مـا قبضتم عليه تقبضون على ساعدي : فأنا لا أتردد في تقديم قلبي لكم ، فأهلا وسهلا بكم .

هكـذا تكلم زارا وهو يضحك ضحكة الحب والشر ، فانحنى الضيوف

يردون السلام باجلال واحترام وتكلم ملك الميمنة باسم الجميع قائلاً :

ـ لقد عرفنا انك أنت زارا من طريقة تقديم يدك واهداء سلامك ، لقد تواضعت أمامنا حتى كدتُ تخجل كرامتنا لك وما سواك من يعرف التواضع فيقف منه عند حدّ العزة ، فقد أتيتنا بقدوة تصلح من أخلاقنا فتسدد نظرنا وتشدد قلبنا .

إننا لن نتردد في تسلق جبالٍ أعلى من هذا الجبل إذا كان من اعتلائنا ما يبسط أمامنا مشاهد تقشع الغشاء عن العيون وتجعل بصرها حديداً .

لقد انقطعنا الآن عن الصراخ في طلب النجدة لأن قلوبنا قد تفتحت وامتلأت حبوراً ونكاد نستعيد قوانا وشجاعتنا .

أي زارا ، ليس في الارض شيء أدعى الى السرور كالارادة القوية السامية فهي أشرف مـــا ينبت التراب ، فإذا ماغت دوحة واحدة من هذا النبات سرت القوة في كل ما حولها من حدائق ومروج .

ان من يعلو مثلك يا زارا لشبيه بشجرة الصنوبر ترتفع صامتة فريدة صلبة العود وتمد فروعها القوية الخضراء كأنها تريد اللحاق بما تنشر من سيادة وكأنها تستنطق الرياح والعواصف وكل ما يبدو على الذرى العاليات. وإذا ما أرسلت جواباً أرسلته بنبرة عالية ظافرة آمرة .

من يتردد في تسلق الذروة ليشاهد مثل هذه الدوحة ؟ ان كل من يسوده الأسى القاتم يطرح عنه الاستسلام اليه إذا هو نظر إلى دوحتك يا زارا ، وفي النظر اليك طمأنينة من لا قرار له وشفاء القلوب الحائرة .

والحق ان عيوناً كثيرة تتجه اليوم نحو جبلك ودوحتك وقد تنبهت الاشواق اليك وقــد تساءل الكثيرون عن حقيقة زارا . وجميع من وصلت معسولات أناشيدك إلى آذانهم، جميع المنفردين أفراداً وأزواجاً يقولون: أترى لم يزل زارا في الحياة ؟ إذا نحن لم نعش معه كانت الحياة باطلة لا خير فيها. لماذا لا يجيء الينا بعد ان اعلن قدومه طويلاً ؟ أذهبَ فريسة عزلته ، أم علينا أن نسعى اليه ؟

إن العزلة نفسها قد تراخت وتفككت في هــذا الزمان فكأنها قبر ينشق عمن ثوى فيه ، ففي كل بقعة بعث ونشور .

وها ان الامواج تتعالى حول الجبل . وبالرغم من ارتفاع ذروتك لقد حق على الكثيرين أن يرقوا اليك وقد حان الزمن لاطلاق سفينتك من مأواها .

إذا كنت ترانا الآن امامك نحن من حكمنا اليأس فتغلبنا عليه الآن، فما ذلك إلا دليل على ان من هم خير منا قد خرجوا إلى طريقهم متجهين اليك . ان البقية الاخيرة من اتباع الله بين الناس يسيرون اليك أيضاً وهم من تناهى فيهم الشوق والكره والتخمة من الدنيا ، هم من لا يريدون الحياة إلا إذا اعطي لهم أن يتدربوا على الأمل ، إلا إذا تعلموا منك الأمل الأعظم يا زارا .

هكذا تكلم ملك الميمنة وقد قبض على راحــة زارا قاصداً تقبيلها ولكن زارا تراجع عنه وابتعد عن الجميع في صمته العميق ثم عاد اليهم يحدجهم بلفتاته الخارقة لسرائرهم فقال :

— أيها الرجال الراقون ، أيها الضيوف، اصغوا إلي،انني سأخاطبكم بالالمانية وبكل صراحة فأقول لكم ان من انتظر قدومه إلى هذه الجبال ليس أنتم .

فقال ملك الميسرة : انه سيخاطبنا بالالمانية وبصراحة .. أفــلا يتضح ان هــذا الحكيم الشرقي لا يعرف من هم الالمـــان ؟ وكان الاجدر بــه أن يقول سأخاطبكم بالالمانية الخشنة ، وما هي بأقبح ما في هذا الزمان .

فأردف زارا قــائلا : لقد تكونون جميعكم رجالاً راقين أمــا أنا فلا أراكم بلغتم ما يستلزمه التفوق من العظمة والقوة هكذا انتم في تقديري أو بالأحرى في تقدير الارادة الصارمة الكامنة في نفسي . وهي صامتة الآن ولكنهــا لن تسكت أبداً . لقــد تكونون من اتباعي ولكنكم لستم مني في مقــام ساعدي الأيمن ، لأن من يمشي على أرجــل مريضة كأرجلكم يحتاج إلى عناية ومداراة سواء أعرف نفسه أم خفيت حاله عليه ، وأنا لا اداري ساعدي ولا رجلي ولا اداري المجاهدين تحت امرتي ، فكيف تقتحمون ما أصلى من معارك ؟

إذا أنا اعتمدت عليكم عرضت للفشل انتصاري لأن لأن اكثركم ينطرح صريعاً لأول قرعة تهدر بها طبولي .

ما أنتم من البهاء على ما أرجو ولا من النسب على مـا أطلب وأنا اطلب المرايا الصافية لأعكس عليها تعاليمي ، فاذا ما انعكست صورتي على مراياكم جلتها مشوهةً للناظرين .

ان كواهلكم مثقلة بعديد الاحمال وبخيالات الزمان المنصرم ، وفي خباياكم شرورٌ كثيرة ففيكم من الغوغاء خصال مستترة فأنتم وإن صلحتم وحسن أصلكم لا تزال فيكم عيوب عديدة وأمهر حدّاد لا يسعه تقويم اعوجاجكم .

ما انتم إلا جسور يعبر عليها من هم خير منكم ، ما أنتم إلا مدارج يرقاها المتجه إلى الاعتلاء فوق ذاتـه ، وعليكم ان تلينوا له ظهوركم ، لقد يولد منـكم يوماً من يصبح وارثاً لي ولكن هذا اليوم لا يزال بعيداً في مجال الزمان ، أما أنتم فما لكم أن تحملوا اسمي ولا أن ترثوا خيراتي في هذه الحياة .

لستم أنتم من انتظر هنا في هذه الجبال ، لستم أنتم من سأسطحب عندما أهبط بين الناس للمرة الأخيرة ، فما أنتم إلا طليعة القادمين إلي وهم أعظم منـكم لأنهم من غير من تناهى فيهم الشوق والكره والتخمة من الدنيـا ومن غير الفئة التي تدعونها البقية الأخيرة من اتباع الله على الارض .

لا .. والف لا .. انني انتظر سواكم هنا على جبالي العالية ولن اتحرك للخروج إلى العالم قبل أن يصلوا إلي. فهم ارفع منكم واقوى، هم رجال المرح الاصحاء من رأسهم إلى أخمص أقدامهم ، ولا بد أن يأتي إلي هؤلاء الاسود الضاحكون .

أفما بلغـكم أيها الضيوف خبر ابنائي وهم قد خرجوا على طريقهم يقصدون مقري ؟

حدثوني عن حدائقي وجزري السعيدة ، حدثوني عن نوعي الجـديد . لماذا لا تحدثونني عن كل هذا ؟

استحلفكم بحق ضيافتي لكم أن تذكروا لي ابنائي ، فما جمعت الثروة إلا لهم. وما تحملت الفقر إلا من أجلهم فامتنعت عن العطاء .

انني افدي بكل شيء هؤلاء الابناء وهم النبت الحي ، أدواح الحياة المجسمة لأعز آمالي .

وتوقف زارا فجأة عن الكلام لتغلب شوقه عليه فأغمض عينيه وأطبق فمه متنصتاً لخفقان فؤاده .

وساد الصمت جميع مَنْ في الغـــار غير ان العراف الشيخ أخـذ يرسم إشارات غريبة .

العشاء السري

وتقدم العراف كمن عيل صبره وقبض على يد زارا قائلاً : ولكن ... أفما أنت القائل ان بعض الامور مقدم على بعض ؟ أفما دعوتني إلى تنـاول الطعام وهنا مَنْ قطعوا شوطاً بعيداً للوصول اليك ، فهل ترى أن تشبعنا كلاماً ؟

لقد تحدثتم كثيراً عن الموت برداً وغرقـــاً واختناقاً ولكن لم يذكر أحد منكم بليتي أنا وهي الخوف من الموت جوعاً .

وما سمع النسر والافعوان هذا الكلام حتى سادهما الرعب فهربا إذ تأكدا ان كل ما جمعاه منذ الصباح حتى المساء لن يكفي لاشباع العراف وحده .

وأردف العراف قائلاً : ولم يذكر أحد منكم الخوف من الموت عطشاً، اما أنا فبالرغم من انني سمعت تدفق الفصاحة كالنهر فانني لا ارتوي منها بل أطلب خمراً لأن الخمر وحده يرتجل الصحة ارتجالاً ويقضي على المرض بالشفاء العاجل.

وبينما كان العراف ذاهباً في كلامه يطلب خمراً كان ملك الميسرة يقول: لقد تداركت الخمر فأحضرت منه حملاً ولكن الخبز ينقصنا .

فضحك زارا وقال : ان المنفردين لا خبز لديهم ، ولكن ليس بالخبز وحده يحيا الانسان بل بلحم الخراف أيضاً ولديّ خروفان ، فليذبحا وليعدّا ليعطرا فانني أحب لحم الخروف معطراً،ولديّ أيضاً أعشاب وأثمار تكفي اهل الشراهة واهل الذوق،وعندي من الجوز وسائر المغلفات مايشغلنا كسره وكشف خفاياه.

سنجلس عما قليل لنتناول خير غذاء ولكن على الجميع أن يمدوا سواعدهم للعمل وليشتغل الملكان كالآخرين ، لأن زارا وهو ملك يمكنه أن يكون طباخاً أيضاً .

وفرح الجميع بهذا الاقتراح ما عدا المتسول المتطوع الذي كان يأنف من اللحوم والخمور والتوابل ، فقال — اسمعوا ما يقول زارا في شراهته ! فهل يتسلق الانسان الجبال ليتنعم بوليمة ؟ وانني لأفهم الآن ما كان يقصد بتعليمه إذ قال « ليكن الفقر مباركاً » وادرك لماذا يريد افناء المتسولين .

فقال زارا — كن مرحاً مثلي يا هذا واحتفظ بما تعودته . امضغ حبوبك اشرب ماءك وامتدح طبخك إذا كان هذا يورثك الحبور . فما أنا امثل الشريعة إلا لأتباعي ولي ولست شريعة للناس أجمعين . ولكن من أراد أن يتبعني فعليه أن تقسو عظامه وتخف رجلاه ، عليه أن يكون فرحاً في الولائم فيطرح عنه الهموم ويبقى مستعداً لاقتحام الصعاب قوياً صحيحاً .

ان خير ما في الارض لي ولأتباعي ، وإذا منع عنا أخذناه عنوة واقتداراً، لنا ألذ غذاء وأنقى سماء وأقوى الأفكار وأجمل النساء .

هكذا تكلم زارا ، ولكن ملك الميمنة أجابه قائلاً :

— أليس من الغريب أن يقول حكيم بمثل هذا القول الصواب ! والحق لمن الغرابة بمكان ان يجمع الحكيم بين الامرين ولا يكون حماراً .

هذا ما قاله ملك الميمنة وهو يبدي دهشته فأمن الحمار من قوله بالنهيق ، وهكذا بدأت هذه الوليمة الطويلة التي دعيت بالعشاء السري في كتب التاريخ، وما دار حديث اثناء هذا العشاء إلا على الانسان الراقي .

الانسان الراقي

١

عندما جئت إلى الناس لأول مرة اتيت الجنون الاعظم الذي يرتكبه المنعزلون فوقفت على الساحة العمومية ،ووجهت الخطاب إلى الكل فكأنني ما كلمت أحداً، غير انني امسيت ورفاقي حبال وجثث أموات بل كنت أنا نفسي جثة باردة .

ولكن عندما انبثق الصبح الجديد تبلجت لعيني حقيقة جديدة علمتني أن أقول « ما لي وللساحة العمومية ولعامة الناس ولضجتهم وآذانهم الطويلة » .

أيها الرجال الراقون ، تعلموا مني قولي « لا يؤمن أحد في الساحة العمومية بالانسان الراقي » وإذا شئتم لن تتكلموا على هذه الساحة كما تشتهون فان العامة تتغامز قائلة « اننا جميعاً متساوون » .

أيها الرجال الراقون ، إن طبقـة الشعب تنكر الانسان الراقي فهي ترى الناس على اختلاف طبقاتهم وانساناً واحداً أمام الله .

أما المساواة أمام الله فما لنا ولها ما دام هذا الاله قد مات ! ولكن العامة كائنة ونحن نأبى المساواة أمامها ، فاعرضوا عن العامة ، أيها الرجال الراقون، وابتعدوا عن ساحتها .

٢

أمام الله ! ولكن الله قد مات في هذا الزمان ، أيها الرجال الراقون ، وقد كان عليكم الخطر الأعظم ، ولولا اندراجه في الحدة لما كنتم أنتم تبعثون .

في هذا الزمان تعود الظهيرة إلى ذر أنوارها ويصبح الانسان المتفوق سيداً.

أفهمتم معنى كلمتي هذه، يا اخوتي؟ أراكم ترتعشون فهل أصيب قلبكم بالدوار؟ وهل فغرت الهاوية فاها أمامكم أيضاً ؟ أيعوي كلب الجحيم في أثركم يا ترى ؟

إلى الأمام ، أيها الراقون ، لقد آن لطود المستقبل الانساني أن يلد .

لقد مات الله ، ونحن نريد الآن أن يحيا الانسان المتفوق .

٣

ان اوفر الناس اهتماماً في هذا الزمان يتساءلون عما يحفظ حياة الانسان ، أما زارا فهمّه أن يعرف كيف يتفوق الانسان على انسانيته .

ان الانسان المتفوق قبلة أنظاري وعواطفي ، وما اهتم للانسان ولا للقريب ولا للفقير ولا للمخزون ولا لخيار الناس .

اي اخوتي ، أنا لا أحب من الانسان إلا كونه مرحلة وجنوحاً . وفيكم أيضاً أجد صفات عديدة تحببكم إلي وتبعث الآمال في قلبي .

لقد عرفتم الاحتقار أيها الراقون ، وذلك ما يشدد بكم أملي لأن عظماء المحتقرين هم أيضاً عظماء الحرمة والجلال .

لقد بلوتم اليأس وذلك مـــا اكرمه فيكم لأنكم لم تتمرنوا على الاستسلام وعلى دناءة الاحتياط .

ان زعانف القوم هم سادة هذا الزمن، الداعون إلى التجلد والصبر والتواضع والتحذر والثبات وإلى ما هنالك من حقيرات الفضائل .

انهم لأشباه الرجال يتصفون بصفات النساء والمستخدمين ويقودون الغوغاء طامحين إلى التسلط على مقدرات الدنيـــا ، فيا للكراهة ! وأفٍ لهؤلاء القوم أشباه الرجال ، فانهم لا ينون يتساءلون عمـــا يطيل حيـــاة الانسان متلذذاً متنعماً ، وبهذا يسودون في هذا الزمان .

اعتلوا فوق هؤلاء الناس يا اخوتي فإنهم ألد أعداء الانسان المتفوق .

اعتلوا أيها الرفاق فوق صغار الفضائل والمحاذرات ومراعات ذرات الرمال

وأكوام النمل وملذات الذات وطلب السعادة للعدد الأوفر بين الناس .

وخير لكم أن تتمنعوا بيأسكم من أن تستسلموا ، إنني احبكم لأنكم تعرفون أن تحيوا في هذا الزمان ، أيها الراقون ، وبذلك تتمتعون بافضل ما في الحياة .

٤

أشجعان أنتم ، أيها الاخوة ؟ ولا أعني تلك الشجاعة التي لا تنجلي في الانسان إلا أمام شهود، بل شجاعة المنفرد الذي لا يراه أحد: شجاعة النسور التي يعد لها من إله شهيد !

إن الأرواح الجامدة والبغال والعميان والسكارى لا تعرف ما هي قوة القلب ، وما ثبتَ الجنان إلا من عُرف الخوف فتغلب عليه ومن سبر أعماق الهاوية فما نالت الأعماق جنانه بروعة واضطراب .

الشجاع من حدق في القاع السحيق بمقلة النسر ومن قبض على الأغوار بمخلبه، ذلك هو الشجاع .

٥

لقد قال الحكماء إن الانسان شرير طلباً لتعزيتي ، ويا ليت هذه الحقيقة تنطبق على أحوال هذا الزمان ، فإن الشر قد أصبح خير ما في الانسان من قوة ، فعلى المرء أن يزداد ارتقاء في خيره وشره أيضاً ، هذا هو تعليمي أنا... فإن أعظم شر إنما هو أعظم خير للانسان المتفوق .

إن الدعوة الى احتمال العذاب وحمل خطايا العالم كانت تليق ببشير الطبقة الحقيرة بين البشر ، أما أنا فإنني أسر بالخطيئة العظمى كأعظم تعزية .

على أن مثل هذه الأقوال لا تبذل لمن استطالت آذانهم ، وما تليق كل

الكلمات بجميع الأفواه ، فإن من الحقائق ما تدق عن الأفهام العادية فتتوارى وراء الأبعاد وليس لأرجل الخرفان أن تتراكض للحاق بها .

٦

أيها الراقون ، أتعتقدون أنني أتيت لأصلح ما شوهتم باخطائكم ، أو لأهتم بتهيئة المراقد الوثيرة للمتألمين منكم ، أو لأدل التائهين في الجبل على المغاور ليخرجوا من مآزقهم ؟

لا ... فليذهب الى الفناء الخيار في نوعكم ، إذ يقتضي أن يتزايد ضيفكم مع كرور الايام ، لأن بهذا الضيق وحده يتعالى الانسان الى الذرى حتى يبلغ مرامي الصاعقة المحرقة القاتلة .

أنا لا أتوجه بتفكيري وأشواقي إلا نحو العديد القليل ونحو الحادثات الدائمة البعيدة في مجال الأزمان ، وما يهمني شقاؤكم وآلامكم الحقيرة الزائلة .

إنكم لا تزالون مقصرين في مجال الشقاء وما بلغت آلامكم ما عليها أن تصل إليه ، لأنكم من أجل ذاتكم تتألمون لا من أجل الانسان : وان ادعيتم بتحميلكم هذا العذاب فأنتم كاذبون ، فليس بينكم واحد تحمل ما تحملت من أوصاب وآلام .

٧

انني لن أرضى بتوقف الصاعقة عن إنزال الأذى ولا اريد أن تتحول عن مسلكها حين تنقض ، بل اريد أن تسدد مزماها وتخدم مقاصدي .

لقد تجمعت حكمتي طويلاً وتكاثفت غمامة يتزايد اربدادها وسكونها ، ذلك شأن الحكمة التي قدر لها أن تقذف بالصاعقة يوماً من الايام .

أنا لا أريد أن أكون نوراً لأبناء هذا الزمان ولا أن أدعى نوراً ما بينهم ، لأنني اريد ابراثهم العمى ، فلتنزل على أعينهم صاعقة حكمتي .

٨

لا تطلبوا شيئاً يفوت قواكم ادراكه ، فمن طلب ما لا طاقة له به فقد كذب نفسه، لأنه إذ يطلب العظائم وهو مزور ومقلد تنفر منه العظائم حتى يرى ذاته زائغ البصر جماداً مطلياً في فمه كلمات كبرى وبين يديه قرقعة لا جدوى لها .

كونوا على حذر من طلاب العظائم أيها الرجال الراقون ، فالقناعة خير الكنوز .

أفليست العامة من يسود هذا الزمان ؟ وهي مع ذلك لا تميز بين العظيم والحقير والطريق السوي والمسلك الملتوي ، فالعامة متقلبة كاذبة دون أن تشعر بجريمة كذبها .

٩

تمنعوا بالحزم أيها الراقون ، يا رجال الشجاعة وحرية الضمير ، فهذا الزمان زمان العامة، وما تعلمته العامة وقبلت به دون تعليل لا يسعكم هدمه بالبرهان في عقيدتهم .

ان الاقناع لا يقوم في الساحة العامة على المعقول بل على الحركات والنبرات، ولا شيء يلقي بالنفور في روع العامة كالبرهان .

وإذا انتصرت الحقيقة مرة هنالك فتساءلوا بكل ارتياب عن الضلال الذي دافع عنها فأولاها انتصارها .

احذروا العلماء أيضاً فانهم يكرهونكم لعلة عقمهم ، وعيون العلماء باردة جافة لا تلقي نورها على طير حتى تعرّيه من ريشه ، انهم يباهون بامتناعهم عن الكذب ، فاحذروا من هذه المباهاة لأن المجال بعيد بين من عجز عن الاتيان بالكذب ومن أحب الحقيقة .

ان فقد الحرارة شيء ورزانة الحكمة شيء آخر ، ولا ثقة لي بالعقول الباردة ، فمن لا يعرف أن يكذب لا يعرف ماهية الحقيقة ولا كيفيتها .

١٠

إذا أردتم بلوغ الذرى فتسلقوها بأرجلكم ، ولا تطلبوا أن تحملوا اليها حملاً على ظهور الغير ورؤوسهم .

قل لمن يمتطي جواداً ويسير خبباً نحو هدفه: لاتنس ان رجلك العرجاء راكبة معك ولسوف تترجل في آخر الشوط فتهوي من ذروتك إلى الحضيض .

١١

أيها الرجال الراقون ، انتم المبدعون ولا تحمل المرأة في احشائها إلا ابنها .

لا ترتكبوا شططاً . اعلموا من هو القريب ولا تظنوا ان بامكانكم أن تفعلوا من أجله شيئاً كما لا يمكنكم أن تبدعوا بالنيابة عنه .

أعرضوا عن كلمة « من أجل » وتناسوها ، أيها المبدعون ، لأن فضيلتكم تتوقف على ألا تفعلوا شيئاً من أجل أحد أو بسبب أحد أو لأية علة أصموا آذانكم دون هذه الادوات الكاذبة .

ان العمل من أجل القريب فضيلة صغار القوم وقد جرى بينهم القول بالتبادل وبأن احدى اليدين تغسل الاخرى . ومثل هؤلاء لا حق لهم بانانيتكم ولا قوة لهم على الانصاف بها .

ان في انانيتكم، أيها المبدعون، حزم الحبلى ومحاذرتها ، لأن محبتكم تحيط بالثمرة التي لم ترها عين بعد ، فتحفظها وتمدها بالغذاء . فاذا ما كان حبكم كله منصباً على ولدكم تجلت في ذلك كل فضيلتكم ، لأنه هو واجبكم وارادتكم فلا تضللكم كاذبات الشرائع .

١٢

اعلموا أيهـا الراقون المبدعون ان كل من سيلد مريضٌ ، وان كل من ولد قد تنجس .

سلوا النساء لتعلموا ان لا لذة في التوليد ، فالدجاج تبيض صائحة والشاعر يبدع متألماً .

لقد حل بكم نجس الوالدات ، أيها المبدعون .

كل مولود جديد يأتي برجس إلى العالم ، فعلى كل مبدع أن يطهر نفسه .

١٣

اياكم وممارسة الفضائل بما لا طاقة لكم بـه ، ولا تكلفوا نفوسكم ما يستحيل حكماً .

اقتفوا ما أبقت فضائل آبائكم من آثار ، إذ كيف يتسنى لكم الارتقاء إذا لم ترتق معكم إرادة آبائكم ؟ ولكن ليحذر الطامح إلى بلوغ الطليعة أن يصبح آخر السائرين، احذروا ان تدخلوا أية قداسة على رذائل آبائكم ، فمن العبث ان يطالب بالعفة من تمرغ آباؤه بالنساء وكرعوا الخمر والتهموا لحم الخنازير .

انكم لتطلبون كثيراً إذا اقتضيتم العفاف من مثل هذا الرجل فحددتم له امرأة أو اثنتين أو ثلاثاً أما أنا فلا اصدق بارعوائه حتى ولو أنشأ ديراً وكتب على بابه « هذه طريقي القداسة » ، إن هـذا الدير إلا ملجأ ومقر لمحاولات الجنون ، فمـا ينمو في العزلة من الانسان إلا ما استصحبه اليها من حوافز ، وهنالك المجال لنمو الحيوان الكامن .

من الخير أن نردع الكثيرين عن العزلة والانفراد .

هل على وجه الارض في هذا الزمان من يفوق دنساً القديسين المتنسكين في الصحراء يدور حولهم الشيطان من جهة والخنزير من جهة أخرى ؟.

١٤

ما رأيتكم مرة تنتحون مكاناً قصياً عن الناس وقـد بدت عليكم دلائل اليأس والخجل ، أيها الرجال الراقون ، ألا وتمثلتكم كالنمر فات فريسته أو كاللاعب خانه الزهر على صفحة نرده .

ولكنكم لا تبالون فانكم ما تعلمتم اجادة اللعب والتحدي ؟ وهل نحن في الحياة إلا جلاس مائدة كبرى للسخرية والمقامرة ؟

ألأنكم أخطـأتم وفاتتكم المقاصد العظمى تريدون أن تفوتوا أنفسكم ولأنكم فشلتم تريدون أن يفشل الانسان ؟

١٥

كلما تعالت المثل صعب تحقيقها ، أما أنتم أيها الرجال الراقون نماذج فاشلة للمثل الاعلى ؟

ولكن لا تبالوا بهـذا بل أقدموا واضحكوا من أنفسكم إذ لا عجب في انكم نماذج فاشلة أو نصف فاشلة لأن نصفكم منحطم ، ومستقبل الانسان يسير سيره البطيء وهو يتكامل فيكم .

أفما يتدافع ويغلي في مراجلكم أبعد وأعمق مـا في الانسان ؟ أفما يكن فيكم اعتلاؤه إلى السهى وقوته العظمى ؟

وهـل من عجب إذا تصدعت مراجل عديدة من بني البشر ؟ فاضحكوا يا أهل الرقي فما أكثر الممكنات في مستقبل الانسان .

أفما نجحت محاولات عديدة فيا مضى ؟ ولكم على الأرض من امور بلغت كمالها وان صغرت !

احيطوا نفوسكم بهذه الاشياء الصغيرة المتكاملة فانها تنيل قلوبكم الشفاء بنضوجها فلا شيء يعلمنا الأمل إلا ما بلغ الكمال .

١٦

ان اعظم ما ارتكب في العالم من اخطاء هو قول القائل « ويل للضاحكين في هذه الدنيا » فان من جاء بهذا الانذار قد قصر في التفتيش فما وجد على الارض شيئاً يستحق الضحك في حين ان الاطفال يجدون ما يضحكهم .

لقد كان حب هذا النذير قصير المدى فما اتصل الينا منه شيء نحن الضاحكين، بل انه ابغضنا ووجه الينا لعنته وهو يتهددنا بالبكاء وصريف الاسنان .

أفليس من فساد الذوق أن يندفع الانسان إلى اللعن إذا هو لم يحب ؟ هذا ما فعله ذلك النذير لأنـــه ابن العامة المتعصب . ولو انه عرف الحب لما كان احتدم غضباً لأنـــه لم يحب ، فكل محبةٍ تتناهى لا تطلب محبةً ... بل تطلب أكثر من المحبة .

ابتعدوا عن جميـع هؤلاء المتعصبين فهم نوع من الانسانية مريض فقير ، هم من العامة التي تزوغ نظراتها من الحياة وتصيب الأرض بسم أعينها .

ابتعدوا عمن لا يعرفون التساهل فان خطواتهم ثقيـلة على التراب وقلوبهم مثقلة في الصدور ، انهم لا يعرفون الرقص فكيف لا يثقل عليهم التراب ؟

١٧

ان جميـع الاشياء الحسنة تسير نحو أهدافها على منعرجات السبيـل فترفع ظهورها كالهرة هادرةً لما تتوقع من سعادة قريبة المنـال ، فالأشياء الحسنة تضحك أبداً .

لك أن تعرف من خطوات الناس إذا كانوا ظفروا بطريقهم السوي ، فانظر إلى خطواتي تدرك حالي ، وإذا رأيتني راقصاً فاعلم انني اقتربت من هدفي .

والحق انني ما استحلت تمثالاً ولا انقلبت عموداً لا حياة ولا حس فيه ، فأنا

أحب الجري في الجـــال البعيد ، لأن في الارض مستنقعات كثيرة ومآثر لا تجتازها إلا الأرجل الراقصة المنزلقة .

ارفعوا قلوبكم إلى ما فوق ، أيها الاخوة ، ولكن لا تنسوا أرجلكم ، إذ عليكم أن ترفعوها أيضاً وإذا أردتم اجـــادة الرقص فعليكم ألا تأنفوا من الانقلاب على رؤوسكم .

١٨

أنا المتوج نفسي ملكاً على الضاحكين باكليـــل ضفرته من الورود يداي ، ليس سواي من يقوى على تطويب ضحكه كما فعلت .

أنا زارا الرقاص، الخفيف الخطوات الضارب بجناحيه متحفزاً للانتفاض إلى الأعالي مشيراً إلى جميع الطيور بنشر اجنحتها ، أنا من بلغ من الرشاقة الالهية .

أنا زارا العراف . أنا الضاحك الصبور المتسامح المحب للوثوب وتجـــاوز المحدود ، أنا المتوج نفسي بنفسي .

١٩

ارفعوا قلوبكم إلى العـلاء ، يا اخوتي ، ولا تنسوا أن ترفعوا أرجلكم ، أيها الراقصون المجندون ، بل انتصبوا على رؤوسكم أيضاً .

ان بين طلاب السعادة حيوانات ضخمة ثقلت حركتهـا ، وبينهم من ولد كسيحاً ، فمثل هؤلاء يحاربون الرشاقة كالفيل يجرب أن ينتصب على قمة رأسه، غير ان المجـانين بالسعادة خير ممن يجنون بالشقاء ، والراقص متثاقلاً ، أفضل ممن يتعارج في مشيته .

تعلموا الحكمة مني ، ان لأقبح الاشياء وجهتين لهـــا حسنها ، ولشر الناس رجلين للرقص ، فتعلموا أيها الرجال الراقون أن تقفوا سوياً على أقدامكم .

أعرضوا عن أشجان العامة وأحزانهم ، فان للمهرجين بينهم في هذا الزمان سماء الغارقين في الاحزان ، ذلك لأن هذا الزمان زمان العامة من بني الانسان.

٢٠

كونوا كالهواء المندفع من مغاور الجبال ، فهو يهب راقصاً على هواء فيرتعش البحر متراقصاً لدغدغة نسماته .

تبارك من يستنبت اجنحة للحمير ومن يمد أنامله لضرع اللبؤة فيحتلبها ، ان هو إلا الروح الطيب الثائر يهب كالعاصفة من أجل ما هو عتيد ومن أجل ما سيكون . ان هو إلا عــدو الرؤوس الشائكة والرؤوس المتثلمة ، عدو كل الاعراب الزائلة وكل ما دب فيه الفساد .

تبارك روح العاصفة روحاً وحشياً طيباً حراً طليقاً يرقص على مستنقعات الاحزان كأنه يتمايل منها على ناضرات المروج . تبارك من روح يكره الغوغاء المستكلبين الفاقدين الصواب وكل ناقص يتعزز بالعبوس .

تبارك روح العاصفة من قوة تهب الحياة لكل فكرة حرة ، تبارك من زعزع يذري الرمال وهو ضاحك على عيون مقروحة لا ترى في الوجوه إلا قتاماً .

أيها الرجال الراقون ، ان شر مــا فيكم هو انكم لم تتعلموا الرقص على اصوله لتتوصلوا إلى الانطلاق بخطواتكم فوق رؤوسكم ، ومــا يضيركم ألا توفقوا إذا حاولتم .

ان الممكنات كثيرة ، أيها الراقون ، فتعودوا أن تضحكوا ولو عــلا ضحككم فوق رؤوسكم .

ارفعوا قلوبكم أيها الراقصون الجيدون إلى ما فوق ولا تنسوا أن تضحكوا ضحكاً جميلاً .

انني القي اليكم باكليل الورود فهو تاج الضاحكين . لقد طويت الضحك أيها الرجال الراقون فتعلموه ...

نشيد الاشجـــار

١

وعندما لفظ زارا الكلمات الأخيرة من خطابه ، رأى نفسه أمـام مخرج غاره فترك ضيوفه وانطلق يستنشق الهواء النقي هاتفياً :

يا للنفحات الطيبات ويا للسكينة السعيدة ؟ تعاليـا إلي يا نسري وافعواني وقولا لي أراقتكما رائحة هؤلاء الرجال الراقين؟انني اشعر الآن بمقدار حبي لكما.

إنني احبكما يا نسري وافعواني .

ودار الحيوانان حول زارا وحدقا بـه طويلاً وبقي الثلاثة يستنشقون هواء بليلاً لا يظفرون بمثله في مجلس الراقين .

٢

وما خرج زارا من الغار حتى وقف الساحر الشيخ مرسلاً نظرات التجسس ما حوله وهو يقول — لقد اخلي المكان .

فيا أيها الرجال الراقون ومـا أدعوكم بهذا النعت إلا تشبهاً بزارا في ثنائه عليكم فانه ما كاد يخرج هو حتى عاد فاستولى على روحي الخداع الماكر الساحر وما هو إلا شيطان اشجاني العدو اللدود لزارا فلا تلوموا هذا الشيطان إذا طمح إلى ابـداء ضروب سحره أمامكم وقد اجتاحته نوبة من نوباته ، لطالما حاولت مقاومتها بلا جدوى .

ان روحي الشرير عدو لزارا وهو صديقكم جميعاً سواء أدعيتم رجال الفكر الحرام رجال الحق أم رجال كفارة العقل أم رجال الثورة أم رجال الشوق الاعظم انتم المصابين بما اصبت به من الكراهة العظمى ، انتم المؤمنين بأن الله قد مات دون أن يكون على أحد الاسرة آله آخر تشده الاقمطة في طفولته .

انني أعرف من أنتم يا أهل الرقي وأعرف أيضاً من هو زارا الذي أتوجه اليه بجي مرغماً لأنني احس بأن قديساً سينبثق منه ، ويلوح لي احياناً انه هيكل يسكن فيه شيطان الاشجان فأحبه أيضاً لحلول روحي الشرير في سريرته .

لقد أوشك هـذا الروح أن يستولي علي ، وها هو ذا يصرعني ، فيا له من شيطان يتقمص أشجان الفسق !

افتحوا أعينكم أيها الراقون ، ان هـذا الروح يتجسد ولا أدري أيظهر عارياً في هيئة رجل أم في هيئة امرأة .

لقد بدأ ستار العتمة ينسدل حتى على خير الاشياء .

أعيروا سمعكم وحدقوا، أهو رجل أم امرأة،هذا الروح،روح اشجان المساء.

هكذا تكلم الساحر الشيخ ثم أدار لحاظه فيمن حوله وقبض على قيثارته .

٣

عندما يعتل الهواء ، ويتساقط الندى المعزي دون أن تراه العيون ، ومـا تسقط الانداء إلا خفية ككل عزاء .

أفما تذكر ايها القلب الملتاع كم ظمئت إلى دمع السماء ، إلى قطرات الانداء ؟

لقد كنت منهوكاً يرهقـــك السغب والشمس تلقي اشعتها على الاعشاب الصفراء متراكضة حولك من خلال الادواح القاتمة فتبهرك في روعانها ، وتلقي في روعك انك تائق الى الحقيقة ، وما هي إلا خادعة ساخرة .

لا .. ما أنت إلا شاعر ولست الى الحقيقة متطلعاً مشوقاً .

مـا انت إلا حيوان وحشي زحاف عليه ان يتفوه بالكذب ، حيوان مفجوع بالغنائم ، يسدل على وجهـــه قناعاً تعددت الوانه ، وهو نفسه قناع لقناعه وغنيمة لفجعته .

أأنت يا هذا طالب حقيقة وحق ؟

لا .. ما انت إلا مجنون ، ما انت الا شاعر .

انك تتكلم بالاستعارات والتشابيه ، وترتفع عقيرتك مقنعاً بوجه معتوه متراكضاً على معابر من كاذبات البيان ، تائهاً على اقواس قزح مزيفة تحت آفاق لا حقيقة لها .

انك تائه يتراكض في كل مكان .

ما انت إلا مجنون ؛ ما انت إلا شاعر .

* * *

أأنت طالب حقيقة وحق ؟

أأنت طالب حقيقة وحق ؟

ما انت الا مسخ تمثال إلهي يلتمع في صقيعه ، وليس له جلال هذا التمثال ولا صمته منصوباً على مدخل بيت الله .

ما انت الا عدو كل هيكل مشيد للفضيلة، فمسرحك القفار حيث تشب حراً طليقاً ، واذا ما حصرت في مسكن قفزت من نوافذه مستسلماً لتصاريف الحدثان ذاهباً بهدير شهوتك في مجاهل الغاب بين الوحوش الكاسرة الرقطاء الجميلة كالمعصية وقد قطرت أشداقها شبقاً ودماء فتسرح بينها متوحشاً زحافاً كاذباً .

او انت اشبه بالنسور التي تحدق طويلاً في الاغوار حتى إذا لاحت الخرفان في مراعيها انقضت عليها . انهـــا لعدوة الخراف وكل من له نظراتها وصوفها ورداعتها .

* * *

ما شهوة الشاعر إلا شهوة النسر والنمر .

تلك هي شهوتك المقنعة بألف وجه ايها المجنون ، ايها الشاعر !

لقد نظرت الى الانسان كأنه نعجة فمزقت الله فيه كما مزقت النعجة وأنت تقهقه ضاحكاً .

تلك هي لذتك ، أيها الشاعر ، ان هي إلا لذة نسر ونمر ، لذة شاعر ومجنون لقد جنحت يوماً في الهواء البليل جنوح الهلال الحسود على وجه انوار الغروب ، هارباً من النهـــار عدوه اللدود متوارياً عن شجيرات الورود الى ان يغمرها الظلام ماحياً اشباحها .

اجل لقد جنحت فيما مضى جنوح الهلال هارباً من جنون الحقيقة وشهوة النور ، تعبت من النهار ومن اضوائه فانحدرت عليلاً نحو المغرب إلى مطارح الظلام ، وقد احرقتني الحقيقة بسعارها .

افما تذكر ايها القلب الملتاع محنة تعطشك في ذلك الحين ؟

مالي وللحقائق جميعها ، سحقاً لها .

ما انا إلا مجنون ، ما انا إلا شاعر .

المعرفـــة

هذا ما انشده الساحر ، موقعاً في شراك نغمة الغدار الحزين جميع من حوله ما عدا صياد العلقة المقيد بضمير العقل فانه لم يقع كالآخرين بل نهض واختطف القيثارة من يد الساحر صارخاً : — لقد سممت هواء الغار يا هذا .

جددوا الهواء ، ادخلوا زارا الينا .

ان سحرك ايهـــا المراوغ يدفع بالناس إلى الشهوات ومجاهل القفار ، ويا لشقائنا إذا كان امثالك يتكلمون عن الحقيقة ويولونها اهمية ، وويل للأفكار الحرة إذا كانت لا تحذر الساحرين ، انها لتفقد حريتها باهمالها .

انك تدعو للرجوع إلى السجون وتقتاد الناس ايهـا الشيطان الحزين ، ففي

أنينك دعوة مستترة فما أشبهك بمن يمجدون العفاف فيجيء تمجيدهم دعوة إلى الملذات .

هكذا تكلم صاحب ضمير العقل ، غير ان الساحر كان يجيل أبصاره في من حوله وهو يتنغم بظفره فتتغلب لذته على حنقه من خصمه . وأخيراً نظر اليه قائلاً بلطف : ان الاغاني الجميلة تثير خير الاصدقاء ولذلك يجب أن يعقبها السكوت الطويل ، أفما ترى هؤلاء الرجال الراقين ينصتون ؟ ويلوح لي انك لم تفهم شيئاً من نشيدي لأن تفكيرك محصور في دائرة السحر .

فأجاب صاحب الضمير : انك تثني عليّ بالاقرار بالفرق بينك وبيني ، وحسناً فعلت ، ولكن أنتم أيها الراقون ما لي أراكم وأنتم ذوو النفوس الحرة ساكتين كمن تطلع طويلاً إلى رقص غانيةٍ عارية متهتكة فاذا بروحه ترقص في داخله ؟

فليس فيكم أيها الراقون القوة التي لا تزال منها خزعبلات الساحرين ؟

ولكنني أراكم في وادٍ وأنا في واد . لقد تسنى لي أن أتحدث اليكم طويلاً قبل ان عاد زارا إلى مغارته فعرفت انني معكم على خلاف ، فانتم لا تطلبون ما اطلب عن عقيدة راسخة وما جئت إلى زارا إلا لأنني أعلم انه معقل الادارة الثابتة التي لا تتزعزع في هذه الازمان للتي يتصدع فيها كل شيء ويتداعى .

أما أنتم فان نظراتكم تدل على انكم تطلبون الريبة وتتشوقون إلى الشك ، فتودون لو يزيد الارتعاش وتعم الزلازل الارض لتزداد حياتكم اضطراباً ، فما اتخوف منه أنا تتوقون أنتم اليه فتستهويكم حياة الوحوش في الغابات والمغاور .

انكم لتنفرون ممن يدعوكم إلى اجتناب الاخطار فلا تأنسون إلا إلى المضللين الساحرين .

ولكن اعلموا ان هذه الاماني الكامنة فيكم لن يكون لها أن تتحقق ، لأن الخوف شعور غريزيّ أزليّ في الانسان يفسر كل شيء ويجلو حقيقة الخطيئة

الاصلية والفضيلة الأصلية ، وفضيلتي أنا قد نشأت عن الخوف واسمها « العلم ».

لقد عاش الانسان طويلاً يسوده الفزع من الحيوانات الكاسرة وبينها الوحش الكامن فيه والذي يدعوه زارا « الحيوان الداخلي » . وقد استحال هذا الخوف مع كرور الزمان إلى ذعر روحي يدعى « علماً » .

هكذا تكلم صاحب ضمير العلم ، وكان زارا قد عاد إلى الغار وسمع نهاية الخطاب فأخذ ينثر أوراق الورد على رأس صاحب الضمير وهو يهزأ به قائلاً :

– ماذا اسمع ؟ والحق انك مجنون وإلا كنت أنا مجنوناً . لذلك ابادر إلى انزال الحقيقة على رأسك دفعة واحدة . فاعلم ان الخوف شذوذ في الانسان لأنه ما نشأ في الاصل إلا مفطوراً على الشجاعة طماحاً إلى تقلبات الحدثان مأخوذاً بلذة الشك مدفوعاً لاقتحام المجهول ، فالشجاعة اولى عواطف الانسان ، إذ استهوته وفضل الضواري وأشد الحيوانات عزماً واقداماً فما عتم حتى غنم هذه الفضائل منها وهكذا صار انساناً .

ويلوح لي ان هذه الشجاعة الراقية الوثابة انسانية بجناح النسر وروغان الأفعى تدعى اليوم ...

فضحك جميع الحاضرين وهتفوا بصوت واحد :

تدعى زارا ..

وارتفع من بين الحشد شيء اشبه بالغمامة السوداء وتوارى فبدأ الساحر بالضحك أيضاً وهو يقول :

لقد خرج روح الشرير مني ، أفما دعوتكم إلى الحذر منه عندما أعلنت لكم انه روح مكار مخادع كذاب ، ويتناهى مكره بخاصة عندما يتجلى عارياً ، ولكنني أعجز من ان أقاوم سحره فما أنا من خلقه وما العالم .

فلنعد الآن إلى صلاحنا وسرورنا . انظروا إلى زارا فان في عينيه قتاماً ،

وأراه ناقماً علي ، غير انه لن يثبت على نقمته حتى يجيء الظلام فسوف يتراجع حبه ويعود مثنياً علي لأنه لا يستطيع البقاء طويلا دون أن يرتكب مثل هذا الجنون .

ان زارا يحب أعداءه وهو بين من صادفت في حياتي أقدرهم في هـذا الفن ولكنه في سبيل حبه لأعدائه ينتقم من اصدقائه .

هكذا تكلم الساحر الشيخ فصفق له الحاضرون حتى اضطر زارا إلى الدوران في غاره وهو ينفض راحتيه متبرماً من أصحابه بعاطفة تمازج شرها بحبها فكأنه يحاول عذر الناس والاعتذار اليهم في آن واحد ، وعندما وصل إلى مخرج الغار شاقه الهواء الطلق وتذكر نسره وافعوانه فاندفع طالباً الخروج .

بين غادتين في الصحراء

وعندئذ صاح المسافر الذي دعا نفسه خيال زارا قائلا : — لا تذهب ابق بيننا لئلا تكر علينا أحزاننا بعد ان تولت عنا ، فقد أغدق علينا الساحر شر ما سده حتى ان رئيس الاحبار الوافر التقوى بـدأ يسكب الدمع من عينيه ويتوه في بحر الشجون ، وليس بيننا من احتفظ بحزمـــه غير هذين الملكين لتعودهما التحكم بسيمائهما ، ولو انهما كانا على انفراد لكانت تبدو عليهما ألاعيب الغيوم وتعصف ريح الخريف باكية فوقهما فنسمع إعوالاً ونواحاً . ابق هنا يا زارا . لا تذهب فهنا ويلات خفية تريد أن تتكلم ، هنا ظلمات وغيوم وهواء كثيف يضغط على الصدور .

لقد بذلت لنا الغذاء الانساني وأتينا بالآيات تتدفق قوة وأملا فلا تسمح ان تجتاحنا في ختام هذه الوليمة روح التراخي والكسل .

ليس لسواك أن ينفخ حولنا هواء القوة والنقاء ، فانني ما نشقت في العـالم ما يهب علي في غـــارك من لفحات صافيات ، وقد جبت الاقطار ومررت

بعاطسي على أجواء وأجواء فما راقني شميمٌ إلا حيث تقيم .

لأصدقنّ القول ، لقد راقني مرة مثل هذا الشميم من قبل عندما أنشدت مـــا أوحى إلي بين غادتين في الصحراء حين ملأت صدري من نسمات الشرق المشبعة عطراً في صفائها وأنا بعيد عن أوروبا الهرمـــة تكدر جوها الغيوم وترهقها رطوبتها وأشجانها .

ذلك زمان عشقت فيه غـــادتي الشرق في صحرائه فهنالك سماء غير هذه السماء لا تتلبد فيها الغيوم ولا تعتكر على أديمها الافكار .

انكم لأعجز من أن تتصوروا سحر هاتين الغادتين وهمـا معرضتان عن الرقص جالستان وفي سكونهما أجمل حركات الفنون وقد كمن الفكر في صدرهما فكأنهما أسرار والغاز تتماوج أشكالاً وألواناً فلا يعروها قتام ، وهكذا الألغاز المستسلمة لمن يحل مكنونها .

لقد أوحي إليّ هذا النشيد للتشبيب بغادتي الصحراء .

هكذا تكلم المسافر المدعو خيـال زارا ولم يدع مجالاً ليجاوبه أحد فقبض على قيثارة الساحر ولف ساقاً على ساق وهو يحـــدج من حوله بنظرات تشع حكمة ووقاراً وقـد انفتحت ارنبتا أنفه تنشقان الهواء مليـاً فكأنه غريب في بلاد بعيدة يتنسم أجواءها .

وبدأ ينشد بصوت يزأر زئيراً :

ان الصحراء تتسع وتمتد فويل لمن يطمح إلى الاستيلاء على الصحراء

يا للمهابة !

يا للبداية تليق بمهابة صحراء أفريقيا .

تليق بأسد أو بنذير يهيب بالناس إلى مكارم الاخلاق .

انهـــا لروعة لم تسلط عليكما يا صديقيّ عندما اتيح لي أنا ابن اوروبا أن

أجلس عند أقدامكما تحت ظلال النخيل . حي على الصلاة !

* * *

يا للعجب !

أراني ماثلاً أمـام الصحراء ولكنني عنها جد بعيد ، وما ابتلتني الواحات الصغيرة ، بل انفرجت أمامي كأطيب الثغور نكهة فأرقيت فيها وهـا أنذا عند أقدامكما يا صديقتيّ العزيزتين . حيّ على الصلاة !

* * *

إنني أمجد الواحة إذا كانت عززت من نزل فيها ...

وأنتما تدركان ما رموزي من الحكمة .

طوبى لأحشائها إذا كانت كهذه الواحة ، ولكنني أشك في ذلك فأنا قادم من أوروبا أشد العرائس جحوداً .

اصلحها الله انه السميع المجيب .

* * *

هـا أنذا جالس في ظلال أصغر الواحات فما أشبهني بتمرة سمراء مذهبة تتشوق إلى ثغر كاعب يفتر عن اسنان محدودة ناصعة كالثلج ، وهل تحلم قلوب التمر الملتهبة إلا بمثل هذه الثغور ؟ حيّ على الصلاة !

* * *

ما أشبهني بهذه التمور عند الظهر ، تتطاير حولهـا الهوان المجنحات وتدور بي شهوات أصغر من هذه الهوام وأشد منها جنوناً وشراً ، وإلى جانبي « دودو وزليخا » صامتتين كأبي الهول .

اني انشق نسمات الجنان والهواء حولي مفضض بأشعة ما أرسل القمر مثلها في الاجواء ، فهل أرسلها صدفة أم عن قصد كما قال الشعراء الاقدمون ؟

أما أنا فأشك فيما قيـل لأنني آتٍ من أوروبا وهي أشد العرائس جحوداً أصلحها الله انه السميع المجيب .

انني انشق الهواء ملء معاطسي وليس لي أمس ولا غـد ، فأجلس معلقاً أبصاري على النخـلة وهي تتأود وتتثنى وتهز ردفيها فكأنها راقصة دارت طويلاً على رجل واحدة ، حتى لا يسع من يراها إلا أن يقلدها ، ولعلها نسيت ان لها رجلاً ثانية .

وقد فتشت عبثاً عن هذه الرجل الصغيرة الساحرة تحت الاردان الخافقة ، صدقاني يا عزيزتيّ ان هذه الرجل الاخرى قد ذهبت في سبيلها .

ويلاه ! أين استقرت تلك الرجل التائهة وأين حطت رحالها ؟ ولعلها الآن وحيدة منفردة ترتجف فرقـاً من هجمات وحش كاسر أو أسد أصفر تجمدت لبدته ولعلها الآن ممزقة أربا . حيّ على الصلاة !

* * *

لا تبكيا يا عزيزتيّ فقلبكما رقيق وصدركما يدر حناناً .

أي زليخا ! كوني كالرجال وتشددي ، وأنت دودو الشاحبة ، لا تذرفي الدمع بعد ،

ولكن لا بد في هذه الارجاء من قوة تشدد القلوب ، لا بد من آيات تفوح عطراً وتتسامى جلالاً .

* * *

ارتفع يا مظهر الجلال ولتهب مرة اخرى نسمة الفضيلة

ويا ليت أسد الفضائل يزأر أيضا أمام غـادات الصحراء ، فزئير الفضيلة يا بنات الصحراء ، أقوى ما ينبه أوروبا ويحفز بها إلى النهوض .

هاأنذا ابن أوروبا، لا يسعني إلا الخشوع والانتباه لدوي هذه الآيات البينات وقد توكلت على الله .

ان الصحراء تتسع وتمتد ، فويل لمن يطمح إلى الاستيلاء على الصحراء !..

الانتبـــاه

١

وبعد ان انشد كل من المسافر والخيال نشيده ضج الغـار بالحركة والضحك فأخذ الجميع يتكلمون في آن واحد حتى الحمار نفسه، فوقف زارا غاضبا ساخراً بضيوفه بالرغم من تسرب شيء من فرحهم إلى قلبه إذ رأى في هذا الحبور أول أعراض الشفاء . فانسحب إلى خارج الغار وبدأ يخاطب نسره وافعوانه قائلا:

– أين ذهب يأسهم ، أراهم نسوا ذلك اليـــأس عندي ولكنهم لم ينسوا الصراخ بعد .

وسد زارا اذنيه إذ تعالى نهيق الحمار يزيد في جلبة هؤلاء الرجال الراقين .

وقال : انهم فرحون ولعلهم تعلموا مني ولكن ضحكتهم ليست ضحكتي.

لا بأس فهم شيوخ يثلون إلى الشفاء بالذهاب على سبيل تحيروه ، ولقـــد احتملت اذناي من قبل أشد من هذا الصخب .

انه ليوم انتصار هذا اليوم لأن الروح الكثيف يتراجع إلى الوراء وهو عدو النور اللدود . لقد بدأ هذا النهار شؤماً ولعله ينتهي إلى خير .

ها ان المساء قادم ممتطياً جواده قاطعاً البحار على سرجه الارجواني ،

ان المساء تحدجه بلفتات الحبور والأرض تتراخى على أسرارها ، فالحيـاة تستحق الاهتمام قربي أيها النازلون ضيوفاً عليّ .

وإذ دارت الجلبة في الغار أردف زارا قائلاً :

— انهم تعلموا الضحك لنفسهم فقد فارقهم الروح الكثيف وهذا تأثير غذائي وآياتي ، والحق إنني ما قدمت لهم من الاغذية ما تنتفخ به الاحشاء بل ما يليق بالمجاهدين فنبهت فيهم شهوات جديدة .

ها ان سواعدهم وأقدامهم تمتلىء أملاً جديداً وقد تمددت قلوبهم فوجدوا بياناً جديداً يولد المرح في تفكيرهم .

وما أجهل أن مثل هذا الغذاء لا يبذل للاطفال ولا للنساء المتراخيات سواء أكن عجائز أم صبايا فإن للاطفال والنساء علاجات غير هـــذا العلاج لاقناع امعائهم وما أنا بطبيبهم ولا بالقوام عليهم .

لقد تخـلى هؤلاء الراقون عن اشمئزازهم وفي ذلك ما أعده ظفراً لي . لقد أحسوا أنهم في مأمن عندي فتعروا عن كل حياء سخيف وها هم يعربون باخلاص عما يشعرون .

انهم يفتحون قلوبهم ويعودون إلى أويقات الصفاء ويجترون ممتنين، والامتنان خير دليل على الرجوع إلى الصواب ، فلن يطول الزمان حتى يرفعوا الانصاب لذكرى أفراحهم القديمة .

أن هم إلا ناقهون !

هكذا تكلم زارا وقـــد استولى عليه الفرح ودار حوله نسره افعوانه محترمين سعادته وسكونه .

٢

وبعد هنيهة اضطربت أذنا زارا لانقطاع الجلبة من الغـــار وقد ساد فيه سكوت الموت ولكن رائحة عطرية انتشرت منه كأن هنالك مجمرة تحرق فيها رؤوس الصنوبر .

وتساءل زارا عما يفعل القوم في غـاره وتقدم نحو الباب فإذا به يشاهد أمراً من أغرب الامور فصاح : لقد عادوا إلى التقى ، فهم يؤدون شعائر الدين ويصلون ، لقد جنّوا .

وكان جميع من في الغار جاثين على ركبهم كالاطفال والعجائز يعبدون الحمار

وبدأ أقبح العالمين يهدر ويتلوى ويستعد للترنم . وما عتم حتى بدأ ينشد قائلاً :

المجد والحكمة والمنة والثناء والقوة لالهنا إلى أبد الآبدين .

فجاوبه الحمار بنهقة مستطيلة .

– انه يحمل أثقالنا ويقوم بخدمتنا ، فهو الجلود الصبور الذي لا يرد طلباً ، ومن أحب الهه أدبه بصرامته .

فجاوبه الحمار بنهقة .

– انه صموت لا ينهق إلا ايجـاباً لطلبات العالم الذي أبدع فهو يمتدح عالمه وإذا سكت فما سكوته إلا لمكره ، لأنه لا يستهدف للخطأ .

انه يمر ولا من يأبـه له في الحياة ، فلون جلده رمادي يستر به فضيلته ، وإذا له عقل فهو يستره ، لذلك يؤمن الجميع بأذنيه الطويلتين .

فجاوبه الحمار بنهقة .

– يا للحكمة الخفيـة ، ويا لصاحب الأذنين الطويلتين لا يجيب إلا بالايجاب ولا يرد طلباً ! أفما خلق العالم على صورته ومثاله فجاء العالم على أشد ما يكون حماقة وسخافة ؟

فأجاب الحمار بنهقة .

– انك تتبع طرقاً مستقيمة وطرقاً ملتوية وما يهمك ما يدعوه الناس استقامة والتواء فإن ملكوتك قائم ما وراء الخير والشر فبراءتك هي جهلك للبراءة .

فأجاب الحمار بنهقة .

– انظر كيف انك لا تدفع أحداً عنك فتقبل الصعـاليك كما تقبل الملوك وتدع الاطفال يأتون اليك وإذا ما جاءك الخطاة استقبلتهم بنهقة الترحيب .

– انك تحب الانثى والتين الناضج فلست متعصباً في غذائك فلا تأنف من قضم الشوك إذا جعت . وفي هذا كمنت حكمتك الالهية .

فأجاب الحمار مصدقاً بالنهيق .

عيد حمـــار

١

وعند هذا المقطع من المدائح عيل صبر زارا فبدأ ينهق هو أيضاً واندفع إلى وسط ضيوفه وقد استولى عليهم الجنون صارخاً : ماذا تفعلون يا أبناء الناس ؟

وتقدم يرفعهم الواحد بعد الآخر قائلاً :

الويـــل لكم لو رآكم أحد غير زارا ، إذن لحكم الكل عليكم بأنكم في دينكم الجديد من أفظع الجدفين أو من أشد العجائز تخريفاً وجنوناً .

أنت يا رئيس الاحبـــار كيف تسنى لك دون أن تجحد نفسك أن تعبد حماراً كأنه إله ؟

فأجاب الحبر الكبير : عفوك يا زارا انني اعرف منك بأمور الله ومن الحق أن أكون هكذا ، وخير لنا أن نعبد الله في حمار من ألا نعبده مطلقاً . تمعن في كلمتي هذه أيها الصديق العظيم يتضح لك ان فيها كثيراً من الحكمة .

ان من قال « ان الله روح » قد خطا الخطوة العظمى نحو الجحود ، وليس من السهل اصلاح ما تفسده مثل هذه الكلمة في العالم .

ان فؤادي يرتقص فرحاً إذ بقي على الارض شيء يمكننا أن نعبده .

اغتفر يا زارا لرئيس أحبار تقي ما يشعر به .

والتفت زارا إلى المسافر والخيال قائلاً :

ـ وأنت يا من تدعي الفكر الحر بل من تتصور انك فكر حر ، كيف تمثل هذا الدور الغريب وتتعبد للوثن ؟

انك تفعل الآن ما لم تفعله بين الغادات السمر ذوات الدلال يا من اتخـــذ لنفسه عقيدة جديدة .

فأجاب المسافر والخيال ـ الأمر محزن وأنت مصيب ولكنني عاجز عن الاتيان بأي عمل فان الاله القديم قد بعث فقل ما تشاء يا زارا .

ان السبب في هذا كله هو أقبح العالمين فهو باعث الاله ولو قال انه هو قائله فلينس موت الإله إلا عقيدة لا ترتكز على شيء .

فقال زارا : وأنت أيها الساحر القديم المراوغ ماذا فعلت ؟ من سيؤمن بك بعد الآن في أزمنة الحرية هذه إذا كنت تؤمن بمثل هذا الحماريات الالهية .

لقد أتيت حماقة فكيف أقدمت عليها وأنت على ما تعلم من المهارة والاحتيال.

فأجاب الساحر : لقد أصبت فما أتيت إلا حماقة ولقد كلفتني جهداً كبيراً .

فقال زارا : وأنت يا ضمير العقل ، تفكر وضع اصبعك في انفك ، أفمـا يبكتك ضميرك على ما فعلت ، أفمـــا تدنس فكرك من هذه العبادة ومن هذا البخور المتصاعد ؟

فوضع ضمير العقل اصبعه في أنفه وأجاب : ان في هذا المشهد شيئاً يرتاح له ضميري . وقد لا يكون لي الحق بأن أعبـد الله غير انني أرى ان الها على هذه الشاكلة يستحق الايمان .

يجب أن يكون الاله خالداً بحسب ما شهد به الاتقيـاء ، فمن كان له مثل هذا الزمان الطويـــل له أن يمنح نفسه خير الازمان وأن يعيش على مهـل وبالسخافات التي تحلو له ، فيبلغ الهدف الذي يريد ، ومن له الفكر المتجاور حده يميل إلى السخافات وإلى الجنون .

أفلا ترى يا زارا انك معرّض بافراط حكمتك إلى أن تصير حماراً ؟

أفلا يتجه الحكيم إلى السبل المتعرجة ، وهلا تجد في نفسك ما يثبت هذه الحقيقة ؟

ونظر زارا إلى أقبح العالمين فاذا به لم يزل منطرحا على الارض وهو يقدم للحمار خمراً ليشرب فقال له :

– ماذا انت فاعل ؟ لقد تبدلت يا هذا فعينك تشع نوراً وقد اتشح قبحك برد الجلال. أصحيح ما يقوله رفاقك ؟ أأنت بعثته من الموت ؟ ومن الذي أهاب بك إلى احيائه ؟ فهل كنت على خطأ عندما قتلته وألحقته بغابر الزمان ؟

انني أراك أنت راجعاً إلى الانتباه بعد غفلتك فماذا فعلت ولماذا هديت نفسك ؟ تكلم أيها الغامض .

فقال أقبح العالمين – ما أنت إلا لئيم يا زارا ، وأنا أسألك فأجب من منا أعلم فيما إذا كان هذا الاله لا يزال حياً أم انه مات حقيقة .

غير انني أعلم كما علمتني فيما مضى ان من يريد أن يقتل قتلاً لا حياة بعده يلجأ إلى سلاح الضحك فالغضب لا يقتل ، أفما قلت هذا يا زارا أنت المستتر ، أنت الهادم بلا غضب والقديس الخطر ! فما أنت إلا لئيم .

٢

ودهش زارا لما سمع من اجوبة فاندفع إلى باب غاره ووقف هنالك يصيح بأشد نبراته :

– لماذا تخفون سرائركم أمامي ، أيها الطائشون ، فما ارتعشت قلوبكم في صدوركم لأنكم عدتم أطفالاً أي من أهل التقى ففعلتم فعل الاطفال وضممتم أكف الضراعة قائلين « أيها الاله الصالح العزيز » .

ألا فاخرجوا الآن من غرفة الاطفال ، ان مغارتي قد شهدت اليوم جميع ألاعيبهم . اذهبوا وتأملوا خارجاً في طيش طفولتكم وفي نبضان قلوبكم .

لا ريب في انكم إذا لم تعودوا أطفالاً فلا تدخلون ملكوت السماوات (قال هذا ورفع اصبعه نحو السماء) .

فقالوا — لا ... لا نريد أن ندخل ملكوت السموات لأننـا وقد أصبحنا رجالاً لا نطلب في غير الارض ملكوتاً .

٣

واستأنف زارا الخطاب فقال :

— اي اصدقائي الجدد ، أيها الرجال الغريبو الاطوار ، أنتم أيها الراقون انني لأعجب الآن بكم ، لقد عاد سروركم اليكم فتوردت وجوهكم وقد حق لكم كأزهار جديدة أن تعيّدوا فأقمتم للحمار حفلة إذا أردتم أن تسروا وأن يجيء زارا المرح بجنون شيخوخته لينير أرواحكم .

لا تنسوا هذه الليلة وهذا العيد ، أيهـا الرجال الراقون ، فقد أبدعتم فيما اخترعتم وما يوجد مثل هذه الأعياد إلا الناقهون لأنها نذير الشفاء .

فاذا مـــا احتفلتم بهذا العيد ، عيد الحمار ، فاصنعوا هذا محبة بأنفسكم ومحبة بي ، اصنعوا هذا لذكري ...

هكذا تكلم زارا ...

نشيد الثمـــل

١

وبينما كان يتكلم خرجوا الواحد تلو الآخر إلى الهـواء الطلق وقبض زارا على ذراع أقبح العالمين وخرج به ليريه مشاهد الليـل والشلالات المتدفقة قرب منارة مفضضة بشعاع القمر . وأمام هذه الشلالات وقف جميع هؤلاء الشيوخ

وقد تسرب العزاء إلى قـــلوبهم فشدد عزائمهم وكان كل منهم معجباً بذاته ، وقال زارا في نفسه : لكم تشوقني رؤية هؤلاء الراقين الآن !

وعندئذ وقع أغرب حادث شهده القوم طوال يومهم إذ رأوا أقبح العالمين يهدر مفتشاً عن كلمات لبيانه فاذا بـه يتناول مسألة خطيرة ذهبت تهز أحشاء السامعين .

قال : أيها الاصحاب ، هذه أول مرة أحيــا فيها الحياة كلها بيوم واحد ، فقد كفاني هذا العيد بصحبة زارا لأتعلم محبة الأرض ، فيمكنني الآن أن أقول للموت : أهذه هي الحياة ؟ إذن أعدني اليها مرة أخرى .

أفلا تريدون أيها الأصحاب أن تقولوا للموت مـــا أقوله له : أهذه هي الحياة ؟ إذن أعدنا اليها من أجل محبة زارا أخرى .

هكذا تكلم أقبح العالمين وكان الليل قد قارب الانتصاف .

وأحس الرجال الراقون عندئذ بأنهم تحولوا عما كانوا عليه وقاربوا الشفاء وقالوا ان زارا قـــد بدل من حالهم فأقبلوا عليه يلثمون راحتيه احترامـاً فضحك بعضهم وبكى البعض الآخر . وكان الساحر القـــديم يرقص طرباً . ولعله كان مأخوذاً بالسكر ، على ما ينقله بعض الرواة ، ولكنه ولا ريب كان ثاملاً من حياته الجديدة بعد أن تخلى عن حياة التراخي والكسل . وقال بعض الرواة ان الحمار نفسه بدأ يرقص متأثراً مما سقاه أقبح العالمين ، وقد يكون الحمار استسلم للرقص في ذلك المساء فليس للأمر أهمية مـــا دامت الحوادث الجسام التي وقعت حينذاك تفوت ما لرقص الحمار من شأن .

إن من آيات زارا قوله — وأية أهمية لهذا —

٢

وعندما نطق أقبح العالمين بما ذكرنا كان زارا في حالة اضطراب شديد إذ انعقد لسانه وارتجفت ركبتاه وتماوت نظره، ومن يدري ما كان يدور حينذاك

في خلده ، فكأنه يذهب بفكره مداً وجزراً ويتحفز للطيران وقد شخص الى الابعاد مطلاً من الذروة على بحرين ، أو سائراً كغمام كثيف بين الدابر والمقبل من الزمان .

وأحاط الراقون بزارا يسندونه بسواعدهم إلى ان ثاب رشده اليه فدفع عنه القوم المسارعين إلى تمجيده دون أن يقول شيئاً ولكنه شخص كمن يسمع صوتاً فوضع سبابته على شفتيه وصرخ : تعالوا ...

وساد الصمت ودوت من بعيد رنة جرس ، فتنصت زارا ومن معه ثم عاد يقول وقد وضع سبابته على شفتيه ثانية .

تعالوا ... تعالوا ... لقد اقترب نصف الليل .

وتغيرت نبرات صوته ولكنه ظل في موقفه .

وعاد السكوت يثقل على الكل حتى على الحمار والنسر والافعوان والغار والقمر الباهت والليل نفسه .

ورفع زارا سبابته للمرة الثالثة إلى شفتيه وقال :

– تعالوا ... تعالوا ... هيا قد دنت الساعة ، هيا بنا إلى الليل !

٣

أيها الرجال الراقون لقد انتصف الليل ، ولسوف أسر اليكم بما أسره إلي الجرس القديم في رنينه .

سأناجيكم بالرهبة والاخلاص اللذين ناجاني بهما جرس نصف الليل القديم البالغ من العمر ما لم يبلغه الانسان الفرد .

لقد عد هذا الجرس من قلوب آبائكم نبضاتها فهو يزفر ساعة نصف الليل زفيراً ويرسلها ضحكاً في قلب الظلام .

انصتوا ! ان من الاشياء ما لا تعلن في نور النهار ،أما في هذه الساعة وقد اعتل

الهواء وسكنت ضوضاء قلوبكم فان الاشياء تتناجى وتتفاهم وتتسلل إلى أرواح السمر فيمتد بها ويطول ، فاسمعوا زفير ساعة الليل في قدمها وعمقها ؟

– أيها الانسان كن على حذر !

٤

ويل لي ! أين تسرب الزمان ؟ أفما وقعت في آبار لا قعر لها ؟

لقد نامت الدنيا ، ويلاه إنني أسمع هرير الكلب وأرى لمعان القمر ، انني لأفضل الموت على أن أبوح لكم بما يعتقده فؤادي عن نصف الليل .

لقد مت وقضي أمري !

لماذا تمدين نسيجك حولي أيتها العنكبة ، أتطلبين دماً ؟ ويلاه لقد تساقطت الانداء ودنت الساعة ، الساعة التي سأرتجف فيها برداً وأتحول فيها إلى جليد ، الساعة التي تسأل وتسأل ولا تكف عن السؤال قائلة « من سيجرؤ على هذا ؟ من سيكون سيد العالم ، من يرضى ويريد أن يهتف بالأنهار كبيرها وصغيرها : سيري على ما اقرر لك ؟ » .

لقد دنت الساعة ، أيها الانسان الراقي ، فكن على حذر . ان هذا الخطاب موجه إلى مرهفات الاسماع ، إلى اسماعك .

– ماذا يقول نصف الليل في أعماقه ؟

٥

إنني محمول إلى هنالك ، وروحي ترقص في كل يوم ! من سيكون سيد العالم يا ترى ؟

لقد نوّر القمر وسكن الهـــواء ، وا أسفاه ، هل تسنى لكم أن ترتفعوا بطيرانكم ؟ لقد رقصتم ولكن الساق ليست جناحاً .

أيها المجيدون في رقصكم ، لقــــد انقضى زمن الحبور فاستحال الخمر إلى

خميرة ، لقد فرغت الكؤوس وعلت همسات القبور .

انكم لم تبلغوا الأعالي في طيرانكم لذلك تنادي القبور « انقذوا الاموات، لماذا طال بنا الليل ؟ فهل أسكرنا شعاع القمر ؟ »

فيا أيها الراقون أنقذوا القبور ، ما لكم لا تُنهضون الاموات ؟ كفى الديدان ما رعت ! لقد دنت الساعة .

لا يزال الجرس يدوي برنينه فالقلب يزفر زفرات الاحتقار . ان سوس القلب ينخر شغافه .

ويلاه ! ما أعمق هذا العالم ؟

٦

أيتها القيثارة ! لكم أحب نغمات أوتارك كأنها تتعالى من بعيد ومن الزمان المنصرم عن ضفاف نهر الغرام .

ما أنت أيها الجرس إلا هذه القيثارة المشجية فلكم قرعت قلبك الاحزان، أحزان الآباء والأجداء والسلفاء الأقدمين، حتى انضجت دعوتك الازمانفغدت كالخريف المذهب وكقلبي المنفرد ، فأصبح صوتك كلاماً . والعالم نفسه قد نضج كالعناقيد لوّحها الاسمرار فهو يريد أن يموت مكفناً بحبوره .

أفما تنشقون يا رجال الرقي عبيراً يضوع خفياً ؟ ان هو إلا عبير الابد ، رائحة خمرة السعادة المعتقة ، السعادة الشاملة بشوقها إلى الموت، المطلقة انشادها في نصف الليل قائلة :

– ان العالم عميق ، ان العالم أعمق ، أكان يظن النهار .

٧

دعني .. دعني ، انني أطهر من أن تمسني يدك وقد اكمل عالمي ، دعني أيها

النهار الاحمق العبوس الثقيل ، أفليست ساعة نصف الليل أشد منك اشراقاً .

يجب على الاطهـــار أن يسودوا العالم وهم المجهولون الاقوياء ، تكمن فيهم أرواح نصف الليل المشعة بأنوار أعمق وأصفى من أنوار النهار .

أيها النهار ، انك حولي وتراود سعادتي لأنك تجـــد فيّ أنا المنفرد ينبوع كنوز لا تفنى .

أنت تطلبني ، أيها العالم ، وما أنا بالعالمي ولا بالديني ولا بالالهي ، مـا أثقلك أيها النهار وما أثقلك أيها العالم ؟

لتذهب أيديكما على هدى ، لتذهب قابضة على سعادة أعمق وشقاء اعمق ، لتذهب مستولية على أحد الآلهة ولتدعني وشأني .

أيها النهار ، ان سعادتي عميقة وشقائي عميق ولكنني لست إلهـاً ولست حتى جحيم إله ، وما أعمق أوجاع العالم !

٨

أيها العالم الغريب ، ان أوجاع الاله أعمق من أوجاعك فاقبض على أوجاع الاله ودعني وشأني ، فما أنا إلا قيثارة تفيض عذوبة وسحراً .

أنا قيثارة نصف الليل ، أنا جرس لا يفهم أحد بيانه وعليه أن ينطق أمام الصم ، وأنتم الراقون لا تفهمون ما أقول .

لقـــد قضي الأمر وتوارى الشباب مع الظهيرة والعصر فحان وقت المساء وأقبل الليل ونصف الليل ، هذا الكلب وهذه الريح كلاهما يعوي .

وهل الريح إلا كلب يئن ويعوي ؟ فيـــا لصوت الريح من زفير وضحك وحشرجة عند انتصاف الليل !

انها لشاعرة سكرى تجاوزت حدود النشوة وطال سهدها ، هـذه الساعة القديمة تداعب أوجاعها عند نصف الليـــل وتداعب أيضاً مسراتها ، والمسرة عند اشتداد الألم تفوق الألم شدة وعمقاً .

٩

لما تمتدحينني ، أيتها الكرمة ، أفما قطعت جفنك بقساوة فقطرت دماً ، فما لثنائك يتجه إلى قسوتي الشاملة ؟

اسمعك تقولين – كل شيء بلغ كماله ونضوجه يطلب الموت . تبارك منجل الكرّام ! فما يتمسك بالحياة إلا ما لم يبلغ النضوج بعد .

ان الألم يقول لنفسه مر وانقض ولكن المتألم يطلب الحياة قاصداً أن ينضج ويصبح مرحاً مليئاً بالشهوات متشوقاً إلى الأبعد والأعلى والأشد صفاء ، فكل من يتحمل العذاب يصيح « اريد ورثة لي ، انما مقصدي هو أولادي لا أنا » في حين ان المسرة لا تطلب ورثة ولا أولاداً . لا تقصد المسرة إلا ذاتها ولا تتشوق إلا إلى الخلود ، إلى عودة الأشياء بعد عبورها وإلى كل ما يشبه ذاته مستقراً إلى الأبد .

يقول الألم : انحطم يا هذا ، اقطر دماً أيها القلب ، اذهبي أيتها الساق وتطاير أيها الجناح بعيداً نحو الأعالي فما أنت إلا آلام وأوجاع .

فهيا إذاً يا قلبي الهرم ما دامت الآلام تقول لك مرّ وانته ...

١٠

أيها الرجال الراقون ما تراكم تحسبونني ؟ أنبي أنا أم متوهم أم ثامل أم معبر أحلام أم جرس يدوي في نصف الليل ؟

أأنا ندى أم بخورٌ من الابدية ؟

أفما سمعتم ؟ أفما شعرتم بأن عالمي قد اكتمل ؟

ان نصف الليل هو الظهيرة أيضاً .

ان الالم لذة واللعنة بركة والليل شمس مشرقة .

ابتعدوا كيلا يقال عنكم أيضاً ان الحكيم مجنون .

إذا كنتم أحسستم بفرح فقد أحسستم أيضاً بجميع الأتراح ، فجميع الأشياء متسلسلة متداخلة متعاشقة .

أفما اشتهيتم أن تعود المرة مرتين فهتفتم ارتياحاً للذة ، لحين من الدهر ولطرفة عين؟ انكم بهذا التمني وددتم لو تعود الأشياء جميعها، متسلسلة متداخلة متعاشقة . وهكذا احببتم العالم، أيها الخالدون ، فكان حبكم أبدياً لا نهاية له . قلتم للآلام أن تنقضي ولكنكم دعوتموها لتعود ، لأن كل لذة تطلب الخلود .

١١

ان اللذات تطلب الخلود لكل شيء ، فتريد عسلاً وخميراً وساعة ثاملة في نصف الليل ، تريد قبوراً وتريد الدموع تنسكب مؤاسية على القبور والشمس الجانحة بنورها الذهبي إلى الغروب .

وأي شيء لا تتشوق اللذة اليه ، فهي أشد ظمأً وجوعاً من الألم وفيها ما ليس فيه من روعة وأسرار ، فاللذة تطلب ذاتها وتنهش ذاتها فهي ارادة تناضل في حلقة مفرغة ، تريد حباً وتريد بغضاً ، تتمتع بالسعة فتجود وتقذف بما تُقابِل بالبغضاء .

اللذة المتمتعة تشتهي الاوجاع والاحتراق في الجحيم والعار وكل ما عراه التشويه ، فهي تلتهب بظمأ الحياة ، وما خفيت عنكم الحياة في هذا العالم .

ان اللذة الثائرة السعيدة تشتاقكم أيها الراقون وتحنّ إلى آلامكم أيها الفاشلون لأن اللذة الابدية تتشوق أبداً إلى كل محاولة فاشلة ، فهي تطلب ذاتها إذ تطلب الألم .

انحطم أيها القلب فأنت اللذة وأنت الألم .

تعلموا هذا أيها الراقون : ان اللذة تطلب الخلود .

ان اللذة تطلب الخلود لجميع الأشياء ، خلوداً لا نهاية له .

أتعلمتم نشيدي الآن ؟ أأدركتم مغزاه ؟

هيا إذاً أيها الراقون ، ترنموا بهذا النشيد ، فهو نشيدي وعنوانه ، « مرة اخرى » وسينشد مدى الأبد » .

تغنوا جميعاً بنشيد زارا :

أيها الانسان ، كن على حذر .

ماذا يقول نصف الليل ؟

« لقد استسلمت طويلاً للوسن .

« وها أنذا أنتبه من رقادي .

« وان العالم جد عميق .

« فهو أعمق مما يعتقد النهار .

« وآلامه عميقة .

« واللذة أعمق من الآلام .

« يقول الألم — مرّ يا هذا وانقض

« ولكن ليس من لذة لا تطلب الخلود .

« خلوداً لا نهاية له !!!

النـــذير

وفي صبيحة اليوم التالي نهض زارا من مرقده فشد حقويه بنطاق وخرج من غاره ملتهباً قوياً كالغزالة التي كانت حينذاك تذر قرنها من وراء الغمام .

وانتصب زارا يناجي الشمس كما ناجاها من قبل قائلاً .

« لو لم يكن لك » تنيرين أكانت لك غبطة أيتهـا المقلة المتوهجة بأنوار السعادة ؟

أفما يعز عليك الكوكب المظيم أن يبقى من تنير في مكامنهم وأنت طالـع لتهب الأنوار وتنشرها على العالمين ؟

لقد نهضتُ أنا أما هؤلاء الرجال الراقون فلا يزالون مستغرقين في نومهم ، أفيكون هؤلاء الرجال رفاقي الصادقين؟ لا ليسوا هم من انتظر بين هذه الجبال.

اريد أن أبدأ عملي من أول نهـــاري وهم يجهلون نذير صباحي وصوت أقدامي لا ينذرهم بالشروق .

انهم راقدون في غاري ولم تزل أحلامهم ترتوي من نشيدي في نصف الليل ، فليست آذانهم بالآذان المرهفة لسماع أقوالي » .

وكان زارا ذاهباً في نجواه والشمس تصعد في الأفق فإذا به يسمع صرخة نسره على الذرى فقال : لقد أنتبه معي نسري وافعواني للتسبيح امام الشمس في شروقها ، فالنسر يقبض بمخلبه على النور الجديد . انني احب الحيوان الصادق ولكن اين رجالي الصادقون ؟

وفي ذلك الحين احس زارا كأن زرافات من الطيور تدور بـــه واشتد حفيف الاجنحة حول رأسه حتى اضطر الى إغماض عينيه ، فإذا به يشعر بوقع سهام عليه كأنها مفوقة من قوس عدو جديد ، وما كانت تلك الوخزات إلا مداعبة طغمات الحب للحبيب الجديد .

فقال زارا في نفسه وقد استولت الحيرة عليه :

– ما ألم بي يا ترى ؟

وقعد باحتراس على الحجر الكبير أمام غاره ، وبدأ يلوح بيديه ليرد عنه الطيور المتدافعة بحنانها اليه ، ولكنه شعر بان راحتيه تغوران في لبدة وسمـــع ملمس يديه زئير أسد ، زئير ملؤه اللطف والحنان :

فصاح زارا – لقد جاء الانذار .

وأحس بقوة تبدل من قلبه ، ففتح عينيه .فإذا بوحش ضخم أصفر اللون ممدد عند قدميه وقد أسند رأسه على ركبتيه كأنه كلب وجد صاحبه القديم فلازمه لا يريد عنه انفكاكاً .

وكانت أسراب الحمام لا تزال تتطاير حول زارا، وإذا أصاب جناح أحدها أنف الأسد كان الأسد يهز رأسه مندهشاً ويستغرق في ضحكه .

عند هذا المشهد لم يقل زارا غير كلمة واحدة « لقد اقترب أبنائي » وصمت صمتاً عميقاً . غير أنه أحس بسقوط حمل ثقيل عن قلبه فانهمرت دموعه غزيرة تبل راحتيه وذهل عن كل ما حوله لا يبدي حراكاً فجاءت طيور الحمام تقع على كتفيه وتداعب شعره الأبيض، ولا تني تغدق عليه عطفها وحنانها . وكان الأسد مستمراً في إرسال لسانه على راحتي زارا مجففاً ما عليهما من دموعه وهو يزأر متمهلاً خاشعاً .

وطال هذا الموقف ولعله لم يطل فليس لمثله على الأرض من زمان .

وكان الرجال الراقدون نهضوا من رقادهم في هذه الأثناء وتهيأوا للخروج الى زارا ليقدموا له تحية الصباح ، ولكنهم ما أطلوا من باب الغار حتى وثب الأسد وهجم عليهم وهو يزمجر فصرخوا جميعاً والذعر يملأ روعهم وتراجعوا ثم اختفوا عن العيان .

ونهض زارا عن مقعده وقد استولى عليه الذهول فأدار لحاظه في كل جهة وهو يتساءل عما جرى له وعما رأى وسمع ثم ثاب اليه رشده فانجلت أمـــامه حوادث يومه فقال وهو يمر أنامله على لحيته :

— في صبيحة الأمس كنت جالساً على هذا الحجر فتقدم العراف إلي وسمعت لأول مرة صراخ الاستنجاد ، فيا أيها الرجال الراقون ، إن ما أنبأني العراف به أمس إنما كان فشلكم لا غير، وقد أراد أن يقودني نحوكم لتجربتي فقال لي: اي زارا لقد أتيت لاوقعك في آخر أخطائك .

وقهقه زارا ضاحكاً غاضباً من كلمة « آخر أخطائك » وتساءل عما تحتفظ هذه الخطيئة له !

وعاد فاستوى على الحجر الكبير واستغرق في تفكيرة ثم نهض بغتة وهو يهتف :

« هي الرحمة ! الرحمة للرجال الراقين ! »

وظهرت قساوة الفولاذ على سيمائه فقال :

« لقد كان للرحمة زمانها » .

أية اهمية لشهواتي ورحمتي ؟ ما أنـا طالب سعادة ، إن ما أسعى اليه هو المهمة التي وضعتها نصب ارادتي .

والآن وقد جاء الأسد ، فقد اقترب زمان أبنائي . أمـــا أنا فقد بلغت النضوج ودنت ساعتي .

هذا هو الشفق يلوح على صبيحتي وقد طال نهاري . فاشرقي بانوارك أيتهـا الظهيرة العظمى .

هكذا تكلم زارا وهو يبارح مغارته مليئاً بالعزم والقوة كشمس الصبـاح المنبثقة من وراء الغيوم .

انتهى

ما من مُفكرٍ أشدّ إخلاصًا من نيتشه إذ لم يبلغ أحدٌ قبله ما وصل إليه وهو يسبر الأغوار في طلبِ الحقيقة دون أن يبالي بما يعترض سبيله مِن مصاعبَ لأنه ما كان ليرتاع من اصطدامه بالفجائع في قراراتها أو من انتهائه إلى لا شيء .

اميل فاكيه

عضو المجمع العلمي الفرنسي

